ملكية الأرض الزراعية وطرق استغلالها بمملكة غرناطة النصرية

أ/ سليم حاج سعد
جامعة الوادي

إن دراسة وضعية الأرض بالأندلس تعد من القضايا المستعصية، والتي لازالت تشغل بال الباحثين في مجال التاريخ الاقتصادي للأندلس بصفة خاصة. ذلك أن عملية رصد وضعية الأرض تبدو مهمة شائكة، بالنظر إلى قلة النصوص التي اهتمت بذلك، فحتى وإن وجدت تطغى عليها الأحكام الفقهية[1]، وهو ذات الأمر الذي جعل بعض المتخصصين مثل بروفنسال يمتنع عن الخوض في مثل هذه الدراسات، حينما كان بصدد الحديث عن الإقطاع حيث قال : " لا يمكن أن ندلي برأي في موضوع الإقطاع الأندلسي لعدم توفر الوثائق "[2]، ويؤكد رأي بروفنسال ما ذهب إليه الدكتور أحمد الطاهري حين قال : " هكذا استمرت قضية الأرض من ألغز معضلات التاريخ الإسلامي "[3].

صحيح أننا بصدد الحديث عن وضعية الأرض وطرق استغلالها بمملكة غرناطة، وهي فترة متأخرة زمنيا عن هذه الفترة، إلا أنه لا يمكننا فهم ما كان يجري من تطورات في مجال نظام الأراضي بالمملكة، إلا بالوقوف على أصل المشكل في حد ذاته ،المتعلق بالإطار القانوني للأرض منذ فترة الفتوحات الإسلامية، حيث تتواتر الأخبار التي توضح ما تعرضت له الأرض من سطو وأخذ بالعنوة حتى صار القانون : " لكل يد ما أخذت"[4].

تعددت أنواع الملكيات للأراضي الزراعية بمملكة غرناطة النصرية، ما بين ملكيات سلطانية وأخرى فردية، بالإضافة إلى الملكيات الجماعية وأراضي الدولة ثم أراضي الأحباس.

من الصعب الوصول إلى نسب مؤوية دقيقة أو حتى تقييم كمي لحجم الأراضي المملوكة حسب كل صنف من الأصناف سالفة الذكر، وذلك لقلة النصوص المتوفرة بين أيدينا ، والتي تصل إلى حد التناقض في كثير من الأحيان، إلا أننا سنحاول تقديم صورة تقريبية لوضعية ملكية الأرض في مملكة غرناطة النصرية.

وتأتي في مقدمة الملكيات ذكرا في المصادر التاريخية الأراضي السلطانية، وهي ملكيات واسعة ومنيات كثيرة، وهو ما جعل أحد الجغرافيين يصف نهر شنيل بأنه يشق أربعين ميلا بين بساتين وضياع[5] السلطان. كما يشيد ابن الخطيب بهذه المنيات والبساتين التابعة لأملاك السلطان بغرناطة وضواحيها فيقول : " فليس تعرى عن جنباته من الكروم والجنات جهة ... يختص منها بمستخلص السلطان ما بينهن منية ... ففيها كثير من البساتين والرياض والحصون والأملاك المتصلة السكن ..."[6]، ولا نعلم الوسائل والطرق التي حصل بها سلاطين بني الأحمر وحاشيتهم على هذه الممتلكات والمستخلصات الواسعة، إما حيازة عن طريق الاقتطاع أو الشراء[7]، أو ربما بمصادرة ضياع بعض الموظفين بعد وفاتهم، أو عن طريق الوراثة[8]، أو كما يحدث في كثير من الأحيان غصبها بواسطة الاستحواذ على أملاك الدولة[9].

ورغم ذلك، فقد اتسعت أراضي الدولة اتساعا كبيرا في عهد ملوك بني نصر، وهذا بما أضيف لها من أملاك من لا وارث لهم[10]، كما كان السلاطين والأمراء بالأندلس يضمون إلى ملكية الدولة الأملاك المحبسة على بيع النصارى المعاهدة وكنائسهم، إثر فرارهم إلى بلاد العدو، وهي أراض واسعة ، وكانوا يبعثون إلى قضاة وفقهاء الدولة يستفسرون ذلك وإمكانية جوازها[11].

فهي التي حدث خلط كبير بينها وبين الملكيات الخاصة، حتى أصبح من الصعب التفريق بينها، وهو الأمر الذي أكده ابن عذاري حينما اعتبر المستخلص وأملاك السلطان الشيء ذاته[12]، وظل "ديوان المستخلص" الذي اشتهر بالأندلس منذ العهد المرابطي قائما حتى زمن بني نصر بمملكة غرناطة، فكانت مهمته الإشراف على إدارة أملاك الدولة من أراض وعقارات، فيقوم على مراقبة أراضي الدولة مزارعة ومساقاة[13] كما يتولى تحصيل أموالها وغلاتها[14].

كما انتشرت بمملكة غرناطة الملكيات الخاصة على نطاق واسع، بحكم أهمية الأرض، وقد أشار إلى ذلك ابن الخطيب حين قال : " ويتخلل هذا المتاع الغبيط الذي هو لباب الفلاحة ... منها ما انبسط وتمدد، فاشترك فيه الألوف من الخلق، وتعددت منه الأشكال، ونحن نوقع الاسم على البقعة من غير ملاحظة للتعدد، ومنها ما انفرد بمالك واثنين فصاعدا، وهو قليل وتنيف أسماؤها على ثلاث مائة قرية ما عدا ما يجاور الحضرة ـــ غرناطة ـــ من كثير من قرى الإقليم أو ما استضافته حدود الحصون المجاورة "[15]، يقدم لنا هذا النص معلومات بالغة الدلالة بما يتعلق بالملكيات الخاصة بمملكة غرناطة، حيث يشير إلى فئة قليلة تملك أراض واسعة.

وقد تأثرت الملكيات الخاصة بمملكة غرناطة على إثر الأوضاع التي أصبحت تعيشها بلاد الأندلس من حروب الاسترداد وتعنت نصارى الشمال، فنتج عن ذلك هجرة الملاكين الخواص إلى غرناطة بعد بيعهم مجمل أراضيهم بالمدن التي خضعت لسلطان النصارى، وجاءوا إلى مملكة غرناطة محملين بأموالهم مقبلين على شراء الأراضي واستثمارها بالمنطقة، فأدى هذا الوضع إلى ارتفاع أثمانها حتى أصبح "ثمن المرجع[16] منها العلي ... خمسة وعشرين دينارا من الذهب العين"[17] و "أصبحت نادرة الأرض والمثل في الحسن"[18]، وقد عرفت الملكيات الخاصة بمملكة غرناطة تباينا في أحجامها، فإن كانت الملكيات الصغيرة لا يتجاوز حجمها فدان إلى فدانين[19]، فإنه على العكس من ذلك وصل حجم الملكيات الكبيرة مقدار قرية أو ضيعة أو مجموعة كبيرة من الفدادين والبساتين في قرى متعددة من المملكة[20]، وتقدم لنا بعض الوثائق التي وصلتنا نماذج عن أحجام هذه الملكيات في مملكة غرناطة، ففي وثيقة منها هبة من الشيخ أبي جعفر أحمد بن محمد .. إلى ابنه محمد والمؤرخة بتاريخ 880 هـــ أفريل 1481م ، أملاكه "... وجميع الفدان ببطرة ... وجميع الفدان بالقريرة ... وجميع الفدان بالحرمل ... وجميع الفدان بقطورة ... وجميع الفدان بباغة ..."[21]، كما لم تقتصر ملكية الأرض على الرجال، بل شملت عددا من النساء إما عن طريق الوراثة أو الشراء[22].

كما عرفت الملكية الجماعية للأراضي الزراعية في مملكة غرناطة انتشارا كبيرا، وهي أراض تكون مملوكة لجماعة من الأشخاص يستغلونها زراعيا، ويتقاسمون ريعها، كاشتراك أهل قرية من القرى أراضي جماعية فيما بينهم، وهو ما نستشفه في نص ابن الخطيب السالف الذكر حين قال : " ... منها ما انبسط وتمدد، فاشترك فيه الألوف من الخلق، وتعددت منه الأشكال، ونحن نوقع الاسم على البقعة من غير ملاحظة للتعدد ..."[23].

وقد تأثرت الملكية الجماعية في مملكة غرناطة كنتيجة للأوضاع التي أصبحت تعرفها ابتداء من القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي، من اعتداءات جيوش النصارى عليها، وهو ما خلق نوعا من التذمر في صفوف الفلاحين ملاك الأراضي، ففضل كثير منهم بيعها عوض فقدانها، وهو ما تسبب في تفكك أراض جماعية كثيرة، وخلق مشاكل بين ملاكها، وكان البيع في كثير من الأحيان يتم لصالح النصارى[24].

وتشكل أراضي الأحباس[25] جزءا هاما من الأراضي الزراعية في مملكة غرناطة، بل ويذهب ابن الخطيب إلى تقديرها تقديرا ضخما أكبر مما ذكره سابقا من مجمل أنواع العقارات حين

يقول : " ... مواضع أحباس المساجد وسبل الخير ما ينيف على ما ذكر، فيكون الجميع باحتياط خمسمائة ألف وستون ألفا..."[26]، وبهذا فإذا اعتمدنا على هذا النص على اعتبار أن ابن الخطيب رجل دولة ومطلع على العديد من المعطيات الإحصائية ، يمكننا اعتبار أراضي الأحباس بأنها تأتي في المرتبة الأولى من حيث نوعية الملكيات في مملكة غرناطة النصرية، وذلك يعود في المقام الأول إلى اهتمام المرابطين بأحباس غرناطة وتشددهم في التصرف بها[27]، وذلك لأن الأحباس "... يمنع من تغيير شكلها عما وضعت له، ويمنع من أراد أن يدخل فيها شيئا في منافعه ... أو يحرفها من موضعها إلى ما هو أحسن منه وأسهل لأنها أحباس، والأحباس لا تغير عن حالها بوجه ولا على حال..."[28].

وقد اهتم النصريون بمملكة غرناطة بإدارة الأحباس، بأن جعلوا على رأس هذه الإدارة بعض القضاة الذين اشتهروا بالعدل والحزم، فيتولى قاضي الجماعة بالحاضرة غرناطة النظر في شؤون الأحباس، كما يساعد القاضي المسؤول عن الأحباس مجموعة من الأعوان، فكان الواقف يولي على وقفه ناظرا أو وكيلا للوقف يعمل تحت إمرة القاضي، ويساعد الناظر في عمله بعض القباض والكتاب والشهود[29]، وهناك عدد من الوثائق التي تعود إلى عصر بني الأحمر في غرناطة تدل على عملية الوقف التي كان يشرف عنها القضاة، فمثلا وقف شيخ من شيوخ المدينة " ... ثلث متروكه الأصل وسواه من أملاكه السقوية بأرض قرية بليسانة خارج الحضرة ... ويبقى أصولها، حبسا مؤبدا ووقفا مخلدا لا يبدل عن حاله ولا يغير عن سبيله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين ..."[30].

كما لا يمكننا إغفال الهبات السلطانية لبعض الأراضي بالمملكة، فشكلت نسبة معتبرة من الأراضي الحبسية، ومن أمثلة ذلك هبة السلطان النصري سعد بن إسماعيل (858 – 868 هـ / 1454 – 1464م)، "... إلى جميع الأندر الكائن بمنهل اللطاخ من مرج غرناطة المحروسة ..."[31]، كما تقدم لنا بعض الفتاوى الحبسية أمثلة عن إمكانية شراء السلطان أراض من مال الدولة وتحبيسها لصالح المسلمين، وذلك إذا رأى فيه مصلحة تخص الرعية، لأن أموال بيت المال تعد من مصالح المسلمين[32]، كما كثرت الأراضي المحبسة على المساجد في مملكة غرناطة، وخاصة بفحص الحضرة[33]، ونتيجة للخطر النصراني الشمالي على أراضي المملكة، انتشرت الأحباس على الحصون، كالحبس الذي سخر لقرية بسطة لصالح حصن قشتالة وضعفاء الفرسان ببسطة[34]، وكذلك الحبس من الأراضي على حصن صالحة[35]، واعتبارا للأهمية البالغة التي

كانت توليها السلطة النصرية للأحباس باعتبارها جزءا من أملاك الدولة، فقد تشددت في حق المتلاعبين بها، أو المستغلين لها لأغراض شخصية، حيث يطلعنا الونشريسي عن منع صبيان بمسجد الحضرة من قطع أشجار الحبس وبيعها[36]، وإن اعتدى رجل بالغرس في أراضي الحبس فعليه الكراء، ثم يؤمر بالتخلي عن غرسه بعد تأديبه الأدب الوجيع جراء تعديه على أحباس المساجد[37].

يبدوا أن وضعية الأراضي بالأندلس قد تأثرت بمجمل الأوضاع السياسية داخل البلاد، خصوصا عندما يتعلق الأمر بتغيير الأسر الحاكمة. وهو ما يساهم في نقصان ثمن العقار ورخصه أحيانا، فيحاول بعض الملاكين الأثرياء استغلال الوضع بتهافتهم على اقتناء الأراضي، فتنتقل بذلك أملاك كثيرة إلى يد أشخاص قليلين، وهو ذات الأمر الذي أشار إليه ابن خلدون حينما عبر عن هذه الظاهرة باسم "حوالة الأسواق"[38].

كما لا يمكن إغفال بعض الأوضاع الشاذة التي قد يتعرض لها بعض الفلاحون الملاك الصغار من جراء تلك التحولات السياسية، مثل الاستغلال والمضايقات والاستحواذ على أراضيهم، وتقدم لنا كتب الفتاوى والنوازل الفقهية صورا واضحة الدلالة على هذه الحالات، مثل نوازل الغضب[39]، ورهن الأراضي[40] وبيع المضغوط[41]، وهذا الوضع أدى إلى دفع مجموعة معتبرة منهم إلى بيع أراضيهم بأسعار زهيدة، بينما سلكت فئة أخرى من الملاك طريقة "الإنزال"[42]في محاولة للحفاظ على أراضيها، ويكون ذلك عن طريق تسليمها إلى أحد الأشخاص النافذين داخل الدولة، ليستغلها مقابل مبلغ مالي يدفع ككراء عنها، غير أن بعض تلك الشخصيات يستغلون هذا الوضع ويمتنعون عن دفع الثمن المتفق عليه مسبقا[43].

أما بخصوص أشكال وأنماط استغلال الأرض الزراعية بمملكة غرناطة النصرية، فهي من القضايا الشائكة عند الباحثين في هذا المجال، وذلك نظرا لما شهدته الأندلس من تحولات سياسية واجتماعية كان لها الأثر العميق على وضعية الأرض وما أسفر عنها من علاقات إنتاجية، وأشكال مختلفة لاستغلالها، فكانت تتأثر بشكل خاص بملاكي الأراضي وعلاقاتهم بالفلاحين.

ونتيجة لشح المصادر التاريخية الغرناطية الكلاسيكية من معلومات تخص أشكال استغلال الأراضي الزراعية والعقود الخاصة بها. فإننا سنعتمد وبشكل كلي على كتب النوازل والفتاوى الفقهية، والتي تقدم لنا معلومات غاية في الأهمية حول مختلف أنواع "الشركة"[44] والصعوبات

التي واجهتها خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين (14 - 15م)، وقد تعددت تلك الأنواع من العقود التي تنظم العلاقة بين المالك للأرض والفلاح أو الأجير، فتكون سارية المفعول لسنوات عديدة قابلة للتجديد، وهذا بتدخل الفقه الإسلامي بتقنين هذه العلاقة في إطار شروط وعقود مكتوبة ، منها عقود المزارعة [45] والمساقاة [46] والمغارسة [47]، وقد تأخذ شكل المقاسمة أو الكراء بالإضافة إلى أجرة الأجير، كما لم يغفل الفقه الإسلامي طرقا لاستغلال أراضي الأحباس وتسييرها.

فنظام المزارعة مثلا، عرف انتشارا كبيرا في كل بلاد الأندلس منذ عصر الخلافة، فتتم عن طريق عقد مكتوب بين الفلاح والمالك للأرض[48]، ويكون في شكل إيجار أو شركة، وترتبط ارتباطا وثيقا بالموسم الفلاحي، كما لا تصبح سارية المفعول إلا بعد مباشرة الفلاح العمل في الأرض[49]، ويختص نظام المزارعة الأراضي البور التي تستغل لزراعة الحبوب، فيقدم مالك الأرض الأرض والبذور والحيوان الحارث، بالإضافة إلى الأموال اللازمة لبداية العمل، وبالمقابل يكون على عاتق الفلاح حرث الأرض وبذرها بالبذور وجني المحصول ودرسه، ويتم توزيعه بينهما بصيغ عديدة حسب الاتفاق، فيكون مناصفة إذا قدم الفلاح مساهمة كبيرة، كتقديمه نصف البذور واكتراء العمال لمساعدته وشراء أزواج الحرث[50]، كما قد يأخذ الفلاح ثلث المحصول إذ قدم صاحب الأرض ثلثي البذور اللازمة[51]، وإذا قام مالك الأرض بتسليف المزارع نصيبه من البذور، تضمن الاتفاق بالإضافة إلى ما سبق ذكره تقديم المزارع تموينا دائما لمالك الأرض بالمنتجات الفلاحية قصد الاستهلاك، وقد يتضمن الاتفاق تقديمه كبشا حيا في عيد الأضحى[52].

أما في حالة تقديم المزارع مجهوده العضلي ومراقبته للمزروعات فقط، فلا يحق له إلا خمس المحصول، ويسمى بذلك "الخماس"[53]، كما قد تتغير النسبة التي يتحصل عليها المزارع إلى الثلث أو الربع أو ثلاثة أرباع المحصول[54] وهذا حسب الاتفاق المبرم بين الطرفين، وقد حدد بعض الفقهاء وظيفة الخماس والعمل الذي يقوم به وهي : " ... يحرث وينقي ويرفع الأغمار ويحصد ويدرس وينقل السنبل إلى الأندُر..."[55]، إلا أن الخماس وعلى ما يبدوا أصبح يقوم بمهام إضافية أخرى غير التي حددها الفقهاء، فهناك من يشترط عليه رعي الأبقار وحمل الحطب واستقاء الماء وغيرها[56].

أما عن النوع الثاني من أشكال استغلال الأرض في مملكة غرناطة النصرية، فهو المساقاة، والتي تختص بالأرض البور المسقية[57]، أي تحتاج إلى تدخل الإنسان في عملية السقي، وغالبا ما تكون هذه الأراضي بالقرب من المجاري النهرية، فيقدم بذلك مالك الأرض وسائل السقي والدابة، ويكون نصيب المزارع في هذه الحالة ثلث المحصول، كما يمكن للمزارع أن يصل نصيبه نصف المحصول إذا قدم نصف وسائل الإنتاج[58]، وغالبا ما تكون المساقاة بتكليف أحد المزارعين برعاية البساتين أو الجنان أو الأراضي المزروعة وسقيها، ويكون نصيب المزارع على غرار المزارعة بالنصف أو على ما كان الاتفاق عليه، ومن بين شروط التعاقد في مجال المساقاة تحديد المدة الزمنية، بمعنى أنها لا تكون إلا مؤقتة، فلا تكون بصورة دائمة، كما لا يحق لآحدهما فسخ العقد إلا بقبول الطرف الآخر[59].

أما المغارسة فهي نوع من العقود الذي يخص الزراعة الشجرية، وهو الآخر عرف انتشارا كبيرا بالمملكة النصرية، فكان الاتفاق يكون بين أصحاب الأرض والمغارسين على حصة كل واحد منهما ونصيبه بعد أن تثمر الأشجار، وغالبا ما تكون العقود طويلة الأمد بحكم مدة الإنتاج، والتي تحدد ببلوغ الأشجار "حد الإطعام"[60]، كما يمكن تحديد آجال هذه العقود أحيانا أخرى بعدد السنين المتفق عليها من سنة إلى خمسة سنوات[61]، وبذلك يكون صاحب الأرض في كثير من الأحيان ملزما بمساعدة شريكه بالمعدات والأدوات حتى تؤتي الأشجار إنتاجها[62].

ونتيجة لطول المدة الزمنية التي يتطلبها نظام المغارسة، فقد حدثت كثير من المشاكل بين الفلاح وصاحب الأرض، فكانت تعرض على القضاة للفصل فيها، وكانت تدور تلك المشاكل حول نسبة كل طرف من الإنتاج[63]، أو رغبة الفلاح في التوقف عن العمل نتيجة ظروف مانعة، ففي هذه الحالة أُجيز للفلاح بيع نصيبه إلى غاية تمامه، وقد شذت مغارسة الزيتون في مملكة غرناطة عن باقي الأنواع، فكان التطبيق مرتبطا بكمية الزيتون المقطوف، لا بالاتفاق الأولي[64]، كما اعترضت عقود المغارسة عددا من المشاكل الطبيعية التي قد تصيب الأشجار أو الثمار، كالحرائق وغيرها، وفي هذه الحالات تتدخل الدولة مباشرة عن طريق قاضي المدينة، الذي يكلف أحد أعوانه الخبير بالشؤون الزراعية بمعاينة المشكل وتقديم تقرير شفوي عن الوضعية ، والذي على إثره يقرر القاضي إبطال عقد المزارعة أو بعض بنوده[65].

كما اعتمد الغرناطيون في استغلالهم للأراضي الزراعية على أسلوب الكراء، مقابل ثمن معلوم ومدة محدودة قبل بداية الزرع[66]، وقد كانت هذه العقود قليلة إذا ما قارناها بالأشكال سالفة الذكر، وقد واجهت هذا النوع من العقود بعض المشاكل والتي تتمثل في مجملها في عجز الفلاح عن دفع مستحقات صاحب الأرض[67]، وهناك أمثلة عديدة عن هذا الخلاف في كتب النوازل المتعلقة بهذه الفترة، كالمشكل الذي كان من جراء هلاك غلة الكتان بسبب الفراشات، فتطرق القاضي إلى " ... أن ذلك الفراش الذي أكل الكتان كان كامنا في جوف الأرض وأنه يسرح فيها كما يسرح الجراد، وأنه من عيب الأرض فإذا ثبت هذا بشهادة سقط الكراء..."[68].

وكغيرها من الأراضي الزراعية، كانت لأراضي الأحباس طرقا لاستغلالها ووضعها في السبل التي حبست من أجلها، وتفيد النوازل المتعلقة بالأراضي المحبسة على المساجد، بأنها كان يعهد بزراعتها أحيانا لإمام المسجد، والذي يقوم بدفع كراء الأرض[69]، أما الأراضي المغروسة بأشجار الزيتون، والتي كان يحبس زيتها لإضاءة المسجد، فكان ناظر الحبس يقدم هذه الأرض لمن يقوم برعاتها على أن يأخذ المزارع نصف الزيت[70]، وكانت بعض الأراضي الحبسية تكرى لمزارعين عاديين مقابل ثمن معلوم وزمن محدد[71].

وجرت عقود أخرى بين المالك والمستأجر عرفت بعقود المقاسمة أو المناصفة، ويتم فيها تحديد نصيب كل طرف حسب العقد المبرم، والذي يشترط فيه المالك أن يقوم الأجير أو المزارع بزراعة الأرض وحصدها، على أن يتم تقسيم المحصول مناصفة بين الطرفين[72].

بالإضافة إلى كل ذلك، تواجدت مجموعة مهمة من العمال اليوميين، الذين كانوا يعملون بالحقول والبساتين الزراعية مقابل أجر يومي أو بضعة أيام، وكان لهم مكان خاص يقفون به ينتظرون فرصة العمل، وهذا ما دفع ابن عبدون أن يشترط مراقبة مكان وقوف العمال المنتظرين للعمل قائلا : " ... يجب أن يجعل في موقف رجاله الخدمة رجل مثيل خير يفصل بين الناس إذا اختلفوا في وقت الانطلاق، فإن هذه الطائفة غير منقادة للحق لأنهم شباب وعزاب فيكري نفسه بالنهار بأجرة معلومة إلى وقت معلوم ..." [73]. إلا أن مجموعة كبيرة من هؤلاء المأجورين الذين يشتغلون بالحقول الزراعية، كانوا يخلقون بعض المشاكل لمشغليهم، مما دفع ابن عبدون إلى تقديم النصح بمراقبة هؤلاء المأجورين وتكليفهم بعمل معلوم، قائلا : فلو جعل لهم من الأرض على ما يرى أهل البصر، قطعة يحفرونها، لكان ذلك راحة للفريقين، يجب أن يحد

لهم طول اليد، وطول البقعة من الأرض في عرضها كذلك، ويجبروا على ذلك حتى يكون لهم عرفا .."[74].

وفي ختام هذا المقال نخلص إلى تنوع ملكية الأرض الزراعية في مملكة غرناطة النصرية وذلك على جميع الأصناف بين أراضي الدولة والسلطان والأراضي الخاصة، والملكيات الجماعية وأراضي الأحباس، كما تنوعت أشكال استغلال هذه الأراضي، إلا أن الشيء المهم هو بقاء صاحب الأرض دائما في مركز القوة، فهو الذي يضع الشروط عند إبرام العقود، وعلى الأجير قبولها مرغما في أي ظرف من الظروف، ففي أغلب الأحيان يقدم المالك الأرض وجزء من الزريعة، ويبقى على الأجير أو الشريك العمل الزراعي كله ونصيبه من الزريعة وعملية الحرث والزرع والجني واستقدام الأجراء والمياومين وكراء الدواب وغيرها، بمعنى أن صاحب الأرض هو الذي يكسب كثيرا دون بذل مجهود.

الهوامش :

[1] أحمد الطاهري : **عامة قرطبة في عصر الخلافة**، منشورات عكاظ، الرباط، 1989 ، ص 57.

2-L'Espagne musulmane au x siécle, Institutions et vie sociale. Paris. La rose. 1932. P 23. .Lévi- Provençal

[3] أحمد الطاهري :المرجع السابق ، ص 57.

[4] حسين مؤنس : **فجر الأندلس ، دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الأموية**، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة ، 1959، ص 621.

[5] القلقشندي أبو العباس أحمد بن علي : **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، ج5 ، المطبعة الأميرية ، القاهرة،1915 ، ج 5 ، ص 215.

[6] ابن الخطيب لسان الدين محمد بن عبد الله: **الإحاطة في أخبار غرناطة** ، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة 1973، ج 1، ص 115 ــ 116.

[7] لويس سيكو ذي لوثينا : **وثائق عربية غرناطية من القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي**، مدريد، 1961، ص 111 ، 112.

[8] CHALMETA Y JENDRON PEDRO .Concesiones territoriales en al-Andalus hasta la llegada de los almoravides. Cuadernos de historia .madrid , 1975.p 49

[9] Ibid , P .55.

[10] الونشريسي أبو العباس أحمد بن يحيى : **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى إفريقية والأندلس والمغرب**، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 1981، ج 9 ، ص165 ، ج 10 ، ص 15.

[11] المصدر نفسه، ج 7 ، ص145.

[12] ابن عذاري أبو عبد الله محمد المراكشي : **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق إحسان عباس، ط 2، دار الثقافة، بيروت، ج4 ، ص65.

[13] ستتم الإشارة إلى المساقاة والمزارعة فيما يأتي من المقال .

[14] عز الدين أحمد موسى : **النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري**، دار الشروق، بيروت، 1983، ص 141.

[15] ابن الخطيب : **الاحاطة في أخبار غرناطة**، ج 1، ص 125 . ابن الخطيب: **اللمحة البدرية في الدولة النصرية**، تحقيق محب الدين الخطيب، دار الآفاق الجديدة، بيروت 1970، ص 23 . ابن الخطيب : **مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس**، الإسكندرية، 1985، ص 38 ، 37.

[16] المرجع مقياس يستعمل في قياس المساحة الأرضية، حيث يساوي 25 ذراعا ، أنظر:

dozy, reinhart. Recherches sur l'histoire et la littérature de l'Espagne pendant le moyen àge, 3 eme édition. Amsterdam. 1965, t1, p513

[17] ابن الخطيب : **الإحاطة في أخبار غرناطة**، ج 1 ، ص 125 ، ابن الخطيب : **اللمحة البدرية** ، ص 23.

[18] المصدر نفسه ، ج 1 ، ص 122.

[19] ابن أبي زرع على الفاسي: **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، دار المنصور للطباعة، الرباط، 1972، ص 63. الونشريسي : المصدر السابق، ج 9 ، ص 115.

[20] المصدر نفسه ، ج 6 ، ص 178، 307 ، ج 8 ، ص 114.

[21] لويس سيكو دي لوثينا : المصدر السابق، ص 77.

[22] الونشريسي : المصدر السابق، ج 6 ، ص 138 ، ج 8 ، ص 106.

[23] ابن الخطيب : **الاحاطة في أخبار غرناطة**، ج 1 ، ص 125 . ابن الخطيب : **اللمحة البدرية**، ص 23 . ابن الخطيب : **مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب**، ص 38 ، 37.

[24] لويس سيكو دي لوثينا : المصدر السابق ، ص 130 ، 135.

[25] الحبس ما وقف، وحبس الشيء وقفه، يقع على كل شيء وقفه صاحبه وقفا محرما لا يباع ولا يوهب ولا يورث . ابن منظور جمال الدين أبو الفضل محمد : **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، 1955، مادة حبس ، مج 6 ، ص 45.

[26] ابن الخطيب : **الإحاطة في أخبار غرناطة**، ج 1 ، ص 133.

[27] الونشريسي : المصدر السابق ، ج 7 ، ص 86 ، 123.

[28] ابن عبد الرؤوف أحمد : **رسالة في آداب الحسبة والمحتسب**، نشر ليفي بروفنسال ضمن ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، المعهد العلمي الفرنسي، القاهرة، 1955، ص 83.

[29] الونشريسي : المصدر السابق ، ج 4 ، ص 302.

[30] لويس سيكو دي لوثينا : المصدر السابق ، ص 12 ، 13.

[31] المصدر نفسه ، ص 30.

[32] الونشريسي : المصدر السابق، ج 7 ، ص 266.

[33] Carmen, villanueva, habices de las mezquitas de la cuidad de granada y sus alquerias. Madrid.1961, p27.

[34] الونشريسي : المصدر السابق ، ج 7 ، ص 123.

[35] المصدر نفسه ، ج 7، ص 139 ، 140.

[36] المصدر نفسه ، ج 7، ص 300.

[37] المصدر نفسه ، ج 7، ص 150 ، 151.

[38] ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد : **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، 1971 ، ج 1 ، ص 367.

[39] الونشريسي : المصدر السابق، ج 9 ، ص 408 ، 409 .

[40] المصدر نفسه ، ج 9 ، ص 409.

[41] المصدر نفسه، ج 6 ، ص 74 ، 75.

[42] المصدر نفسه ، ج 6 ، ص 138.

[43] المصدر نفسه ، ج 6 ، ص 138، 139.

[44] المصدر نفسه ، ج 4 ، ص 220. ابن رشد، أبو الوليد أحمد: **كتاب الفتاوى**، تحقيق المختار بن الطاهر التليلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت ، 1987 ، ج 1 ، ص 191.

[45] الونشريسي : المصدر السابق ، ج 8 ، ص 143.

[46] ابن العطار القرطبي: **كتاب الوثائق والسجلات**، تحقيق شالميتا وكورنيطي، المعهد الاسباني العربي للثقافة، مدريد، 1983، ص 83 ، 84

[47] الجزيري أبو الحسن علي بن يحيى : **المقصد المحمود في تلخيص العقود**، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، رقم 592 ، ورقة 103.

[48] الونشريسي : المصدر السابق ، ج 8 ، ص 143.

[49] الجزيري : المصدر السابق ، ورقة 112.

[50] الونشريسي : المصدر السابق ، ج 8 ، ص 164،

Oritz josé lopez , Fatwas granadinas . revista de instituto egipto, vol ll, madrid, 1954, p 107.

[51] ابن العطار ، المصدر السابق ، ص 66.

[52] المصدر نفسه، ص 60.

[53] الونشريسي : المصدر السابق ، ج 8 ، ص 150.

[54] المصدر نفسه ، ج 8 ، ص 158.

[55] المصدر نفسه ، ج 8 ، ص 151.

[56] المصدر نفسه ، ج 8 ، ص 151.

[57] ابن العطار ، المصدر السابق ، ص 83 ، 84.

[58] ابن عاصم الغرناطي محمد بن محمد: **تحفة الحكام**، مطبعة الشرق،(د.ت)، ج 2 ، ص 179.

[59] ابن العطار : المصدر السابق ، ص 83.

[60] الجزيري : المصدر السابق ، ورقة 103.

[61] ابن العطار : المصدر السابق ، ص 76.

[62] المصدر نفسه، ص 82.

[63] الونشريسي : المصدر السابق ، ج 8 ، ص 175.

[64] Oritz josé lopez , op cit . p 108

[65] Provencal , op cit t 3 p 269.

[66] البرزلي : **جامع مسائل الأحكام مما نزل بالمفتين والحكام**، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط، رقم 1698، ورقة 269 ، 270.

[67] المصدر نفسه ، ورقة 270.

[68] ابن طركاظ أبو القاسم العكي : **مجموع فتاوى فقهاء غرناطة**، مخطوط الخزانة العامة، الرباط، رقم 1447د، ضمن مجموع ، ورقة 47.

[69] الونشريسي : المصدر السابق ، ج 7 ، ص 120.

[70] المصدر نفسه، ج 7 ، ص 183 ، 184.

[71] ابن جزي الغرناطي : **قوانين الأحكام الشرعية** ، دار العلم للملايين ، بيروت ، 1974 ، ص 402.

[72] ابن العطار : المصدر السابق، ص 73 ، 74.

[73] ابن عبدون : المصدر السابق ، ص 56.

[74] المصدر نفسه ، ص 56.

الزيجات الملوكية بالمغرب الإسلامي وأثارها السياسية والاجتماعية من القرن 7هـ/13م إلى القرن 9هـ/15م

أ ة / سهام دحماني
جامعة قسنطينة 2

مقدمة:

ليس من الترف الفكري البحث في موضوع الزيجات الملوكية، بل للموضوع أهمية كبيرة في فهم العلاقات بين ملوك السلطنات الثلاث المرينيين بفاس والزيانيين بتلمسان والحفصيين بتونس. وسياسة أولئك الملوك مع حلفائهم في الداخل. فتتوضح بذلك شبكة المصاهرات السياسية وأبعادها. هذا على الصعيد السياسي. أما على الصعيد الاجتماعي فإن الموضوع يبحث في واحدة من خصائص العمران البشري والروابط الاجتماعية للعائلة المالكة، وتفاعله مع الواقع الاجتماعي للرعية من خلال الاحتفالات والهبات التي ترافقها. وغيرها من الدقائق التي يمكن اكتشافها من وراء هذا الموضوع كطبيعة عقود الزواج الملوكية في مجال التوثيق، شكل الاحتفالات والأعراس، العلاقة بين الخاصة والعامة... الخ.

فلحمة الصهر مثلها مثل العصبية كان لها حضور قوي في تغيير مجرى الأحداث، وقد نبه على ذلك العلامة ابن خلدون من خلال عباراته التي يستخدمها في تاريخه: "... لذمة صهر كانت له..."، "... لازمة صهر كانت بينهما ومخالصة..."، "... بما كان عقد له من الصهر..."، "... ووصله بصهر..."، "... لمكان صهره معه ..."، "... لولا ولاية صهره..."، "... ثقة بما بينه وبين أولاد حمزة من الصهر..."(01).

إن البحث في هذا الموضوع يفتح نافذة على كتابة التاريخ الاجتماعي لطبقة الخاصة من الملوك وحاشيتهم، التي جرى العمل في كتابة تاريخها وفق منظور التاريخ السياسي والعسكري فقط. فالتاريخ الاجتماعي لا يبحث في صنف العامة وما يعرض لهم من أحوال وتقلبات فقط، بل يشمل أيضا العائلة المالكة وما يتصل بها. وعليه فإن الرؤية من هذه الزاوية تسمح بسبر أغوار جانب من حياة الطبقة الحاكمة في عصر من العصور، وتأثير ذلك على صيرورة

الأحداث السياسية والعسكرية والاجتماعية التي جرت بفعل تلك الزيجات السياسية، خاصة إذا كانت الفترة التي يغطيها فترة عرف عنها الاضطراب والتدافع بين ملوك الإمارات الثلاث.

وعليه فان أهمية هذا البحث تكمن في أنه يوقفنا على أنماط المصاهرات التي وقعت بين ملوك الدول الثلاث، وداخل العائلة الحاكمة نفسها، وكذا ظروف تلك الزيجات، وانعكاساتها على مجرى الأحداث.

وللوصول إلى تحديد تلك النقاط تطرقت في العرض إلى تفصيلات حول شبكة المصاهرات الملوكية بين ملوك الدول الثلاث، وداخل كل دولة. بالإضافة إلى وصف الأعراس الملوكية من مختلف جوانبها بحسب ما توفر من مادة علمية، وكذا تفصيل عن انعكاسات تلك المصاهرات، ثم ختمت بمجموعة استنتاجات وملاحظات عن الموضوع.

تقريبا منذ سنة 625هـ/1229م بدأ استقلال الدولة الحفصية عن الموحدين، ثم دولة بني عبد الواد في تلمسان سنة 633هـ/ 1236م، ثم استقل المرينيون سنة 668هـ/1269م[02]، فبعد الوحدة تجزأ المغرب الإسلامي إلى ثلاث دول، وكل دولة من الدول الثلاث "... تضايقت من حدودها، فتجاوزتها مرارا، لتتوسع شيئا ما على حساب جارتها..."[03]. في ظل هذا الوضع نتساءل: هل ساهمت لحمة الصهر في التقليل من حدة هذا التنافس أم كانت أداة له؟ ولكي نجيب عن هذا التساؤل سنتطرق إلى النقاط التالية:

I/ شبكة المصاهرات السياسية:

– بين سلاطين الدولة الحفصية والزيانية:

وقعت مصاهرات بين ملوك الدولة الحفصية والزيانية، ومن بين تلك الزيجات نذكر زواج ابن الأمير يغمراسن بن زيان (633-681هـ/1236-1282م) وولي عهده أبو سعيد عثمان (681-703هـ/1282-1303م) بابنة الأمير الحفصي أبي إسحاق إبراهيم ابن أبي زكريا (678-683هـ/1279-1284م) سنة 681/1283، كان خطبها منه السلطان يغمراسن حين نزل والد الأميرة عليه في الحضرة تلمسان قادما من الأندلس، بعد أن كان فر إليها أمام أخيه المستنصر سنة 651هـ/1254م، ليستعيد الملك بعد وفاة أخيه، "... فاحتفل لقدومه، وأتاه ببيعته... ووعده النصرة من عدوه والمؤازرة على أمره، وأصهر إليه في إحدى بناته..."، وساعده على الوصول إلى السلطة سنة 678هـ/1280م[04]. والزيجة الثانية كانت بين السلطان الزياني أبي حمو موسى الثاني (760-791هـ/1359-1389م) والأمير الحفصي أبو

عبد الله محمد بن يحيى (765-767هـ/1365-1367م)، في سنة 767هـ/1365م؛ حيث زوج هذا الأخير ابنته إلى السلطان الزياني، ليصل به يده على ابن عمه أبي العباس أمير قسنطينة حكم سنة 761هـ/1361م، وكانت بينهما منافسة بعد وصولهما إلى الحكم، إذ اشتعلت بينهما حرب عام 766هـ/1366م[05]. وعليه فإن هذه الزيجات سمحت بربط الأمراء الحفصيين يدهم بأمراء تلمسان نظرا للصراع القائم بين أبناء البيت الحفصي.

أما الزيجة الثالثة فكانت بعد محاصرة السلطان الحفصي أبي عمرو عثمان (839-893هـ/1435-1488م) لتلمسان سنة 870هـ/1465م، وبها السلطان ابن أبي ثابت الزياني، حيث أعطى هذا الأخير ابنته بكرا لابن السلطان الحفصي المولى أبو زكريا يحيى دون خطبة، رجاء أن يصرف جيوشه عن حصار تلمسان، ويرد له البيعة على حد تعبير الزركشي[06].

– **بين سلاطين الدولة الحفصية والمرينية:** ربطت بين سلاطين الدولتين مصاهرات عديدة منها المصاهرة بين السلطان الحفصي أبي يحيى أبي بكر (718-747هـ/1318-1347م) والسلطان أبي الحسن المريني (731-752هـ/1331-1352م)، إذ أصهر إليه السلطان الحفصي في ابنته فاطمة سنة 738هـ/1337م. وعن ظروف وأسباب هذه الزيجة قال التنسي: "... فعند ذلك بعث الأمير أبو يحيى ابنه يحيى ووزيره ابن تافرجين في البحر إلى الأمير أبي سعيد، صاحب فاس راغبين منه كف عادية السلطان ابن تاشفين عنهم معرضين له بمصاهرتهم ابنه الأمير أبا الحسن بإحدى بنات الأمير أبي يحيى فأجابهم إلى ذلك..."[07]. أما الزركشي فذكر نفس الحادثة ولم يذكر تعريض الحفصي المصاهرة بابنته، ولكنه قال: "... فاستدعى السلطان أبو سعيد الأمير أبازكريا ووزيره الشيخ ابن تافرجين وأمرهم بالانصراف إلى صاحبه وأسنا جوائزهم وركبوا أساطيلهم من ساغاسة وأرسل معهم للخطبة والصهر ..."[08]. أي أن السبب هو طلب مظاهرة المريني على الزياني. وقد أصهر إليه ثانية في شقيقتها عزونة بعد وفاة الأولى سنة 746هـ/1346م[09].

إذن تمت هذين الزيجتين نظرا للتعاون والتوافق الذي حصل بين السلطان الحفصي والمريني ضد السلطان الزياني أبي تاشفين، وعن هذه العلاقة قال ابن مرزوق الذي كان في خدمة المريني: "...كان أفضل من عاصر إمامنا من الملوك وأعرفهم بحقه "[10].

غير أن هذه العلاقة التوافقية لم تستمر مع السلطان المريني أبي عنان (749-759هـ/1349-1359م) بسبب رفض ابنة السلطان الحفصي السالف الذكر قبول خطبته بعد أن أرسل الفقيه المحدث الخطيب ابن مرزوق سنة 758هـ/1358م برسم خطبتها من أخيها السلطان أبي إسحاق إبراهيم ابن المولى أبو يحيى أبو بكر (751-770هـ/1350-1369م) وحاجبه ابن تافرجين، الذي كانت له مواصلة بالهدية مع ملك المغرب أبي عنان، ولكن ابن مرزوق لما وقف على والدها ليكلمها في شأن خطبة ابنتها تعللت له بضرورة حضور القاضي وأخيها، ثم غابت عنه و لم تنفذ خطبته، فلما عاد إلى أبي عنان زجره وعنفه لأنه لم ينجح في هذه السفارة، وأخذ يحضر في الحركة على إفريقية[11]. غير أن النفرة قد استحكمت بينهما أيضا لأن الحاجب ابن تافرجين قد آوى الفار إليه أبو حمو موسى الثاني الزياني (760-791هـ/1359-1389م)، ولما طلب السلطان أبو عنان تسليمه إليه قوبل طلبه بالرفض، وعلى إثر ذلك جهز جيشه لغزو إفريقية، لكن الدائرة كانت على أبي عنان الذي هلك سنة 759هـ/1359م[12].

يظهر مما سبق أن المصالح السياسية قد تحكمت في ربط المصاهرات بين سلاطين البيت الحفصي والزياني من جهة، وبين البيت الحفصي والمريني من جهة ثانية. لكن بعض الدارسين يرى أن سبب هذه المصاهرات هو مبادرة سلاطين الدولة الزيانية والمرينية لخطبة الأميرات الحفصيات رغبة في الاتصال بالعائلة الحاكمة في تونس لتفوقها الحضاري، "... فهي بأصلها وأسلوب حياتها تمثل نوعا من الارستقراطية التي تفرض نفسها على الأسرات الحاكمة الأخرى..."[13].

لقد بنا هذين المؤرخين رأيهما على ما جاء عند ابن خلدون؛ الذي قال عن زوجة عثمان بن يغمراسن الزياني "... فكان ذلك مفخرا لدولته وذكرا له ولقومه..."، وقال عن فاطمة الحفصية زوجة أبي الحسن المريني "... بقي في نفسه منها شيء حنينا إلى ماشغفته من خلالها وعزة سلطانها... والاستمتاع بأحوال الترف ولذاذة العيش في عشرتها، فسما أمله إلى الاعتياض منها ببعض أخواتها..."[14].

ومجمل القول أن أحد العاملين لاينفي الآخر، وكلاهما وارد، لكن يبقى العامل السياسي من مظاهرة على العدو بواسطة لحمة الصهر الذي يتكرر مع كل زيجة، هو العامل الأكثر بروزا.

ومن الملاحظات الهامة ندرة علاقات المصاهرة بين سلاطين البيت الزياني والمريني، فهي تكاد تكون معدومة، والأخبار عنها جد شحيحة، ماعدا بعض الإشارات البسيطة، كأن يكون الأمير المريني أبو عياد من أولاد عبد الحق بن محيو (ت 614هـ/1218م) ابن حرة عبد وادية اسمها أم الفرج[15]، والأمير أبو بكر أبو يحيى أخو أبو معروف أو معرف كانت أمه حرة عبد وادية[16]. غير أن صاحب الذخيرة السنية يقول بأن أم هذا الأمير هي حرة اسمها عزونة بنت أبي بكر بن حفص التنالفتي، و لم يشر إلى أنها عبد وادية[17]. وهذا يعني أن المصاهرات بينهم كانت موجودة قبل أن يستقلوا بالإمارات ويتنافسوا في الملك بعد نهاية دولة الموحدين.

– شبكة المصاهرات داخل كل دولة:

– الدولة الحفصية:

هناك مصاهرات تمت بين أبناء العائلة المالكة، وبينها وبين قوى سياسية في الدولة، منها المصاهرة التي وقعت بين السلطان أبي يحيى زكريا بن اللحياني (711-728هـ/1312-1329م) وابن أكبر عماله إخلاصا إليه محمد بن أبي عمران موسى من عقب الشيخ أبي حفص الهنتاتي، كان قد ولي افريقية نائبا عن الموحدين، حيث أصهر إليه بابنته، وعن هذه الزيجة قال ابن خلدون: "... وكان السلطان أبو يحيى زكريا بن اللحياني قد رعى له ذمة قرابته، ووصله بصهر عقده لابنه محمد على ابنته، واستخلفه على تونس عند خروجه عنها..."[18]. مصاهرة أخرى جمعت بين أبي العباس الفضل ابن أبي يحيى أبي بكر الذي بويع عام 750هـ/1350م وأبي الليل قتيبة بن حمزة شيخ العرب[19]، حيث زوج السلطان الحفصي أخته إلى شيخ العرب هذا، لأنهم ساندوه في الوصول إلى السلطة، وشاركوه في الديوان وجباية الماشية والطعام، وعن هذه الزيجة قال ابن الشماع: "... و لم يسبقه أحد من الملوك إلى ذلك رجاء أن يطول ملكه، ويأبى الله إلا ما يريد..."[20]؛ يقصد مصاهرة الملوك الحفصيين للعرب الهلالية، وكانت نتيجة هذه المصاهرة وَبَالًا عليه؛ ذلك أن هذا السلطان أطاح به أصهاره هؤلاء بتواطؤ مع الحاجب أبي محمد ابن تافرجين سنة 751هـ/1351م[21].

وفي ذات سياق استعمال لُحمة الصهر لكسب الأحلاف زوَج الأمير الحفصي الثائر أبو يحيى زكريا ابنة أخيه سعيد بشيخ الدواودة[22] من قبائل العرب وهو يعقوب بن علي، عندما نزل عليهم فارا من المهدية أيام ولاية أخيه السلطان أبي إسحاق وحاجبه ابن تافرجين سنة 759هـ/1358م، وبقي بينهم إلى أن هلك سنة 776هـ/1375م[23].

وتزوج السلطان الحفصي أبو إسحاق (751-770هـ/1351-1369م) بابنة حاجبه الشيخ ابن تافرجين سنة 766هـ/1365م، وكان ابن تافرجين هذا مستبدا على السلطان، ثم استبد السلطان بأمر مملكته بعد وفاة حاجبه في نفس سنة زواجه بابنته[24].

وهناك زيجات بين أفراد العائلة الحاكمة، ففي سنة 839هـ/1435م تزوج الأمير أبو عبد الله محمد ابن السلطان أبي عمرو عثمان وولي عهده بابنة عمه شقيق الخليفة[25].

يظهر مما تقدم أن شبكة المصاهرات جمعت بين السلاطين الحفصيين ورؤساء القبائل العربية، والحجاب المتنفذين، والعمال النواب من كبار الدولة، وهذا كله من أجل تأكيد التحالف ولحمة النسب والصهر كما يشير إلى ذلك ابن خلدون دائما. وهذا عكس ما ذهب إليه برنشفيك، حين قال: "... ويبدو أن العائلة الحفصية لم تحاول، على الأقل حتى أواخر القرن الخامس عشر، عقد تحالفات زواجيه لأغراض سياسية، لا مع كبار زعماء البدو -على غرار الموحدين والمرينيين- ولا مع سلاطين تلمسان وفاس، فالأميرات الحفصيات اللائي تزوجن في آخر القرن الثالث عشر والنصف الأول من القرن الرابع عشر بعض المتربعين على عرش العاصمتين المذكورتين حاضرا أو مستقبلا، قد خطبن بناء على مبادرة من آباء أزواجهن أو أزواجهن أنفسهم..."[26].

- الدولة الزيانية:

رغم أن الأخبار عن المصاهرات في الدولة الزيانية شحيحة -بحسب المصادر التي سمح لي الوقت بالاطلاع عليها- فإنني سجلت نوع مصاهرة واحد جمع بين السلطان أبي حمو موسى الثاني (760-791هـ/1359-1389م) والأشراف الحسنيين، حيث استدعى هذا السلطان من فاس الشريف أبو عبد الله محمد بن أحمد الشريف الحسني[27]، واستقبله بالحبور والتجلة، وزوجه ابنته، وبنا له مدرسة، وبقي منعما في فضله إلى أن توفي سنة 771هـ/1369م[28].

نستشف من هذه الزيجة المكانة التي تبوأها الأشراف الحسنيون في الدولة الزيانية، وعناية ملوك بني عبد الواد بهم وتقريبهم من مجالسهم، لأنهم كانوا أهل علم وجاه عريض يعود إلى العترة النبوية الشريفة.

– الدولة المرينية :

أصهر المرينيون إلى العرب، وكبار رجال دولتهم، فعبد الحق أبو ملاك أصهر إلى كبير قبيلة بطوية الصنهاجية[29] أبي محلى في ابنته أم اليمن، وكانت امرأة صالحة، فكان لبني محلى بهذا الصهر مكان من الدولة ودالة على السلطان، لخؤولتهم ووشائج قرابتهم وغنائهم في قومهم[30]. وأصهر السلطان يوسف بن يعقوب إلى ثابت بن منديل كبير قبيل مغراوة[31] بالمغرب الأوسط، حيث أعرس السلطان بحفيدة ثابت هذا سنة 696هـ/1298م ليكونوا عونا له على بني عبد الواد. لكن الحرب كانت سجالا بين السلطان وصهره راشد بن محمد بن ثابت بن منديل لما أبعده عن رياسة قومه، وكان يراها حقا منعه بسبب وصلة الصهر، إلى أن تمكن منه السلطان وتمهدت بلاد مغراوة حتى سنة 706هـ/1306م[32].

وصاهر السلطان أبو الحسن (731-752هـ/1331-1352م) يحيى بن سليمان العسكري كبير بني عسكر[33]، حيث زوجه ابنته، وكان من خواص السلطان وصاحب شوراه، وقائد جيوشه لغزو تونس [34].كما أصهر هذا السلطان إلى عمر بن حمزة شيخ قبيل أولاد أبو الليل من أعراب افريقية، بأن خطب ابنة عمر لابنه أبي الفضل، وعقد له على تونس سنة 750هـ/1350م "... ثقة بما بينه وبين أولاد حمزة من الصهر..."[35]، وقفل راجعا نحو المغرب[36].

وأصهر هذا السلطان كذلك إلى ابن أخيه أبي علي الذي كان قتله سابقا عند توليه السلطة، وهو المدعو عليا المكنى بأبي يفلوسن، أنكحه ابنته تاحضريت العزيزة عليه، تأليفا لأولاد أخيه، لكن هذا الأخير نزع عنه وهو بالقيروان أيام النكبة ولحق بالعرب، وأجلب معهم على السلطان بالقيروان، وطلب إرث والده. وكان السلطان أبو سالم (760-762هـ/1360-1362م) قد ضجر بمكائدهم من المطالبة بإرث أبيهم، فقتل محمد بن أبي يفلوسن ابن أخته تاحضريت لما استراب بما نمي إليه[37].

الوزراء أيضا خلطوا نسبهم بالسلاطين تمكينا لأنفسهم داخل البلاط، فالوزير عمر بن عبد الله بن علي تزوج أخت السلطان أبي سالم (760-762هـ/1360-1362م)، الذي قلده أمانة فاس الجديدة دار ملكه، فقويت شوكته لمكانه من هذا الصهر[38]. وأصهر السلطان أبو الفضل ابن السلطان أبي سالم إلى وزيره وكبير دولته بمراكش عامر بن محمد الهنتاتي[39]، حيث تزوج هذا الأخير بنت السلطان أبي يحيى الحفصي عزونة زوجة السلطان أبي الحسن المتوفي

عنها، على الرغم من رفضها لتلك الزيجة. هذه الأخيرة قال عنها ابن خلدون: "... فحملوا أولياءها على العقد له عليها، وانكفأ راجعا إلى مكان عمله بمراكش يجر الدنيا وراءه عزا وثروة وتابعا..."[40].

كما صاهر المرينيون قادتهم من العلوج، فهذه عائشة بنت القائد فارح العلج هي أم السلطان المريني أبي زيان السعيد محمد بن عبد العزيز ابن أبي الحسن (774-776هـ/1373-1375م). وصاهروا أيضا الأمراء المجاهدين الأندلسيين، فهذا السلطان المستنصر بالله أحمد بن أبي سالم بن أبي الحسن (776-786هـ/1375-1384م) أمه الحرة نزهة بنت أبي العباس خضر بن محمد السبائي القحطاني الأندلسي[41].

صفوة القول فيما تقدم أن شبكة المصاهرات الملوكية داخل الدولة المرينية وشجت بين السلاطين والمتنفذين من رجالات الدولة وزراء وحجاب، ورؤساء العرب والمجاهدين الأندلسيين، وكل هذا من أجل وصلة الصهر كما يقول ابن خلدون، وبغرض التنفذ ومد السلطان.

ختاما يمكن القول أن شبكة المصاهرات السياسية في الدول الثلاث ربطت بين سلاطين الدولة الحفصية والزيانية من جهة، وبين سلاطين الدولة الحفصية والمرينية من جهة أخرى، كلما رام واحد منهم كسب طرف ضد آخر إلى صفه. وقليلة هي المصاهرات بين السلاطين الزيانيين والمرينين، خاصة بعد استحكام المنافسة بينهم بعد استقلالهم بالدولة، غير أن وشائج الصهر كانت موجودة بينهم قبل استقلالهم بالأمر بعد الموحدين.

كما عمد سلاطين كل دولة إلى مد حبل المصاهرة مع القوى المتنفذة داخل المملكة تأليفا لهم، واستعانة بهم على غيرهم. وهي كثيرة داخل الدولة الحفصية والمرينية فكانت مع العرب والوزراء وقواد الجيوش من العلوج، والمجاهدين الأندلسيين.

مما لاشك فيه أن الزواج رباط مقدس وميثاق غليظ، لذلك لا يمكن إيعاز كل الزيجات الملوكية إلى دوافع سياسية، فهذه المصاهرات هي نماذج فقط عن مصاهرات كثيرة تكون قد وقعت بزواج أبناء الملوك الآخرين، ولم تحفل بها كتب التاريخ السياسي والمناقب الملوكية، مثلما حفلت بزيجات أولياء العهد، والثائرين من أجل طلب السلطة، لهذا نلمح في هذا النوع من الزيجات بالخصوص الدافع السياسي. وربما لذات السبب لم نجد أمثلة عن مصاهرات مع

العامة من صوفية أو تجار أو فقهاء وقضاة. ولعل مزيد التنقيب والبحث بتنويع المصادر خارج كتب التاريخ السياسي، والمناقب الملوكية قد تسعف بنتائج جديدة.

2/ الأعراس الملوكية:

كانت حافلة بالأفراح والمسرات، ففي عرس الحرة فاطمة بنت السلطان الحفصي أبي يحيى أبي بكر (718-747هـ/1318-1347م)، احتفل زوجها السلطان أبو الحسن المريني (731-752هـ/1331-1352م) بمقدمها سنة 731هـ/1331م "... غاية الاحتفال بما لم يسمع بمثله في دولته... واهتزت الدولة لقدومها عليهم تعظيما لحق أبيها وقومها واحتفاء بها..."[42]، وبعثوا الأسطول لملاقاتها وحمل أثقالها التي شملت حكمات الذهب والفضة، وولايا الحرير المغشاة بالذهب، وتولت قهارمة الدار من النساء المتقدمات في السن ما يتولاه مثلهن من شؤون العرس[43]، "... وكان الشأن في مهرها وزفافها ومشاهد أعراسها وولائمها وجهازها كله من المفاخر للدولتين، ولم يزل مذكورا على الأيام.."[44].

ولما ماتت فاطمة هذه سنة 741هـ/1341م أرسل لخطبة أختها عزونة أبو زيان عريف بن يحيى والفقيه أبو عبد الله السطي والفقيه أبو الفضل بن أبي مدين، ودخل بها السلطان أبو الحسن سنة 747هـ/1346م، وكان عقد صداقها في شهر ربيع الأول من نفس السنة، وجملة صداقها خمسة عشر ألف دينار ذهبا، ومائتا خادم، وتوجهت إلى المغرب في البر، في شهر جمادى الثانية من السنة ذاتها، صحبة أخيها شقيقها الأمير الفضل صاحب بونه[45]. ولاستقبالها بنا لها مدينة جديدة على أنقاض مدينة المنصورة بالقرب من تلمسان القديمة، وكانت مدينة "...لم ير الراؤون مثلها ولا وصف الواصفون مثل وصفها، وأما قصرها ومسكن الإمام بها فقد... أجمعوا على أن الذي اجتمع فيه لم يجتمع في غيره..."[46]. وهذا كله رعيا لحقها وإكراما لها ولأهلها، وحتى لا تدخل دارا سكنها غيرها[47].

وفي عرس السلطان أبي إسحاق الحفصي (751-770هـ/1351-1369م)، الذي أقيم سنة 766هـ/1365م، وُضع من الطعام ما عم جميع الناس. ويوم الاحتفال كان الثلاثاء الخامس والعشرين من شهر صفر. قَرأ صداقه بالقُبة الكبرى الشيخ الفقيه الإمام ابن عرفة[48]، وكتبه الشيخ ابن مرزوق، وعدد الصداق اثنا عشر ألف دينار من الذهب، وألفين وثلاثون خادما مولدات وأعجميات[49].

مظاهر الإنعام على عامة الناس والعطايا الجزيلة لاحظناها أيضا في العرس الذي أقامه السلطان العالم الشهير أبو عمرو عثمان عام 839هـ/1435م، ففي يوم السبت الموفى عشرين لربيع الثاني عمل السلطان عرس ولده أبي عبد الله محمد المسعود على ابنة عمه شقيق الخليفة المنتصر، وبنا بها في الليلة القابلة، وأطعم في العرس بالقصبة أهل الحضرة تونس من غرة ربيع الأول إلى يوم البناء، ثم أعطى قرب البناء لأهل ربض باب السويقة ستين رأسا بقرا، وستين قفيزا قمحا، ومثل ذلك لأهل ربض باب الجزيرة[50].

واحتفل الزيانيون في أعراسهم بنفس القدر من الأبهة، حيث أرسل السلطان أبو حمو موسى (760-791هـ/1359-1389م) مهدي بن عيسى اللؤلؤي للخطبة وعقد الصهر مع أمير بجاية أبي عبد الله (765-767هـ/1365-1367م)، ثم صرف وزيره عمران بن موسى للقاء كريمته حفاية بها وتنويها بقدرها ورعيا لأصالتها، وزفها إليه بجهاز أمثالها، سنة 767هـ/1366م في العشر الأول من شهر ربيع الثاني[51].

والحاصل مما سبق أن هناك جامعا مشتركا بين هذه الأعراس وهو إرسال الفقهاء وعلية القوم للخطبة وعقد الصهر، والاحتفال بأفخم ما يكون من أدوات العرس، والمباهاة في الصداق والشوار بين الملوك. أما أيام الزفاف فلم تكن مخصوصة في يوم بعينه بل كانت منوعة، فهناك أعراس بيوم السبت، والثلاثاء في شهور مختلفة كشهر صفر، ربيع الأول، ربيع الثاني.

3/ **انعكاسات المصاهرات الملوكية:** نتج عنها انعكاسات عديدة

- في الجانب السياسي:

ترتب عن لُحمة الصهر انعكاسات سياسية ذات تأثير واضح في صيرورة أحداث المنطقة؛ فقد أصهر بنو مرين إلى الخلط في بيت بني مهلهل، وكانت لهم الجولة في الملك بفضل هذا الصهر، وفي هذا يُروى عن جد السلطان أبي سعيد المريني (710/1310-731/1331) لأمه مهلهل بن يحيى شيخ الخلط وكبير الجشم[52] أنه كان يحمله بين يديه راكبا ويقول له: "يا حفيدي، أنت سلطانها"[53]، وهي مقولة تدل على سعيهم لنقل أمر ولاية العهد إلى ابن ابنتهم، وهي الحرة عائشة بنت مهلهل بن يحيى الخلطي[54]. والمولى أبو العباس الفضل الحفصي (750هـ/ 1350م) استطال عليه أصهاره من العرب، وشاركوه في الديوان وجباية الماشية والطعام، وقيل عنه أنه لم يسبقه إلى هذا الفعل أحد من الملوك الحفصيين قبله[55].

واكتُسب بفضلها الأحلافُ للمظاهرة بهم على العدو، فالسلطان الحفصي أبو يحيى أبو بكر أصهر إلى السلطان المريني أبي الحسن في ابنتيه فاطمة ثم عزونة وظاهر به على خصمه الزياني أبي تاشفين[56].

والتجأ أبو الفضل الذي تركه والده السلطان أبو الحسن المريني واليا على تونس بعد غزوه افريقية إلى عمر بن حمزة من أولاد أبي الليل، ثقة بما بينه وبينهم من الصهر، فآزروه وبلغوه مأمنه[57]. وأصهر المولى أبو يحيى زكريا إلى يعقوب بن علي كبير الدواودة في ابنة أخيه سعيد، وأجلب به على تونس أيام المولى أبي العباس[58].

وتمكن بعض الأصهار من نيل الحظوة لدى السلاطين وارتفعت رتبتهم لديهم، فقد تزوج الوزير عمر بن عبد الله بن عمر من أخت السلطان أبي سالم المريني 760هـ/1360م وسمت رتبته عن الذين راموا النيل منه، من حاشية السلطان، كما أصهر هذا الوزير أيضا إلى وزير الدولة مسعود بن ماساي "... تسكينا لغربه واستخلاصا لمودته..."[59]. والنائب على مراكش عامر بن محمد الهنتاتي أصهر إلى السلطان أبي الفضل ابن السلطان أبي سالم المريني في عزونة زوجة السلطان أبي الحسن المتوفي عنها، ونال بهذا الزواج ما سمت به رتبته "... وانكفأ راجعا إلى مكان عمله بمراكش يجر الدنيا وراءه عزا وثروة وتابعا ..."[60]. وهذا أحمد الرعيني من طبقة كتاب الأشغال بسببه لما كان السلطان المريني أبو الحسن تزوج أمه نشأ "... في توهم هذه الكفالة، فانتفخ نحره لذلك، ويحسبها وصلة إلى أبناء السلطان أبي الحسن..."[61].

لكن قد تؤدي المصاهرة إلى إفساد ذات البين، فالسلطان الزياني أبو تاشفين عصا أمر والده في القبض على خاله محمد بن يوسف، فأشعل هذا الأخير ثورة ضد السلطان أبي حمو موسى (707-718هـ/1307-1318م) في المدية، فسادت علاقة جفاء بين السلطان وابنه لذلك، وصار السلطان يقدم على ولي عهده ابن عمه مسعود بن أبي عامر في كل أمر سرا وجهرا، وهو أمر أثار حفيظة ولي العهد، فأقدم على اعتقالهما، ثم قتلهما سنة 718هـ/ 1318م، وبعدها نهض إلى خاله سنة 719/1319 وقتله[62].

وقد يحصل الصهر على إقطاع ببلد معين، أو إبقائه على ولايته دون آخرين تم تغريبهم، فالسلطان ابن الأحمر أمير غرناطة حصل على إقطاع وادي آش لما أوفد مع عروس السلطان المريني أبي يعقوب (685هـ/1286م) وفدًا من وزراء دولته وخاصته يسألونه التجافي عن وادي آش، فأسعفهم بها وبإقطاعات أخرى رعاية لعروسه الوافدة عليه من غرناطة[63]. كما

منح السلطان أبو الحسن المريني بلد تدلس للأمير أبي زكريا يحيى صهره الذي وفد عليه بزوجه فاطمة[64]، وأبقى صهره الفضل على ولاية بونه بعد زحفه على افريقية سنة 748هـ/1347م "... لتقدم معرفته به لمصاهرته بأخته..."[65]. كما كان صهره زوج أخته الشيخ أبو حسون زيان بن أمديون من المقربين إليه، يحضر مجالسه ويشاركه في الرأي ويطلعه على كثير من سره، وكان يرسله في مهمات جليلة كسماع الشكيات في الأقطار البعيدة، ونجب في حصار قصبة تونس، وعمل الأعمال المستحسنة، فزاد به السلطان أبو الحسن اغتباطا[66].

- في الجانب العسكري:

نتج عن كثير من المصاهرات تحرك الأصهار لنصرة صهرهم، متى ما طلبها أو تعرض لخطر خارجي، فالسلطان أبو زكريا يحي الحفصي أرسل سنة 698م/1299م المدد إلى صهره عثمان بن يغمراسن بعد أن هاجمه يوسف بن يعقوب المريني، وكان هذا الصهر وصلة له مع عثمان بن يغمراسن وبنيه.

وبعد إتمام المصاهرة بين السلطان المريني أبي الحسن والسلطان الحفصي أبي يحيى أبي بكر أرسل السلطان أبو الحسن إلى السلطان الزياني أبي تاشفين متشفعا للحفصيين أصهاره، لكن أبا تاشفين رد رسله أسوأ رد، عند ذلك تحرك السلطان المريني لحصار تلمسان، وصهره الحفصي لحصار بجاية للتضييق على تلمسان، فحصره في جموع عظيمة، وظل أبو تاشفين يقاتل هو وأولاده بباب القصر إلى أن ماتوا جميعا سنة 737هـ/1336م[67].

من ذلك أيضا زحف السلطان الزياني أبي حمو سنة 766هـ/1365م بجيشه في جموع غفيرة للقاء أبي العباس نصرة لصهره أبي عبد الله الحفصي أمير بجاية على ابن عمه أبي العباس أمير قسنطينة، ولما قتل صهر السلطان أبي حمو على يد ابن عمه أبي العباس سنة 1366/767 "... اهتاجت له من أمير المؤمنين أيده الله الحمية ولمعت بأفق قرباه العصبية..."[68]، فعزم على الثأر له، لكن الدائرة كانت عليه لانهزام أحلافه عنه، فأسرع العودة إلى حضرته في نفس السنة[69].

- في الجانب الاجتماعي:

كانت هذه الزيجات -بعيدا عن الحروب والمصالح السياسية- وَصُلةً سمحت بتمازج الثقافات والعادات بين الأصهار، فهذا السلطان أبو الحسن بقي في نفسه شيء من الحنين إلى

الحرة فاطمة الحفصية بما شغفته من خلالها وعزة سلطانها، وقيامها على بيتـــها، وظرفهـــا في تصرفاتها، والاستمتاع بأحوال الترف ولذاذة العيش في عشرتها[70].

كما كانت وسيلة لإثراء الصلات الاجتماعية، وتمازج النسيج الاجتمـــاعي بتنويـــع الأنساب؛ فالزيانيون، وبنو العزفي أمراء سبته اختلط نسبهم بالأشراف الحسنيين، ونمت وشائج القرابة بينهم[71]. واختلط نسب السلاطين المرينيين بالعلوج من النصارى، وبالمجاهدين من أهل الأندلس، وبالعرب الهلالية، والحفصيين من قبيلة هنتاتة المصمودية. والزيانيون اختلط نســـبهم بالحفصيين كما مر معنا سابقا.

أما أعراس الملوك فكانت مصدر فرحة وخير عم الناس جميعا بما يجري من الصـــدقات والأعطيات على العامة من أهل الحضرة التي أقيم فيها العرس؛ مثلما حصل مع عامة تونس أثناء عرس السلطان أبي إسحاق الحفصي وابنة ابن تافرجين سنة 766هـــ/1364م حيث وضع من الطعام ما عم جميع الناس، خاصة وأن تونس عرفت في ذلك العام انتشار مرض الطاعون، الذي هلك بسببه الحاجب ابن تافرجين في نفس العام[72]. كذلك في عرس ولي عهد الســـلطان أبي عمرو عثمان الحفصي سنة 839هـــ/1435م بذل الصدقة بسخاء لأهل تونس عامـــة طيلـــة شهر، وأعطى القاطنين في ربض باب السويقة وباب الجزيرة عطايا جزيلة من بقر وقمح[73].

ولعل من أهم الانعكاسات الاجتماعية بروز دور النساء داخل البلاط الملكي من خلال هذه الزيجات، كدور أخت السلطان أبي العباس أحمد بن أبي عبد الله بن أبي يحـــيى أبي بكـــر الحفصي في مساعدة أخيها على استرجاع ملكه الضائع وهي في البلاط المريني، فعاد إلى دسة حكمه في تونس سنة 761هـــ/1361م "... بوساطة أخته المكرمة – صان الله حجابها ويسر في الخير أسبابها..."[74]. ولما لحق الأمير أبو زكريا ابن أبي إسحاق بتلمسان ونزل على صهره عثمان بن يغمراسن بعد نجاته من واقعة الدعي ابن أبي عمارة ســـنة 682هـــــ/1284م "... سربت إليه أخته من القصر أنواع التحف والأنس.."[75].

بجانب تلك الأدوار المهمة يجدر بنا أن نتساءل عما إذا كانت المرأة الأميرة مختـــارة أم مجبرة في عقد هذه الزيجات الملوكية؟ لم تشر المصادر إلى الاختيار أو الجبر، إلا مـــن خـــلال حادثتين تظهران الأمرين معا: الأول وهو الاختيار؛ فقد رفضت ابنة السلطان أبي يحيى أبي بكر خطبة السلطان أبي عنان سنة 758هـــ/ 1357م، ولم تتم هذه الزيجة[76]. أما الثاني فقد أصهر السلطان أبو الفضل ابن السلطان أبي سالم لوزيره وكبير دولته عامر بن محمد الهنتاتي حيـــث

زوجه ببنت السلطان الحفصي عزونة زوجة السلطان المريني أي الحسن المتوفي عنها على الرغم من رفضها ورفض أوليائها لهذه الزيجة، وكان ذلك سنة 763هـ/1363م[77].

الخاتمة:

نستنتج من كل ما تقدم أن شبكة المصاهرات كانت منوعة ونوعية، منوعة بين الملوك الحفصيين والزيانيين من جهة، وبين الحفصيين والمرينيين من جهة أخرى، وقليلة جدا هي المصاهرات بين المرينيين والزيانيين، خاصة بعد استقلالهم بأمر دولتهم. ونوعية بانتقاء المصاهرات بين السلاطين والقوى المتنفذة في إقليم الدولة أو خارجه لأغراض كثيرة.

ومجموع تلك الزيجات الملوكية كان لها ترتيبات معينة كالخطبة بواسطة الفقهاء وكبار رجال الدولة، وتجهيز العروس بشوار ينم عن مكان والدها من قوة السلطان، والصداق مرتفع ونفيس، والأعراس تدوم لشهر وأكثر، بدون تخصيص تاريخ معين، كانت تقام يوم السبت أوالثلاثاء، في شهر صفر، وربيع الأول، وربيع الثاني، ويُبذَل في ذلك العرس من الصدقات والعطايا لعامة الناس من أهل الحضرة الشيء الكثير. وكان السلاطين يحتفلون بقدوم زوجاتهن الأميرات بإقامة أفخم الاستقبالات، وتجهيز مدن على شرف وصولهن.

وقد نتج عن هذه المصاهرات تمازج اجتماعي واتساع وشائج الصهر. كما كان لهذه المصاهرات انعكاسات سياسية وعسكرية واجتماعية ذات أثر بَين على صيرورة الأحداث في تلك الدول.

وأخيرا يمكن القول أن الزيجات الملوكية عنصر مهم ولبنة أساسية في النسيج الاجتماعي المغربي، وعامل فاعل في مجرى الأحداث السياسية والعسكرية بالمنطقة، له من الأهمية ما هو معروف للعصبية القبلية، أو غيرها من العوامل المؤثرة في العمران البشري كما نظر له ابن خلدون في العبر.

الملحق:

صداق سلطان

"(ورقة 164) الحمد لله الذي بيده الانشاء والتصوير، وله الخلق والأمر يخلق ما يشاء وهو العليم القدير، تنزه سبحانه عن الصاحبة والولد، وتعالى عن المظاهرة بالعُدد والمكاثرة بالعَدد، فالأكوان جمع بملكوته شهود، وفي كل شيء له برهان قائم وسلطان موجود، خلق الانسان

فسواه، وصوره في ظلمة الأحشاء فلا مصور له سواه، ويعلم ما يخفيه ويظهره، ومایاتيه ويذره، وما كسبت يده، أوجد بحكمته عالم الانسان، وخصه بخصوصية التمييز من بين سائر الحيوان، وهداه النجدين فكل ميسر لما يسر له، وجعل من جنسه سكنا تمم به عليه الصنع وكمله، فآلاؤه سبحانه واضحة الغرر والتحجيل، كريمة الجملة لمن تأملها والتفصيل، عائدة على من قدر النعمة قدرها فالحسن منها فالحسن والجميل فالجميل، ونصلي على نبيه وأصحابه أولي البر والتعظيم والتفضيل، والحمد لله الذي خفي عن الأذهان كنه ذاته، وظهر في الأكوان بما يرى من آياته، وانفرد بالوحدانية فلا يتكثر بصفاته، واختص بقاؤه بالأزلية فلا (ورقة 165) يتصل بالزمان ونهاياته، سبحانه من حكيم عليم لا تبدل لكلماته، ولا مجير غيره من الجهل واتساع خطيئاته، والشيطان واتباع خطواته، نحمده بمحامده التي ألهمها القانت المنيب في خلواته، وجعلها سببا لفوز الفائزين بفهم هباته، ونجاة الناجين من أليم سطواته، ونشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، معطي كل حي ما قدر له، من رزقه وحياته، وأن محمدا عبده ورسوله الذي أيده بمعجزاته، واصطفاه كريم المولد طيب المحتد من آبائه وأمهاته، وأنزل عليه كتابه العزيز الذي أفحم المهتدين سجال بركاته، وقطع ظهور الجاحدين عند محاكمته وعن محاكاته، فانقطعوا وقالوا لولا أنزل هذا القرآن والله أعلم حيث يجعل رسالاته، وبعد أن أبلغ أمر الله أقصى غاياته، وقهر الأديان، وهد الأوثان بدعواته وغزواته، أُمِر بالتسبيح والاستغفار اشعارا بدنو أجله وقرب وفاته، صلى الله عليه وعلى ءاله وأزواجه وذرياته، وعلى جميع أصحابه وأنصاره وهداته، ونستوهب من الله واسع العطاء، وسامع الدعاء، ومكرم الأمور ومحكم القضاء، أن يبقي هذه الخلافة الفلانية الامامية أطول البقاء، وأن يلزم أوامرها وصوارمها أقوم الامضاء وأقوى المضاء، وأن يجعل محبتها ملئ الصدور وجنودها ملئ الفضاء، وأن يذيق أجنادها برد النعيم وأعداءها مر الشقاء، بفضلك يا الله الذي أوليت وبركة عبادك الذين اصطفيت، من أنبيائك الكرام وأوليائك الصلحا، أما بعد حمد الله معلي منار الحق ورافعه، ومولي متولي الأنعام ومتتابعه، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله المصطفى مشفع الحشر وشافعه، المبعوث ببدائع الكلم وجوامعه، وعلى آله وأصحابه الهادين الى مقاصده العلية ومنازعه، والذابين عن بيضة الاسلام، بمواضي الاعتزام، وقواطعه، فإن مولانا الخليفة الأرضى، العدل الأزكى، ذا المناقب السنية، والمآثر العلية، والمجد الذي لا ينال سمومطالعه، والهدى المتكفل بالإرشاد، وتمهيد سبيل الاسعاد، لراءه وسامعه، الهمام المؤيد، الأسعد الأصعد، الأمير الأعلى، الأظهر الأحمى، الأطول الأسمى، مزين السروج والمراكب، ومخلي ثغور العدى

بالعواقل والقواضب، الباسل المقدام الذي رتبته قديما وحديثا ترفع الرؤوس، وبجوده ووجـــوده ينسخ البؤس، وباستطالته يفك المحبوس، الى غير ذلك من مفاخره التي لو كتبت مآثرها بالتبر، وقامت بها الخطباء بين المقام والحجر، السلطان المطاع المؤيد المظفر العماد أبا فلان بن الملـــك الأعلى بدر الجملة الشريفة، والدوحة المنيفة، الهمام الأبرع ذي السياسة الفخـــار، المعظمـــة المقدار، الحميدة الآثار، أمير المسلمين أبي فلان وصل الله صعوده وسعوده، ونصر عســـاكره وجنوده، وأشهر في مراقي العز أعلامه وبنوده، وضاعف قبله احسانه وجوده، وأبقى للإسلام وجوده، ومنحه سعدا تدور به الأفلاك، وتخضع له به الأملاك، مما اقتضته نفسه العلية، وهمته السنية، أن تخير لنفسه أجل المتخيرات معشرا، وأزكاهن عنصرا، وأسناهن مفخـــرا، فـــأومى بقصده الى بيت جلالة معتمد (ورقة 166) وفخره لا يدانيه أحد، كرموا فروعـــا وأصـــولا، وترقوا الى سماء المملكة شبانا وكهولا، أولي النعمة النعما، والرتبة العليا، والنكاية في الأعـــدا، ومضرمي نار الهيجا، فخطب فيه الى الخليفة الامام، الملك الأعظم الأفخم، الأعطف الأرحم، الأبهر، الأكبر، عام الانعام، وواهب العطايا الجسام، علم الملوك الأعلام، الظافر المعان أبي فلان الذي اعتز الاسلام تحت لوائه، ورتع الأنام في ظل هديه الصالح واهتدائه، وأسس قواعد الملك الذي أناف على مراقب الكواكب شامخ بنائه، أبقاه الله والأوصاف الحسنة الملوكية تعـــزى اليه، والآثار الكريمة تنسب اليه، واسطة قلادته، ومنتهى امامتهم، ابنته أو أخته فلانة خطبتها وتوصل اليها بأشرف نسبة، فكمل بينهما فيها على يد وزيرهما أبي فلان وأبي فلان باستخلاف الأمير أبي فلان للأول واستخلاف الأمير فلان للثاني بعد تقرر الموجب هذا العقـــد الوثيـــق، والنكاح المقرون إن شاء الله عز وجل باليمن والتوفيق، على صداق حال مبلغه كذا تزوجهـــا بكلمة الله العلية، وبماضي سنة أفضل الأنبياء، الغراء الجلية، محمد صلى الله عليه وسلم أعلى المرسلين، بفضل الله درجة، وأكملهم شريعة مبتهجة، أفضل صلاة وأوفاها، وجعلنا ممن تقبل آثار سنته واقتفاها، ولتكون عنده بأمانة الله التي يرعاها المتقون، ويراقبها الموفقون، وما دلت عليه مقاصد الشريعة بأوضح بيان، ونطق به القرآن، والله تعالى يجعل أملهما مقضيا وعملهما مرضيا، وحظا من الاسعاد والنجاح سنيا، ويفيض عليهما من بركاته ســـائغا هنيـــا شـــهد وتكمل".

(أبو عمران موسى بن عيسى المازوني: قلادة العقود والتسجيلات، مخ زاوية طولقة، بسكرة، الجزائر).

الهوامش:

- (01) عبد الرحمن ابن خلدون :العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992، مج6، ص. 383، 427، 462، 517، مج7، ص. 263، 304، 317، 337.

- (02) محمد المنوني: ورقات عن حضارة المرينيين، منشورات عن كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، المملكة المغربية، ط3، 2000، ص.13، 14.

- (03) عبد الله العروي: مجمل تاريخ المغرب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، بيروت، لبنان، ج 2، 2007، ص.353.

- (04) ابن خلدون: العبر، مج6، ص. 387، محمد بن عبد الله التنسي: تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، حققه وعلق عليه محمود بوعياد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص.128.

- (05) أبو زكريا يحي ابن خلدون : بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، طبع بمطبعة فونطانة، الجزائر، مج2، 1910، ص.159، 166، عبد الرحمن ابن خلدون : العبر، مج6، ص.476، 478، 481، التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، عارضه بأصوله وعلق على حواشيه محمد بن تاويت الطنجي، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1951، ص.99.

- (06) أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الزركشي: تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق وتعليق محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس، ط2، 1966، ص.157، 158.

- (07) تاريخ بني زيان، ص.144-145.

- (08) الزركشي: المصدر السابق، ص.68.

- (09) نفسه ، ص. 68، 78.

- (10) محمد التلمساني ابن مرزوق : المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، دراسة وتحقيق الدكتورة ماريا خيسوس بيغيرا، تقديم محمود بو عياد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص.205.

- (11) الزركشي: المصدر السابق، ص. 92، 97.

- (12) ابن خلدون: العبر، مج7، ص. 146.

- (13) جورج مارسيه: بلاد المغرب وعلاقاته بالمشرق الإسلامي في العصور الوسطى، ترجمه عن الفرنسية محمود عبد الصمد هيكل، راجعه واستخرج نصوصه الدكتور مصطفى أبو ضيف أحمد، مطبعة الانتصار لطباعة الأوفست، الإسكندرية، 1991، ص.341، روبار برنشفيك: تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، من القرن 13الى نهاية القرن15م، نقله إلى العربية حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ج2، 1988، ص.46.

- (14) ابن خلدون: العبر، مج7، ص. 107، 316 .

- (15) إسماعيل بن يوسف ابن الأحمر النصري : روضة النسرين في دولة بني مرين، تحقيق عبد الوهاب ابن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ط2، 1991، ص.25 .

- (16) مؤلف مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، حققه سهيل زكار و عبد القادر زمامة، نشر وتوزيع دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، المغرب، 1979، ص.173-174.

- (17) مؤلف مجهول: الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية العبد الحقية، تحقيق محمد أبو شنب، طبع بمطبعة جول كاربونل، الجزائر، 1921، ص.67.

- (18) العبر، مج6، ص.427.

- (19)أولاد أبو الليل من الكعوب من سليم، مواطنهم بافريقية، (ابن خلدون:العبر، مج6، ص88).

- (20) أبو عبد الله محمد بن أحمد ابن الشماع: الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تحقيق وتقديم الطاهر بن محمد المعموري، الدار العربية للكتاب، طرابلس بليبيا، تونس، 1984، ص.100.

- (21) نفسه، ص.101.

- (22) الدواودة : من قبيلة رياح العربية، وهم أبناء داود بن مرداس بن رياح، امتازوا بملك ضواحي قسنطينة، وبجاية، ومجالات الزاب، وريغ، ووارکلا، وکبيرهم على عهد ابن خلدون هو يعقوب بن علي بن أحمد (ابن خلدون : العبر، مج 6، ص.39، 40، 42).

- (23)ابن خلدون : العبر، مج6، ص. 473، الزركشي: المصدر السابق، ص.99 .

- (24) ابن الشماع :المصدر السابق، ص. 105، الزركشي: المصدر السابق، ص.101.

- (25) الزركشي: المصدر السابق، ص. 144.

- (26) تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، ج2، ص.46.

- (27)أبو عبد الله محمد بن أحمد الشريف الحسني من أعلام تلمسان، كان أخذه السلطان المريني أبو عنان سنة 1352/753 إلى فاس فتبرم الشريف من الاغتراب، فلما توفي أبو عنان سنة1359/759عاد الشريف إلى تلمسان .(أنظر: ابن خلدون :التعريف، ص. 64)

- (28) نفسه .

- (29) بطوية قبيلة صنهاجية، منها ثلاثة بطون، بقوية وبني ورياغل وأولاد علي بالمغرب الأقصى، قال عنهم ابن خلدون:"وكانت أم يعقوب بن عبد الحق منهم فاستوزرهم". (العبر:مج6، ص.244)

- (30) ابن خلدون:العبر، مج7، ص237-238.

- (31) مغراوة من أكبر قبائل زناتة، كانت مجالاتهم بأرض المغرب الأوسط من شلف إلى تلمسان، وهم إخوة بني يفرن، وأولاد منديل من أهل الطبقة الثانية من مغراوة، ورأس فيهم لعهد يغمراسن الزياني ثابت بن منديل(ت1295/694)، وصاروا أصهارا لبني مرين سائر الدولة. (ابن خلدون:العبر، مج7، ص.29-33، 75، 79، 80، 82

- (32) ابن خلدون : العبر، مج7، ص.260، 262، 263، 264 .

- (33) بني عسكر بن محمد، من قبيلة بني مرين، كان المشار إليه من أهل الشورى في مجلس السلطان المريني أبي الحسن.(ابن خلدون: العبر، مج7، 304)

- (34) نفسه، ص.304، 320.

- (35) نفسه، ص.337.

- (36) ابن مرزوق : المصدر السابق، ص.85، ابن خلدون: العبر، مج7، ص.328، ابن الشماع: المصدر السابق، 1984، ص.98.

- (37) ابن خلدون : العبر، مج7، ص.374.

- (38) نفسه، ص.371.

- (39) عامر بن محمد الهنتاتي (أنظر: الناصري :الإستقصا، ج4، 2001، ص.207)

- (40) العبر، مج7، ص.378.

- (41) ابن الأحمر :المصدر السابق ، ص.44، 45.

- (42) ابن خلدون : العبر، مج7، ص.299.

- (43) ابن خلدون : العبر، مج7، ص. 299، الزركشي : المصدر السابق، ص.68.

- (44) ابن خلدون :العبر، مج6، ص.436.

- (45) الزركشي : المصدر السابق، ص.79.

- (46) ابن مرزوق:المصدر السابق ، ص.447-448.

- (47) نفسه ، ص.448.

- (48)أنظر:محمد بن محمد الأندلسي الوزير السراج:الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تقديم وتحقيق محمد الحبيب الهيلة، الدار التونسية للنشر، تونس، ج1، 1970، ص.577 .

- (49) ابن الشماع : المصدر السابق، ص.105.

- (50) الزركشي :المصدر السابق، ص.144-145.

- (51) أبو زكريا يحي ابن خلدون : بغية الرواد، مج2، ص. 159، 166، ابن خلدون : العبر، مج6، ص.481.

- (52) الخلط و الجشم:هما من قبائل العرب، وهم بطون كثيرة، كقرة وعاصم ومقدم والأثبج والخلط وجشم، غلب عليهم جميعا اسم جشم، واستقرت رياسة جشم في بيت مهلهل، وقيل أن جشم هوجشم بن معاوية بن بكر بن هوازن، وقيل أن الخلط هم بنو المنتفق من بني عامر بن عقيل بن كعب، كان ولاؤهم للمرينيين .(أنظر: ابن خلدون: العبر، مج6، ص.32-36)

- (53)ابن مرزوق : المصدر السابق، ص.128.

- (54)ابن خلدون : العبر، مج6، ص.33، 36، ابن الأحمر: المصدر السابق، ص.34.

- (55) ابن الشماع : المصدر السابق، ص.100، الزركشي : المصدر السابق، ص.89-90.

- (56) ابن خلدون : العبر، مج7، ص.317.

- (57) نفسه، ص.337.
- (58) الزركشي :المصدر السابق، ص.99.
- (59) ابن خلدون : العبر، مج7، ص.371.
- (60) نفسه، ص.378 .
- (61) نفسه، ص.401.
- (62) التنسي : المصدر السابق، ص.137، 143.
- (63) علي بن عبد الله الفاسي ابن أبي زرع : الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972، ص.378، ابن خلدون : العبر، مج7، ص.251.
- (64) ابن مرزوق : المصدر السابق، ص.192.
- (65) أبو العباس أحمد بن حسين بن علي بن الخطيب ابن قنفذ القسنطيني: الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تقديم وتحقيق محمد الشاذلي النيفر و عبد المجيد التركي، الدار التونسية للنشر، تونس، 1968، ص.171.
- (66) ابن مرزوق : المصدر السابق، ص.254، 369.
- (67) ابن خلدون: العبر، مج7، ص.108، التنسي :المصدر السابق، ص.145، 146، الزركشي، المصدر السابق، ص.72.
- (68) أبو زكريا يحيى ابن خلدون :بغية الرواد، مج2، ص.182.
- (69) أبو زكريا يحيى ابن خلدون : بغية الرواد، مج2، ص. 159، 183، عبد الرحمن ابن خلدون :التعريف، ص.98، 99، 100.
- (70) ابن خلدون :العبر، مج7، ص.316.
- (71) ابن خلدون : التعريف، ص. 64، 81 .
- (72) ابن الشماع : المصدر السابق، ص.105.
- (73) الزركشي : المصدر السابق، ص.144، 145.
- (74) ابن قنفذ : المصدر السابق، ص.183، 184.
- (75) ابن خلدون: العبر، مج7، ص.107.
-(76) ابن قنفذ: المصدر السابق، ص. 174، الزركشي : المصدر السابق، ص.92.
- (77) ابن خلدون : العبر، مج7، ص.378.

الجدل حول بدايات العقيدة الأشعرية ببلاد المغرب

أ. محمد نصير
جامعة قسنطينة 2

كان أهل المغرب على دراية تامة بما يحدث في المشرق من تحولات على الساحة العقدية خلال القرن الرابع الهجري/10 م، وذلك راجع إلى شغفهم بطلب العلم من أصحابه عن طريق الرحلة والحج، لكن كيف تمّت بداية اتصال فقهاء بلاد المغرب مع العقيدة الأشعرية؟

يُقِرُّ ابن حزم الظاهري (ت.456 هـــ/ 994 م) – أحد مناوئي الأشاعرة – بوجود الأشعرية في بلاد المغرب بحيث أنّ « لهم سوق بصقلية والقيروان والأندلس »، وبما أنّ صاحب هذا النص قد عاش في النصف الأوّل من القرن الخامس الهجري / 11 م، فهو اعتراف صريح بتواجد بارز للأشاعرة في المناطق الثلاثة التي ذكرها، وهذا خاصةً عندما يستخدم كلمة " سوق " للأشاعرة فهي تدل على وجود رائج لهذا المذهب على شكل جماعات في كل من القيروان وصقلية وموطنه الأندلس، مع العلم أنّ ابن حزم نفسه يذكر أنّ له مناظرةً مع أحد من القيروانيين، لكن ابن حزم الذي عُرِف بعداوته للأشاعرة ومناظراته مع أبو الوليد الباجي وخشية الدِّعاية لمذهب مناوئ له، يستدرك نصّه الهام بالقول « ثمَّ رقَّ أمرهم والحمد لله رب العالمين »[1].

ومن هنا يطرح السؤال عن الأشاعرة الأوائل ببلاد المغرب وعن كيفية تعرُّفهم على العقيدة الأشعرية، وماهي الاتصالات الأولى مع أعيان المذهب الأشعري وأيُّ طريق سلكوا في ذلك وما موقفهم منهم؟

1 ــ هل يمكن إثبات انتماءهم للمذهب الأشعري ؟

تصنف بعض المصادر المحسوبة على الأشاعرة البعض من فقهاء بلاد المغرب ضمن طبقاتهم وعليها اعتمد بعض المعاصرين في دراساتهم، لكن إعادة النظر في ذلك يؤدي إلى استبعاد البعض منهم والشك في آخرين، انطلاقا من الأخطاء التي تقع فيها هذه المصادر في التصنيف الطبقي الغير متوافق مع الفترة الزمنية التي عايشوها من جهة، ومقارنتها بنصوص عديدة من جهة أخرى.

أ ــ هل القلانسي أوَّل الأشاعرة ببلاد المغرب؟

يُجْزِمُ الباحث هادي روجيه إدريس[2] وعلى منواله ذهب الباحث عبد المجيد النجار[3] وأغلب الباحثين[4] بأنّ أوّل الأشاعرة في بلاد المغرب هو أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله الزبيدي أو الزبيري المعروف بالقُلانسي (ت.359 هــ/969م)، وذلك اعتماداً على نص للبُرْزُلِي[5] (ت.844هــ/1438م)، يذكر فيه أنّه «من مشايخ الأشعرية»، وينسب إليه مقولته بــ: «إطلاق القول بالله تعالى في مكان دون مكان وأنّه في السماء»، وهي مقولة موافقة لما يذهب إليه الأشاعرة.

ولقد كان للقُلانسي رأي في الخِلاف المتجدد حول مسألة الاستثناء في الإيمان التي دار الجدل فيها بين محمد بن سحنون ومحمد بن إبراهيم بن عبدوس خلال النصف الأول من القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي، فقد سُئِل حول ما قاله ابن عبدوس بأنه : « مؤمن أما عند الله فلا أدري بما يختم لي » فنفى عنه هذه المقولة وأضاف أنه قال : « من لم يكن مؤمنا عند الله، فهو عند الله كافراً »[6]، ويظهر من ذلك أنَّ القُلانسي يعارض الاستثناء في الإيمان وهو ما يوافق مذهب الأشاعرة[7].

وبالرغم من أنَّ تراجمه وردت مقتضبة إلاَّ أنها تَسْتهِل بالقول أنه "عالم بالكلام والرَّد على المخالفين "، كما تذكر أنَّ له تصنيف بعنوان : " الإمامة " – وهو الكتاب الذي عرَّضه للامتحان والسَّجْن من طرف الخليفة الفاطمي القائم بأمر الله – وتصنيف آخر بعنوان " الرَّد على الرَّافضة "[8]، وهذا يدل على تمرُّسه في مناظرة الشيعة الإسماعيلية.

وإذا كانت كتب التراجم والطبقات تحرص على ذكر الشيوخ الذين أخذ عنهم والذين أخذوا عن كل مترجمٍ له، فإنَّ القُلانسي لم يُذكر له ذلك، كما لم تذكر له رحلة إلى المشرق، وبالرغم من ذلك فإن الباحث هادي روجيه إدريس يحتمل ــ دون أن يكون له دليل ــ أنَّ القُلانسي التقى أبا الحسن الأشعري[9].

إضافةً إلى ذلك، يورد البُرْزُلِي اسم القُلانسي دون ذكر اسمه الكامل وذلك في ثلاثة مواضع، وفي الموضعين الآخرين يذكره داعياً لمن يرفض علم الكلام في إثبات التوحيد فعليه

بالرجوع إلى « أفاضل الأمة وعلماء المِلَّة من الصحابة ومن بعدهم كالأشعري والباهلي والقُلانسي والمحاسبي وابن فورك والإسفراييني وغيرهم من أهل السُنَّة »[10].

ومنه يمكن التساؤل لماذا ذهب كل من روجيه إدريس وعبد المجيد النجار إلى الجزم مباشرة ودون أدنى شك أنَّ المقصود هو أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله الزبيدي؟، بالرغم من أنَّ البُرْزُلِي أورد اسم القُلانسي ضمن مجموعة من العلماء الأشاعرة البارزين من المشرق، لكن هل كان أبو إسحاق الزبيدي في نفس الشهرة التي حازها العلماء الذين ذكرهم إلى جانبه؟ إنه بالتأكيد لم يكن كذلك لأنَّ التراجم التي ذكرته محتواها لا يتعدَّى ذكر مُؤلفيْن له بالإضافة إلى محنته مع الفاطميين.

ومنه يمكن الجَزْم بأنَّ القُلانسي الذي اسْتشهد البُرْزُلِي به لا يكون هو نفسه أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله الزبيدي مثلما جزم كِلاَ الباحثيْن من خلال نص وحيد لم يذكر فيه اسمه كاملا وبوضوح، بالرغم من أنّ تاج الدين السبكي يستدرك أسماء الأشاعرة التي لم يذكرها ابن عساكر – الذي ينقل عن أبو عبد الله محمد بن موسى بن عمار الميورقي صاحب كتاب الأعلام – ويصنِّف أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله الزبيدي القلانسي ضمن الطبقة الأشعرية الثانية إلى جانب مجموعة من فقهاء بلاد المغرب لم يثبت أخذها بالمذهب الأشعري.

وفي نفس الوقت يمكن القول أنَّ أبو العبَّاس أحمد بن عبد الرحمن بن خالد القُلانسي الرَّازي هو من يقصده البُرْزُلِي، حيث يذكره ابن عساكر[11] أنه معاصر لأبي الحسن الأشعري وموافق له في الاعتقاد ومتقدِّم عليه في الطبقة ويورده الشهرستاني[12] في العديد من المرات إلى جانب الحارث بن أسد المحاسبي على أنهما من تلاميذ بن كلاب، وكذلك فعل البُرْزُلِي، وهما الاثنان وأستاذهما ابن كلاب أول من خاض علم الكلام من السنة « وأيدوا عقائد السلف بحُجَجٍ كلامية وبراهين أصولية »، ويقول عنه ابن تيمية[13] أنه من أتباع أبي الحسن الأشعري ويذكره كذلك إلى جانب الحارث المحاسبي في العديد من المرات.

مما سبق لا يمكن اعتبار أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله الزبيدي «من مشايخ الأشعرية» ولا من الذين التقوا أبي الحسن الأشعري، وبالتالي تنتفي فرضية دخول المذهب الأشعري في حياة مؤسِّسها، ولكن هذا لا ينفي معرفة فقهاء المغرب للعقيدة الأشعرية في فترة مبكرة.

ب ــ علاقة أبي الفضل الممسي وابن التبّان بالعقيدة الأشعرية:

يصنف تاج الدين السبكي[14] إلى جانب ابن أبي زيد القيرواني وأبي إسحاق القلانسي في الطبقة الثانية للأشاعرة كل من أبو الفضل العباس بن عيسى الممسي (ت.333 هـ/942م) وابن التبّان (ت.371 هـ/981م)، وصنّفه الخشني[15] ضمن من " انتحل النظر وتحلى بالجدل من أهل السنة" وأنه «يناظر في الجدل، وفي مذاهب أهل النظر، على رسم المتكلمين والفقهاء»، وبالرغم من أنه من معاصري ظهور المذهب الأشعري وأنه قصد المشرق بغرض الحج سنة 317 هـ/929م[16]، كما لم تذكر له المصادر رحلة لبغداد، و إنما ذكرت استقراره مدةً في مصر قبل مواصلة الحج نحو مكة المكرّمة، وبما أنَّ العقيدة الأشعرية لزالت في طور التأسيس فإنها لم تكن متواجدة في بلاد الحجاز بالشكل الذي يؤدي إلى احتمال احتكاك الممسي بالأشاعرة وأخذه علم الكلام عنهم.

وبالتالي لا توجد أي إشارة لعلاقة أبي الفضل الممسي بالأشاعرة، وفي نفس الوقت لا يمكن أن يكون الممسي أشعرياً بمجرد خوضه في الجدل الذي أصبح في بلاد المغرب سلاح لجأ إليه الفقهاء المالكية بعد فرض الدولة الفاطمية مذهبها الإسماعيلي، حيث أنّ أبو الفضل الممسي عُرِف بمواجهته للدولة الفاطمية، ذلك أنه من الفقهاء الذين قُتِلوا في ثورة بن أبي يزيد الخارجي سنة 333 هـ / 942 م[17].

أمَّا ابن التبّان فيذكر عنه القاضي عياض[18] أنه كان من المتكلمين على أصول التوحيد، وبالرغم من عدم ذكر المصادر لرحلة له بالمشرق فإنه كانت « تضرب إليه أكباد الإبل من الأمصار لعلمه بالذب على مذهب أهل السنة »، كما أنه كان له مذهبه الخاص في مسألة الاستثناء في الإيمان فبعد أن ظهرت بين محمد بن سحنون (ت.256هـ/869م) ومحمد بن عبْدُوس (ت. 260هـ/873م) تجددت بين ابن التبّان وابن أبي زيد القيرواني فالأول يرى أنه إذا سئل عن شخص هل هو مؤمن أم لا؟ يرد بالقول أنه مؤمن عند الله واعتبر بقوله من المرجئة أما الثاني فيرد بأنه إذا كانت سريرته مثل علانيته فهو مؤمن عن الله، وهو ما أدى إلى تهاجرهما وانقسام فقهاء القيروان بينهما[19].

وبناء على هذه المسألة، يصنف هادي روجيه إدريس[20] كلا من بن التبّان وابن أبي زيد ضمن الأشاعرة بالرغم من أن هذه المسألة ليست جديدة في القيروان بل ظهرت منذ النصف الأول من القرن الثالث الهجري /التاسع الميلادي.

ج ــ ابن أبي زيد القيرواني و انتماؤه العقدي:

في منتصف القرن الرابع الهجري / 10م تقريباً ألَّف أبو محمد عبد الله بن أبي زيد النفزي القيرواني (ت.386هـ/996م) كتاب "الرِّسالة" أورد في مطلعها عقيدته وجاء فيها حول مسألة الاستواء أنَّ الله « فوق عرشه المجيد بذاته وهو في كل مكان بعلمه»[21]، وهي المقولة التي أحدثت جدلاً متواصلاً حول نسبة ابن أبي زيد القيرواني للأشاعرة من عدمها بين القدامى والمُحْدثين.

وقد كان أوَّل شارح لرسالة بن أبي زيد من المشرق وأشعري العقيدة وهو القاضي أبو محمد عبد الوهاب بن علي بن نصر البغدادي (ت.422هـ/1131م)، قد تحفَّظ على قول ابن أبي زيد بالقول «فوق عرشه» وفضَّل قول على عرشه بدل فوق عرشه انطلاقا من أنَّ «ما طابق النص أولى بأن يستعمل»[22] حيث قال الله تعالى «**الرحمن على العرش استوى**»[23] لكنه امتدح "الرسالة" قائلا :

وفي صدرها علم الديانة واضحاً وآداب خير الخلق ليس لها ند

لقد أمَّ بانيها السداد فذكره بها خالد ما حجَّ واعتمر الوفد[24]

وبعد حوالي ما يزيد عن قرن بقليل من وفاة ابن أبي زيد القيرواني طُرِحت مسألة على أبي الوليد بن رشد الجد (ت.520 هـ/1126م) حول كون ابن أبي زيد القيرواني ونظراؤه أشعريون أم لا؟، واكتفى بن رشد بالإقرار بعدم جهل ابن أبي زيد ونظرائه بأصول الدين التي اختصَّ الأشاعرة بمعرفتها وأضاف ابن رشد « وكفى بمعرفته بها ما في صدر رسالته ».

وانطلاقاً من نص الإجابة عن الفتوى التي طُرِحت على ابن رشد فإنَّه لم يُجِبْ عن السؤال المطروح عليه حول أشعرية ابن أبي زيد من عدمها واكتفى بالإقرار بمعرفته للمذهب الأشعري ثمَّ أحال إلى رسالته [25]، فهل يمكن أن يكون لذلك دلالة؟، وهذا انطلاقاً من أن يكون ابن رشد تفادى الإقرار بتأثُّر ابن أبي زيد بالأشاعرة استناداً إلى رسالته مع العلم أنَّ السؤال طُرِح من الأمير أبو إسحاق إبراهيم بن يوسف بن تاشفين، أيْ أنَّ السؤال طُرِح من داخل دولة المرابطين التي حاربت علم الكلام الأشعري واعتبرته بدعة، وبالتالي يكون ابن رشد قد تعمَّد عدم الفصل بشكل واضح في هذا السؤال حتى لا يكون معاكساً لتيار دولة المرابطين

في الوقت الذي قامت دولة الموحدين على أنقاض هذه الأخيرة حاملةً لواء علم الكلام الأشعري.

وفي القرن السابع الهجري /13 م طُرِح سؤال من بلاد المغرب على عز الدين بن عبد السلام حول نفس المقولة من أنه يفهم منها القول بالجهة أم لا؟ وهل يُكفَّر معتقدها أم لا؟[26]، وتكمُن أهمية السؤال في كونه طُرِح على أشعري وقد أقرَّ بأنَّ ظاهر القول يُفهم منه القول بالجهة ولكنه لا يُكَفر صاحبها، ويعــلِّق البُرْزُلي على ذلك بالقول : « اعتذر الناس عن الشيخ – ابن أبي زيد – باعتذارات ليردوه إلى مذهب الأصوليين »[27]، وهي دلالة على التجاذب الواقع حول ابن أبي زيد ومحاولة كل طرف تعزيز صفِّه بالتدليل على أنه يوافقهم.

و لم يتوقف الجدل حول ابن أبي زيد في المغرب فقط بل تعدّاه إلى المشرق فبإضافة إلى أنَّ أوَّل من تصدى لشرح رسالته هو القاضي عبد الوهاب البغدادي تلميذ الباقلاني، نجد ابن عساكر الدمشقي يُدرِج ابن أبي زيد في عِداد الأشاعرة ومن المتأخرين الذين أخذوا علم الكلام عن أبي طاهر البغدادي الواعظ (ت.448هـ/1056م)[28]، بالرغم من عدم وجود أي ذكر في المصادر المغربية لذلك، وسايره في ذلك السبكي حيث صنَّفه في الطبقة الأشعرية الثانية[29].

وفي المقابل نجد ابن تيمية (ت.728هـ/1328 م) يوافق تماماً ما ذهب إليه ابن أبي زيد واحتجَّ بأن كل الذين ردوا عليه هم « أتباع الجهمية والنفاة »[30]، لكن تلميذه شمس الدين الذهبي (ت.747هـ/1346م) ــ وبعد أن يورد مقولة ابن أبي زيد ــ يتحفّظ عليه في كلمة " بذاته " وتمنَّى عليه تركها لأنها كانت ــ حسب الذهبي ــ مصدر نِقمةٍ عليه[31].

أمَّا المُحْدثين فاعتمدوا على هذا النص في إثبات أشعرية ابن أبي زيد من عدمها، حيث اعتبر الباحث هادي روجيه إدريس أنَّ القواعد الإيمانية الواردة في الرسالة تشبه كثيراً العقائد الأشعرية[32]، أمَّا عبد المجيد النجَّار[33] فاعتبر أنَّ رسالة ابن أبي زيد موافقة لأهل السَّلف منهجاً وعقيدةً، لكنه استثنى النص السابق واعتبره متأثراً بالأشاعرة، وفي المقابل ينفي الباحث يوسف أحنانا تماماً أيَّ تأثرٍ لابن أبي زيد بالأشاعرة ويعتبره من المتشبِّثين بعقيدة التسليم والتفويض[34].

لكن ما علاقة ابن أبي زيد بالأشعرية وما موقفه منها؟

ينفرد ابن عساكر الدمشقي ــ الأشعري العقيدة ــ بذِكر مقطع من رسالة كتبها ابن أبي زيد بعنوان " مناقضة رسالة البغدادي المعتزلي "،وقد كُتِبت رداً على رسالة من علي بن أحمد

بن إسماعيل البغدادي المعتزلي يدعو فيها فقهاء القيروان مذهب المعتزلة ويدَّعي أنَّه مذهب الإمام مالك وأصحابه ويذُمُّ ابن كلاب وأبو الحسن الأشعري وعقيدتهما وأضاف بأنهما منسوبان إلى الكفر، والذي يهُم بالأساس في رد ابن أبي زيد أنه يعترف صراحةً بأنه «غير مقلِّدٍ في معنى التوحيد والاعتقادات الأشعري خاصةً»، وفي نفس الوقت يوافقه في كلام القارئ للقرآن محدث واعتبر هذا موافق لما أخذه أهل المغرب عن محمد بن سحنون وسعيد بن الحداد.

لكن ابن أبي زيد القيرواني رفض تكفيرهُما ــ ابن كلاب وأبي الحسن الأشعري ــ، وثَّمن خوض ابن كلاب في الكلام بالقول أنَّه « يتقلَّد السنة ويتولى الرَّد على أهل البدع »، أمَّا أبو الحسن الأشعري فهو: « يرُدُّ على أهل البِدع وعلى القدرية والجهمية، متمسِّك بالسُنَن »[35].

وبالتالي يلاحظ أنَّ ابن أبي زيد لا ينكر الخوض في الكلام بالرغم من أنَّ المصادر تذكر له "رسالة النهي عن الجدل "[36]، فهل هذا راجع لواقع المغرب الذي غلبت عليه الدولة الفاطمية؟، وبالتالي الحاجة مُلحَّة لاستخدام الجدل لدحْض المذهب الإسماعيلي، مع العلم أنَّ الحاجة المُلحَّة نفسها – تقريباً – لم تُؤدي بأحمد بن حنبل – في القرن الثالث الهجري / 09 م ــ بالخوض في الجدل بل أنكره على ابن كلاب، ولكن يمكن اعتبار أنَّ هذه الرسالة موجَّهة للعوام لنهيهم عن الخوض في الجدل.

وبما أنَّ ابن أبي زيد القيرواني يلقَّب بـــ "مالك الصغير"، فقد كانت له علاقة مع الفقهاء المالكية الأشاعرة في بغداد فلقد كتب أبو عبد الله بن مجاهد المتكلِّم (ت.370 هـــ/981م) – صاحب أبو الحسن الأشعري وأستاذ أبو بكر بن الباقلاني للقيرواني طالباً إجازته ومن معه من الفقهاء في كل من كتاب " مختصر المدوَّنة " وكتاب "النوادر والزيادات على المدوَّنة " ثمَّ أرَّخ رسالته بسنة 368 هـــ / 979 م،وقد أجاز لهم بن أبي زيد القيرواني هذه الكتب مرفقاً الإجازة بالقول « وعندنا من أخبار الشيخ الطيبة ــ بن مجاهد ــ ما تعمُّ مسرته من نصرته في هذا المذهب ــ المذهب المالكي ــ وذبِّه عنه ... »، وبعث بها مع تلميذين له هما أبو علي محمد بن خلدون وأبو بكر إسماعيل بن إسحاق بن عزره الأندى القروي[37].

وعندما زعم أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد البكري الصقلي أنَّ له كرامة رؤية الله في اليقظة أنكر عليه ابن أبي زيد القيرواني ذلك وألَّف كتاباً بعنوان " الاستظهار في الرد على البكرية "، فاتهموه بنكران الكرامات فشنَّعوا عليه ذلك، وتوالت عليه الردود من علماء المغرب

والأندلس والمشرق ومن بينهم بن الباقلاني، لكن ابن أبي زيد القيرواني صنَّف كتاباً آخراً يوضِّح فيه ما لُبِّس له من القول بإنكار الكرامات بعنوان " كشف التلبيس "[38].

وحينها كان من ابن أبي زيد إلاَّ اللُّجوء إلى الباقلاني الأشعري دون غيره[39] حيث أرسل له كتابه الأخير وهو ما أدَّى إلى تصنيف كتاب بعنوان " الفرق بين المعجزات للأنبياء وكرامات الأولياء "، وفيه صحَّح ابن الباقلاني موقفه من ابن أبي زيد القيرواني «فعظَّم قدره وشيَّخه»، واستفتح كتابه بالقول «وشيخنا أبو محمد مع اتساع علمه في الفروع وإطلاعه على شيء من الأصول لا ينكر كرامات الأولياء ولا يذهب إلى ما تذهب إليه المعتزلة» ثمَّ واصل تبريره وتأويله لقول ابن أبي زيد في الكرامات[40].

وبالتالي فإن ابن أبي زيد القيرواني بالرغم من علاقته الوطيدة بأعلام الأشاعرة دون غيرهم والجدل الواسع حول نصِّه العقدي الذي أورده في رسالته، فإنَّه لا يمكن تصنفه في عِداد المختصين بالعقيدة الأشعرية، وذلك اعتمادا على النص الوارد في رسالته رداً على المعتزلي، لكن في نفس الوقت يسجل عدم إدراجه للأشاعرة في صف المبتدعة، مما يفسح لتلاميذه التعرف على هذه العقيدة والأخذ بها دون اعتراض من شيخهم.

2- الفقهاء الأشـــاعرة ببلاد المغرب خلال النصف الثاني من القرن الرابع الهجري /10م:

إذا كان الجدل وقع حول أشعرية الفقهاء السابقين، فيوجد ببلاد المغرب من المعاصرين لهم من الذين يمكن إثبات أشعريتهم انطلاقاً من المصنفات التي وضعوها أو التي تداولوها عن شيوخهم أو المناظرات التي أوردها المصادر لهم.

أ ـــ أبو ميمونة الفاسي :

يرجِّح الباحث هادي روجيه إدريس أن يكون الفقيه أبو ميمونة درَّاس بن إسماعيل الفاسي (ت.357 هـــ / 968 م) هو الذي ألَّف رسالة في الدفاع عن أبو الحسن الأشعري وردَّ عليها ابن حزم الظاهري[41]، ويذكر الباحث محمد المغراوي أنَّه يوجد لأبي ميمونة رسالة في الثناء على أبي الحسن الأشعري وفي موافقته له في الاعتقاد بعث بها للباقلاني، كما تلقَّى منه رسالة وهو في القيروان، وبالتالي ـــ حسب هذه الرسالة ـــ فإن أبا ميمونة أشعري الاعتقاد[42].

وفي نفس الوقت تذكر جميع التراجم عنه أنه كان متصوفاً وله الكثير من الكرامات، وأنه فقيه ملتزم بالفقه المالكي حيث أنه درَّس الفقه المالكي بالقيروان وببلده فاس وعنه أخذ فقهاء

القيروان كتاب الموازية في الفقه المالكي[43]، ومنه يمكن القول أنَّه في وقت متقدم جداً تجتمع في شخص أبو ميمونة الثلاثية التي انتهى إليها بلاد المغرب التي وصفها ابن عاشر في مَتْنِهِ بالقول :

وعَقْدُ الأشعري ومذهبُ مالكِ وفي طريقةِ الجُنَيْد السالك[44]

ب ــ أبو القاسم بن عبد المؤمن المكي :

كما تذكر كتب التراجم أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد المؤمن المكِّي، بأنه اشتهر بأشعريته، بحيث أنه من المتكلِّمين على مذهب أهل السُنَّة، وأنَّه تتلمذ وسمع عن ابن مجاهد المتكلِّم، واستوطن أخيراً في القيروان « وصحِب أبا محمد بن أبي زيد وغيره من أئمَّتها »[45].

وبالرغم من أنَّ كتب الفهارس والبرامج لم تذكره في قائمة الفقهاء الذين نقلوا المصنفات الأشعرية لبلاد المغرب إلاّ أنَّ فرضية نقل أبو القاسم بن عبد المؤمن لبعض المصنَّفات الأشعرية إلى القيروان واردة وبالخصوص مؤلفات أستاذه بن مجاهد المتكلِّم، وذلك بالاعتماد على قول القاضي عياض أنَّ فقهاء القيروان قد « ذاكروه و أخذوا عنه »[46]، وربما يرجع ذلك لعدم احتكاكه بالأندلسيين مما يؤدي لعدم ذكره في فهارسهم التي اشتهروا بها.

ج ــ أبو بكر بن عزره الأندى :

يذكر ابن عساكر الدمشقي أنَّ أبا بكر إسماعيل بن إسحاق بن عزره الأندي سُئِل من طرف أبو القاسم حاتم الطرابلسي عن ترك أبي الحسن الأشعري لمذهب الاعتزال فأورد أبو بكر بن عزره حادثة تخلي أبي الحسن الأشعري عن مذهب المعتزلة وتهجُّم رؤُوس هذا المذهب عليه واستهلَّ كلامه بالقول أنَّ « الأشـــعري شيـــخنا وإمامنا ومن عليه مُعوِّلنا »[47]، وبالتالي يكون أبو بكر بن عزره ــ حسب هذا النص ــ ممن اختصَّ بالمذهب الأشعري كعقيدة له دون غيرها.

إضافة إلى ذلك تذكر المصادر أنَّ أبا بكر إسماعيل بن عزره اختصَّ بالتتلمذ على ابن مجاهد المتكلم، فهو الذي أرسل معه ابن أبي زيد القيرواني الإجازة التي طلبها ابن مجاهد وفي أثناء ذلك تتلمذ عليه، وأخذ عنه العقيدة الأشعرية التي أصبح يُقْرِأُها في القيروان وبالقصر الكبير بالمنستير عن طريق نقل الرسالة التي ردَّ فيه ابن مجاهد على طلب فقهاء أهل الثغر بباب الأبواب من شرح أصول المذاهب المُتَّبِعين للكتاب والسنّة، وقد نقلها عنه كل من أبي عمرو أحمد بن محمد بن جهور المرشاني (ت.430 هـــ/1039م) وأبو القاسم حاتم بن محمد الطرابلسي

(ت.469هـ/1077م) وأبو جعفر أحمد بن محمد بن عبيدة الأموي (ت.400هـ/1010م) بالقيروان وكل من أبي مروان عبد الملك بن زيادة الله التميمي الطبني (ت.456هـ/1064م) وأبي عبد الله محمد بن هبة الله الضرير في القصر الكبير بالمنستير[48].

أمَّا عن علاقة ابن عزره الأندى بالمتصوفة، فإن تراجمه تصفه بالزاهد والعابد، وإضافةً إلى ذلك فقد أخذ عنه حاتم الطرابلسي كتاب الرعاية للمحاسبي[49]، وبما أنه تتلمذ على ابن أبي زيد القيرواني وأخذ عنه كتاب النوادر والزيادات فإنه يكون قد اجتمعت فيه كذلك الهوية الدينية الثلاثية لبلاد المغرب.

د ــ أبو الحسن القابسي :

إنَّ الفقيه الأبرز والأكثر تأثيرا في الاتجاه الأشعري ــ في هذه الفترة ــ هو علي بن محمد بن خلف المعافري المعروف بأبي الحسن القابسي (ت.403 هـ / 1013م)، حيث أوردت تراجمه[50] – وحتى شمس الدين الذهبي – أنَّه أصولي ومتكلم[51]، ويضيف بن عمار الميورقي بأنه كان ملازماً لفقيهين أشعريين في رحلته نحو المشرق في ما بين سنتي 352 هـ إلى سنة 357 هـ (963م ــ 968م) وهما أبا ميمونة درَّاس بن إسماعيل وأبا محمد الأصيلي الأندلسي حيث تفقَّه بالأوَّل بكتاب الموازية[52] والثاني كان يُدَوِّن ويصحح له كتبه بعد ذهاب بصره[53].

أمَّا تصانيفه التي من الممكن أن تكون في مجال العقيدة الأشعرية فهي " كتاب الاعتقادات " و" أحكام الديانة "[54]، وكل تصانيفه مفقودة ماعدا كتاب واحد هو " الرسالة المُفصِّلة لأحوال المتعلِّمين وأحكام المُعلِّمين والمُتعلِّمين "، وبالرغم من أنها ليست في المجال العقدي، لكن الاتجاه الأشعري كان جلياً في ثلاثة مواضع على الأقل وهي :

أولها : أنَّ القابسي يُفرِّق بين الإيمان والإسلام فهو يشرح حديث الإيمان[55] قائلاً : « الذي سمَّاه الرسول عليه السلام في هذا الحديث إيمانا هو الإقرار بما قد سمَّاه صلى الله عليه وسلم، والذي سمَّاه إسلاماً، هو عمل الجوارح بما افترض عليها ».

وبالتالي فإن الإيمان عند القابسي هو:« القبول من الرسول ما جاء به، يُصَحِّحُه لقائله اعتقاد قلبه بتصديقه »[56]، هذا في الوقت الذي يُقْرِنُ الإمام مالك التصديق بالقلب والإقرار باللسان والعمل بالجوارح بالإيمان[57]، وهو لا يختلف في ذلك عن أحمد بن حنبل[58]، أمَّا أبا

الحسن الأشعري فيرى أنَّ « الإيمان هو التصديق بالجنان، وأما القول باللسان والعمل بالأركان ففروعه »[59].

ثانيها : قول القابسي بنظرية الكسب في الأفعال التي اشتهر بها الأشاعرة، فعندما سُئِل عن الذي تعلَّم القرآن ثمّ ضيَّعه حتى نسيه فأجاب أنَّ « النسيان إنَّما أصابه عقوبةً لاشتغاله بسوء الاكتساب، فكان اكتسابه السوء ذنباً منه عُجِّلت له عقوبته »[60]، ومنه فإنَّه ـــ حسب القابسي ـــ أنَّ الذي نسي القرآن لم يكن مجبراً ولا مخيَّراً على عمل السوء وإنما القدرة على الفعل فيه من الله، وبالتالي فهو لا يقدر على إحداث السوء وإنما يقدر على كسبه كما يقول أبو الحسن الأشعري[61] اعتمادا على قول الله تعالى « **ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون** »[62] وكذلك قوله تعالى : « **لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم إن الله غفور حليم** »[63].

ثالثها : أنَّ القابسي يستخدم أدوات الأشاعرة في تفسير الأحاديث النبوية من أجل الحثِّ على تعليم الأنثى[64] وذلك باستخدام التأويل وآلية قياس الشاهد بالغائب التي يستخدمها الأشاعرة في الآليات المنطقية العقلية[65].

وبالرغم من أنَّ هذه الرسالة لم تكن في المجال العقدي، فإنه أبان بها أشعريته التي ظهرت في رسالته التعليمية البعيدة عن المجال العقدي، وهذا يدل على مدى أخذ أبو الحسن القابسي بالعقيدة الأشعرية حتى برزت في مصنفه الغير عقدي.

وما يدعم تبَنِّي القابسي العقيدة الأشعرية بشكل جازم هو أنه لا يرفض كتب ابن فورك (ت. 406 هـــ / 1012 م) باستثناء كتاب " مشكل الأحاديث " حيث ذكر أبو عبد الله المازري أنَّ القابسي كان يدعو على ابن فورك لإدخاله أحاديث ضعيفة في كتابه ولم يكن في حاجةٍ إليها[66].

إضافةً إلى ذلك فإنَّ للقابسي كتاباً في فضل أبي الحسن الأشعري[67]، وبالرغم من أنَّ كتب التراجم والطبقات لم تذكره ضمن مصنَّفاته[68]، إلاَّ أنَّ أبا عبد الله محمد بن عمار الميورقي يذكر بأنَّه ورَدَ عليه سؤال من أهل تونس حول عقيدة أبو الحسن الأشعري[69] فأجاب بالدفاع عنه في خوضه لعلم الكلام من أجل « إيضاح السُنن والتَّثْبيت عليها ودفع الشُبَه عنها »، واعتبر أنَّ من فهم كلام أبا الحسن الأشعري من فضل الله عليه[70]، كما احتجَّ على من يفهم

أنَّ قول الأشعري في التوحيد خارج عن أهل الحق بحيث أبطله وذهب بأنَّ عقيدة صحيحة وأضاف قائلاً « لقد مات الأشعري ... يوم مات وأهل السنة باكون عليه وأهل البدع مُستريحون منه »[71].

وهنا لابدَّ من المقارنة بين نص أبو الحسن القابسي ونص ابن أبي زيد القيرواني، فلأول ينافح ويُبْطِل من يطعن في كلام الأشعري في التوحيد ويعتبره الأحقَّ بالأخذ عليه، بينما يذهب الثاني بعدم تقليد الأشعري خاصةً في التوحيد والاعتقادات[72]، وهو يُعتبر تطور في موقف فقهاء القيروان، ذلك أنَّ القابسي تتلمذ على ابن أبي زيد وكان ملازماً له[73].

3 ــ موقف فقهاء العقيدة السلفية ببلاد المغرب من الأشاعرة الأوائل:

أ ــ علاقة ابن أبي زيد بالأشاعرة الأوائل :

من خلال ما سبق هل يمكن التساؤل، عن إمكانية وجود حوار عقدي بين الأشاعرة وابن أبي زيد وفقهاء القيروان الذين توارثوا عقيدة التسليم والتفويض؟، وإذا علمنا أنَّ كتب التراجم والطبقات كانت دائما ترصد الخِلافات التي تقع بين الفقهاء ولو في مسائل بسيطة، فإنه ليس من الممكن أن تغفل عن ذكر خِلاف عقدي بينهم إنْ وُجِد فعلاً.

وفي المقابل ذكرت هذه المصادر أنَّه كانت بين ابن أبي زيد وأبو ميمونة علاقة متينة حيث نزل هذا الأخير في بيته عندما حلَّ بالقيروان وأخذ عنه كتاب الموازية بمعيَّة أبي الحسن القابسي[74]، بالإضافة إلى ذلك نجد أنَّ أبا القاسم بن عبد المؤمن المكي ــ الذي ثبُتت أشعريته وتتلمذه عن ابن مجاهد ــ يذكر عنه القاضي عياض أنه قد سكن القيروان « وصحب ابن أبي زيد وغيره من أئمتها »، كما أنه لم ترصد المصادر أي اعتراض على العقيدة الأشعرية التي يتبناها بن عبد المؤمن المكي بل ذكرت أنَّ فقهاء القيروان « ذاكروه وأخذوا عنه » وإذا كانت كتب التراجم لم تسجل اعتراضهم على ما أخذوا عنه فإنها سجلت ثناءهم عليه[75].

كما يظهر بأنَّ هناك انسجام بين ابن أبي زيد القيرواني ــ الذي يتزعم فقهاء عقيدة التسليم والتفويض ــ وأبو القاسم بن عبد المؤمن المتكلِّم الأشعري عندما سُئِل القيرواني عن

الخضر عليه السلام هل هو باقٍ في الدنيا مع هذه القرون؟ وكان بن عبد المؤمن معه في المجلس، وهنا « أجابا معاً أنَّ ذلك ممكن جائز » وبما أنَّ هذه المسألة ذكرت ضمن ترجمة ابن أبي زيد فهو يعني التلازم وحتى التوافق بين الفقيهين اللذان ينتميان لمذهبين عقديين مختلفين.[76]

وإذا كان الجدل حول رسالة ابن أبي زيد القيرواني قد استمرَّ لقرون بعده فإنَّ السؤال الذي يجب أن يُطرح في هذا السياق هو: لماذا لم يكن هذا الجدل حول عقيدته في محيطه بالقيروان بين الفقهاء الذين عاصروه؟، بالرغم من أنَّ رسالته كانت موجَّهة للتَّلْقين حيث كتبها بطلب من أحد المؤدبين في القيروان لتعليمها لطلبته.

وهذا ما يؤدي إلى الاعتقاد بأنَّ هذا الجدل لم يطرح في بلاد المغرب إلاَّ عندما وقع التجاذب بين فقهاء التسليم والتفويض والأشاعرة في بلاد المغرب في نهاية القرن الخامس الهجري / 11 م، مما أدى بكل طرف إلى محاولة إثبات انتماء فقهاء كبار المالكية لمذهبهم العقدي من أجل تحقيق الاستقطاب المذهبي.

وفي نفس الوقت يلاحظ أنَّ كل أشاعرة النصف الثاني من القرن الرابع الهجري / 10 م قد تتلمذوا على بن أبي زيد القيرواني كأبي الحسن القابسي وأبي محمد الأصيلي ودراس بن إسماعيل الفاسي وأبي بكر بن عزره الأندى الذي كان مبعوثه لابن مجاهد البصري، ومنه فإن ابن أبي زيد يقبل بالعقيدة الأشعرية لكنه غير مخصوص بها[77].

ب ــ موقف الفقهاء المغاربة من المصنفات الأشعرية :

من جهة أخرى نجد أنَّ المصنفات الأشعرية أصبحت متداولة دون اعتراض من فقهاء العقيدة السلفية حتى أنها أصبحت تنسخ وتباع وهو ما يلمس في ما ذكره الدباغ من أنَّ الفقيه أحمد بن عوانة نسخ للفقيه أبا علي حسن بن خلدون البلوى « جزءاً من كلام الأشعري يساوي أربعة دراهم »[78]، وقد أرَّخ الدباغ هذه الحادثة بسنة 390 هـــ / 1000م.

انطلاقاً من هذه الحادثة ــ التي ذُكرت عَرَضاً في إطار العلاقة التي تربط الفقيهين ببعضهما ومؤازرة أحمد بن عوانة لأبي علي بن خلدون حيث أنَّه لم يقبل أخذ الأجرة منه ــ أظهرت لنا انتشار مصنفات الأشعري بين فقهاء القيروان في النصف الأول من القرن الرابع الهجري / 10 م، وأصبحت مادةً لنسخ يتداولها الفقهاء بينهم.

ومن القرائن التي تدعم هذا الاستنتاج هو أنَّ الفقيه أبي الحسن القابسي كان على درايةٍ بكل مصنفات أبي بكر بن فورك (ت. 406 / 1015 م) وكان قد مدحها واستثنى في مدحه كتاب "مشكل الأحاديث " بدعوى أنه أورد أحاديث ضعيفة، وبالتالي فإنَّ مصنفات ابن فورك قد وصلت بلاد المغرب وهو على قيد الحياة، أَيْ قبل أن يشتهر بنقلها أبا علي حسن بن حمود المولى التونسي الذي اشتهر بلقائه بابن فورك وتتلمذه عليه وقام بنقل مصنفاته إلى بلاد المغرب والأندلس[79]، ولكنه لم يدخل القيروان إلاَّ في سنة 423 هـ[80].

وإذا قورنت كتب ابن فورك بكتب مؤسس العقيدة الأشعرية من ناحية توقيت وصولها لبلاد المغرب، فإن مصنفات هذا الأخير قد وصلت في مرحلة متأخرة، إذْ لا يوجد من القرائن ما يثبت وجود أنصار لأبي الحسن الأشعري في النصف الأول من القرن الرابع الهجري / 10 م ومنه ليس هناك إمكانية لتواجد مصنفاته في بلاد المغرب، أمَّا بالنسبة لمصنفات ابن فورك فعلى العكس تماما حيث كان لها أن تعرف وتنتشر بين فقهاء بلاد المغرب في الوقت الذي كان مصنفها على قيد الحياة، ويعاني من مضايقة الحنابلة ببلاد المشرق وهو ما يؤدي إلى القول وجود تحول لدى فقهاء بلاد المغرب.

إضافةً إلى ذلك فإنَّ القيروان ورباط المنستير أصبحتا وجهة الأندلسيين لتلقي مصنفات ابن مجاهد من أبي بكر بن أبي عزره[81] ومصنفات ابن فورك من أبي علي الفولي[82] وعن طريقهما انتقلت إلى فقهاء عديدين ببلاد الأندلس.

هذا كله دون أن تسجِّل المصادر أيَّة معارضة لبداية انتشار المذهب الأشعري ببلاد المغرب بين الفقهاء المالكية، في الوقت الذي لاقى هذا المذهب المضايقات العديدة بالمشرق، وإذا كانت بلاد المغرب تتأثر بما يجري بالمشرق، فإنَّ أهل تونس بعثوا للقابسي يستفسرون عن هذه العقيدة، وربما يكون ذلك بما وصلهم من المعارضة الشديدة التي شهدها فأرادوا أن يتعرفوا عن موقف فقيههم الأول أبي الحسن القابسي، لكن في نفس الوقت لم تكن لهذه الرسالة موقف يدل على تطور إلى معارضة جلية للمذهب الأشعري. كما أنَّ نص هذه الرسالة لم يحتوِ على ذم للأشعري ومذهبه.

وفي نفس الوقت نجد ثلاثة رسائل في مدح الأشعري خلال النصف الثاني من القرن الرابع الهجري /10م في بلاد المغرب (القيروان) مع عدم وجود اتصال بين فقهاء بلاد المغرب والفقهاء المشارقة الذين عرفوا بمعارضتهم للمذهب الأشعري.

– الهوامش:

1 ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق : محمد إبراهيم نصر وعبد الرحمن عميرة، ج.5، ط.2، دار الجيل، بيروت، 1996، ص.73وما بعدها.

2 H.R.Idris ,Essai sur la diffusion de l´aš´arisme en Ifrîqiya , Dans les cahiers de tunisie ,2eme Trimestre ,première Annèe ,publlièe par l'Institut des Haautes Etudes de Tunis ,1953,p.127 _ 128.

3 عبد المجيد النجار، فصول في الفكر الإسلامي بالمغرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992، ص.22.

4 المغراوي محمد، تطور المذهب الأشعري بالمغرب الأقصى إلى حدود العصر المرابطي، ضمن ملتقى " التاريخ والفقه أعمال مهداة إلى المرحوم محمد المنوني "، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 2002، ص.135 ؛ بكير أحمد، الجدل حول العقيدة بالقيروان، ضمن ملتقى الإمام المازري، منشورات مجلة الحياة الثقافية، تونس، 1978، ص.31 ؛سالم يفوت، معلمة المغرب، ج.3، ص465 ؛يوسف أحنانة، تطور المذهب الأشعري في الغرب الإسلامي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية، الرباط، 2007.ص.67 ؛التهامي إبراهيم، الأشعرية في المغرب ، دار قرطبة، الجزائر، 2006، ص.12.

5 البُرْزُلِي، جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكّام، تحقيق :محمد الحبيب الهُيلة، ج.1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2002، ص.387.وقد اعتمد الباحث هادي روحيه إدريس على مخطوط المكتبة الوطنية الجزائرية وقد رجعت إلى المخطوط الموجود تحت رقم : 1333 والنص في الورقة 135، واعتمد الباحث عبد المجيد النجار على مخطوط المكتبة الوطنية التونسية تحت رقم 4851، ج.1، ورقة 91/ظ.

6 القاضي عياض، ترتيب المدارك، تحقيق :محمد بن تاويت الطنجي وآخرون، ج.4، ط.2، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الدينية المغربية، الرباط، 1983، ص.228.

7 ابن فورك، مقالات أبو الحسن الأشعري، تحقيق أحمد عبد الرحيم السايح، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2005، ص.164 ــ 165 ؛ابن عساكر، تبيين كذب المفتري في ما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، نشر :حسام الدين المقدسي، مطبعة التوثيق، دمشق، 1347 هـ، ص.115.

8 القاضي عياض، المصدر السابق، ج.6، ص.257 .

9 H.R.Idris ,op.cit ,p.128.

10 جامع مسائل الأحكام، ج.1، 387 وهو الموضع الأول الذي أوردته سابقاً، أما الموضعين الآخرين هما في : ج.3، ص.206 وج.6، ص.214.

11 المصدر السابق، ص.398.

12 الملل والنحل، ج.1، ص.106.

13 ابن تيمية، درءُ تعارض العقل والنقل، تحقيق :محمد رشاد سالم، ط.2، ج.1، طبعه ونشره إدارة الثقافة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، 1991، ص.270.

14 طبقات الشافعية، ج.3، ص.372.

15 طبقات علماء إفريقية، ص.73.

16 نفسه، ص.299.

17 المالكي، رياض النفوس، ج.2، ص.292.

18 المصدر السابق، ج.6، ص.248.

19 القاضي عياض، المصدر السابق، ص.255.

20 Essai sur la diffusion de l´aš´arisme en Ifrîqiya ,p. 133.

21 أبو عمر الداني، الرسالة لابن أبي زيد القيرواني وبهامشها الشرح المسمى الثمر الداني في تقريب المعاني، جمع صالح عبد السميع الأبي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، 1338 هـــ، ص.9.

22 عبد الوهاب بن علي البغدادي، شرح عقيدة الإمام مالك الصغير، تحقيق: أبو الفضل العمراني الطنجي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002، ص.26.

23 سورة طه، الآية رقم 5.

24 الدباغ، المصدر السابق، ج.3، ص.112.

25 أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد، فتاوى ابن رشد، تحقيق : المختار بن الطاهر التليلي، السفر الثاني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987، ص.1060 ؛البرزلي، المصدر السابق، ج.6، ص.210.

26 البرزلي، المصدر السابق، ج.1، ص.385.

27 نفسه.

28 تبيين كذب المفتري، ص.122.

29 طبقات الشافعية، ج.3، ص.372.

30 ابن تيمية، مجموع الفتاوى، تحقيق : عامر الجزار وأنور الباز، ط.3، ج.5، دار الوفاء للطباعة والنشر، المنصورة، مصر، 2005، ص.115.

31 الذهبي، العُلوُّ للعَليِّ الغفَّار في إيضاح صحيح الأخبار وسقِيمها، تحقيق : أشرف بن عبد المقصود، مكتبة أضواء السلف، الرياض، ص.235.

32 Essai sur la diffusion de l´aš´arisme en Ifrîqiya ,p. 130.

33 فصول في الفكر الإسلامي بالمغرب، ص.24.

34 تطور المذهب الأشعري في الغرب الإسلامي، ص.63.هناك الكثير من البحوث التي تناولت عقيدة ابن أبي زيد لكنني أخذت فقط البحوث ذات الطابع التاريخي، ذلك أن بحوث أخرى كثيرة أُنجزت بفرضيات مسبقة من أجل إثباتها انطلاقاً من ذاتية تخص عقيدة الباحث.

35 ابن عساكر، تبيين كذب المفتري، ص.406 ومابعدها.

36 القاضي عياض، المصدر السابق، ج.6، ص.218.

37 نفسه، ص.197.

38 الدباغ، المصدر السابق، ص.111.

39 نيلي سلامة العامري، التصوف في إفريقية في العصر الوسيط من القرن 03 هـــ إلى القرن 09 هـــ (09 م ــ 15 م)، دار كونتراست للنشر، سوسة، تونس، 2009، ص.45.

40 البُرْزُلي، جامع مسائل الأحكام، ج.6، ص.226 ؛الونشريسي أبو العباس أحمد بن يحي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، تخريج جماعة من الفقهاء، إشراف :محمد حجّي، ج.2، منشورات وزارة الأوقاف المغربية، الرباط، 1981، ص.443.

41 Deux juristes kairouawanais de l'époque zîrîdes ,dans annales de l'institut d'études orientales , faculté des lettres de l'université d'Alger ,T.XII ,année 1954 ,p.134.

لكن روجيه إدريس لم يذكر المصدر الذي اعتمده في ذلك.

42 المرجع السابق، هامش رقم : 23، ص.138. يذكر المغراوي أنّ الرسالة بحوزة الباحث محمد بنشريفة وأنه قد وعد بنشرها مستقبلاً، وتبقى الاستنتاجات التي أوردهما بشأن أبي ميمونة الفاسي مرتبطة بمضمون هذه الرسالة التي لم تنشر بعد حسب علمي.

43 أحمد بن القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس في ذكر من حلّ من الأعلام مدينة فاس، القسم الأول، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1973، 196.

44 محمد بن أحمد المالكي، الدر الثمين والمورد المعين، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، 1954، ص.12.

45 القاضي عياض، ترتيب المدارك، ص.181. يبدو أنّ ابن فرحون وقع في خطأ أثناء النقل عن القاضي عياض فهو يورد نفس الترجمة لكن باسم مختلف وهو أبو بكر أحمد بن عبد الله بن عبد المؤمن. أنظر : الديباج، ص.98.

46 القاضي عياض، المصدر السابق، ص.181.

47 تبيين كذب المفتري، ص.39.

48 ابن خير الاشبيلي، فهرسة مارواه عن شيوخه من الدواوين المصنَّفة في ضروب العلم، تحقيق :إبراهيم الأبياري، ج.1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1989، ص.319 ؛ابن عطية، فهرس بن عطية، ص.126.

49 نفسه،ص.318.

50 القاضي عياض، المصدر السابق، ج.7، ص.93 ؛ابن فرحون، الديباج، ص.296.

51 سير أعلام النبلاء، ج.17، ص.159 ؛تاريخ الإسلام، ج.28، ص.85.لقد خصصت الذهبي بالذكر لأنه هو نفسه من نفى معرفة ابن أبي زيد بالكلام، وقد وصفت مصادر أخرى القابسي بالأصولي والمتكلم.أنظر : القاضي عياض، المصدر السابق، ج.7، ص.93 ؛ابن فرحون، الديباج، ص.296.

52 القاضي عياض، المصدر السابق، ج.6، ص.84.

53 نفسه، ج.7، ص.93.

54 نفسه، ص.94.

55 أنظر :محمد بن إسماعيل البخاري، الصحيح، المجلد الأول، ج.1، باب الإيمان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت، ص.19 ــ 20.

56 أبو الحسن علي القابسي، الرسالة المُفصّلة لأحوال المتعلّمين وأحكام المُعلّمين والمُتعلّمين، تحقيق : أحمد خالد، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1986، ص.60.

57 القاضي عياض، المصدر السابق، ج.2، ص.43.

58 أبو يعلى الفراء، طبقات الحنابلة، ج.1، ص.55.

59 الشهرستاني، الملل والنحل، ص.114.

60 القابسي، المصدر السابق، ص.79.

61 ابن عساكر، تبيين كذب المفتري، ص.149.

62 الآية 41 سورة الروم.

63 الآية 225 سورة البقرة.

64 القابسي، الرسالة المفصلة، ص.95.

65 يوسف أحنانا، تطور المذهب الأشعري، ص.71.

66 البرزلي، المصدر السابق، ج.1، ص.386.

67 ابن عساكر، المصدر السابق، ص.122 ؛السبكي، طبقات الشافعية، ج.3، ص.367 ؛أبو علي السكوني، عيون المناظرات، ص.225 ؛ابن فرحون، الديباج، ص.293.

68 أنظر :القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج.7، ص.96.

69 يتساءل هادي روجيه إدريس عن هذه الرسالة في كونها نص من الكتاب الذي ألّفه في الذود عن الأشعري أم هي رسالة أخرى مستقلّة كتبها بعد استفتاءه في الأشعري..Essai sur la diffusion de l´aš´arisme en Ifrîqiya ,p. 134

70 ابن عساكر، المصدر السابق، ص.122.

71 السبكي، المصدر السابق، ص.367.

72 ابن عساكر، تبيين كذب المفترى، ص.408.

73 القاضي عياض، المصدر السابق، ص.93.

74 نفسه، ص.81.

75 نفسه،ص.181.

76 القاضي عياض، المصدر السابق، ج.6، ص.220.

77 ابن عساكر، تبيين كذب المفترى، ص.408.

78 الدباغ، معالم الإيمان، ج.3، ص.152.

79 ابن عطية، فهرس، ص.75.

80 القاضي عياض، المصدر السابق،ج.7، ص.262.

81 ابن عطية، المصدر السابق، ص.126 ؛ابن خير، المصدر السابق، ج.319.

82 القاضي عياض، المصدر السابق، ص.89.

الحضور اليهودي بتلمسان ودوره في إدارة المعاملات الاقتصادية خلال العصر الزياني

أ ة/ نصيرة عزرودي
جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة

المقدمة:

تعتبر وضعية اليهود في المغرب الأوسط قضية معقدة في كل المراحل التاريخية التي شهدها، ولإعداد هذه الورقة عملنا على استخدام المادة التاريخية الموجودة في المصادر بصفة عامة وكتب النوازل الفقهية بصفة خاصة لأن بإمكانها أن تقدم لنا صور الاندماج مع اليهود في حالاته العادية وفي صوره الدقيقة.

استطاع اليهود أن يجدوا لهم مكانة جد رفيعة داخل مجتمع المغرب الأوسط، فنجد منهم العلماء والتجار والأطباء البارزين المبرزين، لكن في ورقتنا هذه سنقتصر على تتبع الدور الاقتصادي لليهود فالمعاملات الاقتصادية عموما والتجارة والصناعة خصوصا من أكثر الأنشطة التي استهوت اليهود أكثر من أي عمل آخر، فارتبط اسمهم بها، واستقر معظمهم على خطوطها، ومناطق توزيعها، فغلب سكنى اليهود المدن ذات الأهمية التجارية، لتوفرها على المعادن الثمينة ذهبا أو فضة، وجعلوها دوما من اهتماماتهم، إلى جانب سياسة القروض وما يتصل بها من فوائد وربا[1]، أمّا الزراعة فكثيرا ما اعتبرت عملا شاقا، لأن جني مردودها يتطلب وقتا طويلا.[2]

ولتغطية الموضوع نعرج على بعض التساؤلات، هل تواجد اليهود في تلمسان يعني أن الدولة الزيانية (633هـ ـ 1236م/962هـ ـ 1455م) قد تخلت عن حقوقها إزاء أهل الذمة؟ وهل كان لواجب الحماية والجزية حضور ما في تلمسان الزيانية؟ وإلى أي حد احترم اليهود القواعد الإسلامية التي تنظم حياة أهل الذمة في الإسلام؟ وكيف يمكننا فهم استقرار اليهود في أحياء خاصة بهم داخل المدن الزيانية، فهل يعني ذلك أنهم كونوا استقلالية خاصة بهم داخل المجتمع الزياني، أم أنّ الأمر راجع لشعور اليهود بالدونية لأنهم دخلاء على أي وطن، إلى جانب كثرة غشهم وخداعهم ممّا أدى إلى النظر إليهم كأقلية من الناحية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وهو ما انعكس على طريقة استقرارهم أم الأمر راجع لدواع أخرى؟

وهل زيادة المعاملات الربوية وانتشار الغش بين اليهود راجع إلى تزايد الضرائب والمكوس على تجاراتهم؟

وهل حضور اليهود في كتب النوازل واحتداد نقاشات الفقهاء حول بعض القضايا التي تخصهم يعني هذا تزايد المشكلات المرتبطة بهذه الفئة؟

– تلمسان مركز استقطاب حيوي لليهود:

كان اليهود منخرطين بصورة طبيعية في المجتمع الإسلامي الزياني، استقروا بتلمسان لتوفرها على مؤهلات تجارية واقتصادية، فهي مقصد التجار من جميع الآفاق[3]، إذ لابد للداخل والخارج الاجتياز بها[4]، عرف عن أهلها الإنصاف والإخلاص والأمانة في تجارتهم[5]، تقبل كل غريب بالوسع، كثيرة المَرْبا ممّا يأتي من الداخل والخارج، كثيرة الحرث والنسل والتجارة والحركات، مدينة قائمة بنفسها مستغنية عن غيرها من المدائن والحصون.[6]

ولما كانت على هذا القدر من الازدهار والتطور قصدها اليهود بل توافدوا باستمرار إليها، واستقروا بها في وقت مبكر في أحياء منظمة، بل كانوا أصحاب مكانة اجتماعية مرموقة، فقد ذكر ابن سعيد المغربي أحدهم عندما نزل بداره قاضي الجماعة أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مروان التلمساني (ت601هـ/1204م)، فخاطبه بقوله: «**يا إسرائيلي ديباركم نظيفة، وطعامكم طيب، وشرابكم رائق، ما أظنكم إلا على الحق**»[7]، وهو كلام يوحي بوجود عدد كبير من دور اليهود بتلمسان، كما وتدلّنا هذه المجاملة من قاضي الجماعة لصديقة اليهودي ما كانت عليه الحياة من ودّ بالغ بين الطائفتين، ولم تكن هناك حواجز في علاقة الطائفتين تحول بين تعايشهم اليومي وممارستهم سويا لطقوسهم المشتركة.[8]

استمر توافدهم بكثرة على الحاضرة الزيانية ونواحيها، فسكنوا في أحياء خاصة بهم سميت بـــ" **درب اليهود**"[9]، توزعت سكناهم مابين البادية والحاضرة[10]، مفضلين غالبا المناطق المتوفرة على المعادن والتي يوجه جزء كبير من إنتاجها إلى السودان.[11]

إذ لم يكن من قبيل الصدفة ولا من قبيل الاتفاق غير المقصود أن يقترن وجود التجمعات السكنية اليهودية بوجود المناجم المعدنية، كما أن مهارة استغلال المعادن لم تكن كذلك، فمن النادر أن يذكر اسم منطقة غنية بالمعادن دون أن يذكر إلى جانبها العنصر اليهودي.[12]

وصل تعداد مساكنهم بتلمسان حوالي خمسمائة دار، وينتمون تقريبا للطبقة الغنية[13]، تمتعوا بحقوقهم داخل تلمسان مقابل دفعهم للجزية، والتي قدرت بحوالي أربعة دنانير أو أربعون درهما بالوزن الشرعي.[14]

أنشطة اليهود الاقتصادية بالحاضرة تلمسان:

كان لليهود حضور واضح المعالم في المعاملات اليومية للمجتمع الزياني من بيع وشراء وربا[15]، بل توسعت تجاراتهم داخليا وخارجيا[16]، وفي هذا الصدد تقدم لنا رسائل التجار اليهود التي عُثر على عددٍ منها في جنيزة القاهرة معلومات مهمة عن ذلك، منها رسالة بعث بها اليهودي إسحاق بن يروخ المقيم بمدينة المرية إلى أبي سعيد خلفون بن نثنيل هاليفي المقيم بمدينة تلمسان في29 شوال 532هـ الموافق لـ 10-10-1138م، وفي الرسالة يتحدث فيها عن تسلمه كمية من النحاس المصقول بيعت في تلمسان، وهو من أكثر السلع التي نقلها التجار اليهود إلى الشمال الإفريقي، كما يتحدث عن أسعار الحرير بمختلف أنواعه، وأنَّ التوابل والشمع الفاسي الجيِّد والعشب الطبي من السلع التي كان يهود الأندلس يجلبونها من تلك البلاد.[17]

واشتهر من التجار أيضا التاجرين مردخان وشريكه سلول، اللذين جرت بينهما معاملات مالية خصّت تجارة الشمع المسبوك واللك والطرطار والعفص.[18]

ازدهرت تجارتهم الخارجية نتيجة التسهيلات والامتيازات التي حصلوا عليها من دولة آراغون، هذه الأخيرة أقامت علاقات نشيطة مع اليهود المنحدرين من أصل ميورقي والمقيمين في تلمسان، ففي عهد خايمي الملقّب بيوحنا الغازي[19](609ـ645هـ/1213ـ1276م) وظّف اليهود لتحقيق الخطة الإستراتيجية الامبريالية التي وضعوها للتغلغل سلميا في المغرب الأوسط، والسيطرة على شبه الجزيرة المغاربية بأكملها.[20]

وهؤلاء اليهود الذين ينحدرون من أصل ميورقي والمقيمين في تلمسان اعتبروا من قبل حاكم ميورقة دوما رعايا ميورقيين لما يدرّونه عليه من فوائد جمة مالية وسياسية وإستراتيجية للتغلغل أكثر فأكثر في شؤون الدولة الزيانية وديوانتها النشطة، ممّا مكّن هيمنة ميورقية على الجمرك التلمساني على حد تعبير الباحث عمر سعيدان.[21]

لكن هذا القول مبالغ فيه لأن جلّ المعاملات الأركونية الزيانية كانت تجارية بالأساس مستعينين في ذلك بالخبرة اليهودية، وهو ما أوردته لنا الوثائق التاريخية بالأرشيف الميورقي، من ذلك نص صدر بتاريخ 728هـ/1327م، يوضح لنا معاملات اليهود داخل الديار التلمسانية، حيث انصبّت وظيفتهم في إدخال تجارتهم وبضائعهم وتسليمها إلى مسلمين يعيشون في جهات بعيدة عن تلمسان وعن الساحل، ليحملها هؤلاء المسلمون بدون أن يدفعوا ثمنها، ثم يعودون بعد مدة ويعطون للباعة الإسرائيليين ـــ أصحاب البضائع ـــ قيمتها فضة أو بضائع أخرى ثمينة أو تحفا، وبهذا أصبحت السلع اليهودية موزعة ومفوضة في أماكن مختلفة من المغرب الأوسط، وكان هؤلاء التجار متصلين ومتعاقدين مع يهود آخرين بميورقة ويتولون ترويج بضائعهم.[22]

وفي هذا الصدد يؤكد ديفورك أنّ تجّار يهود تلمسان يرتبطون بكثير من العقود التجارية مع بني جلدتهم من يهود هذه الجزيرة (ميورقة)، حتى إنهم ربما إذا ما حدث وأن خسروا ممتلكاتهم فإن ذلك سيكون لا محالة ضربة قاضية لمجموع الطائفة اليهودية بميورقة.[23]

ويلخص ديفورك في ذات الصدد أهمية ذهب السودان وأهمية يهود مدينتي سجلمساسة وتلمسان قائلا: «إنّ سلطنات إفريقيا-بلاد المغرب-وبشكل خاص محور تلمسان -سجلماسة تكون منطقة تزود بالذهب، وبدونها ربما اختل توازن النشاط التجاري المتوسطي.»[24]

ومن الثابت أيضا أنّ نشاطهم التجاري لم يكن حكرا على المدن فقط بل تعداه للبوادي في تلمسان، ونستشف ذلك من فتوى سئل عنها قاسم العقباني تخص اليهود الذين يتاجرون في أنواع المتاجر سكنوا البادية منهم من تطول إقامتهم، ومنهم من يستقر لفترة مؤقتة،[25]في مقابل دفع 10% من المكوس للحكام الزيانيين.[26]

لم يقتصر حضورهم على التجارة الداخلية والخارجية بل نلمس تزايد دائرة امتيازاتهم داخل تلمسان لدرجة أن منهم من تولى مهمة تفتيش التجار القادمين إلى المدينة بما فيهم المسلمين، وحتى النساء يوكل بهن يهوديات يفتشنهنّ[27]، كما وصل الأمر ببعضهم من يهود الكبوس[28] أن يعفوا من أداء الجزية[29] بدون علم الإمام، لتقربهم إلى العامل بتلمسان في مقابل خدماتهم.[30]

ولقد وصلت صلاحيات اليهود بتلمسان إلى المتاجرة بشراء العبيد رجالا ونساء من أرض تلمسان، وإعادة بيعهم بعد ذلك في أي مكان من أراضي التاج الأراكوني، وقد أشار خايمي (1213- 1276م) إلى أن هؤلاء التجار توصلوا في نفس الوقت بالحق في استيراد بكل حرية

داخل ممالكه وأقاليمه كل سكان السلطنة الذين يقبلون عن طيب خاطر أن يساقوا ويتحولوا فيها إلى عبيد.[31]

وإذا ما دققنا في الوضع الداخلي لتلمسان وجدناها تئن تحت وطأة التحرشات المرينية، من ذلك حملة السلطان المريني أبي يعقوب(685-706هـ/ 1286-1306م) على تلمسان سنة 670هـ/1271م، وقيام قبائل بني توجين[32] التي كانت مناوئة للسلطة الزيانية باستغلال الفرصة في النهب والتخريب بتلمسان ونشر الفساد بالقرى المحيطة بها «... فقطعوا الثمار، ونسفوا الآبار، وخرّبوا الربوع، وأفسدوا الزروع، ولم يدعوا بتلك الجهات قوت يوم حاشا السدرة والدوم...»[33]

هذا الوضع تم استغلاله من قبل اليهود، الأمر الذي يجعلنا نقرّ بالرأي القائل بأن اليهودي يمتلك عادة القدرة على استخدام الضغوطات السياسية والمالية الملتوية لصالحه.

استمر نشاطهم الاقتصادي في تصاعد مستمر، ففي عهد أواخر الحكام الزيانيين ازداد تسلط اليهود داخل الجهاز المالي للدولة، فمنذ تولية الأمير عبد الواحد بن أبي عبد الله محمد بن أبي تاشفين (814-827هـ/1411م-1424م) الحكم اتّخذ منهم أعوانا له في إدارة الأمور المالية، فتبدّلت الأحوال واشتدّت الأهوال، واستطالوا على الرعايا، وامتدّت اليد العادية لمصادرة ذوي اليسار وأهل الفضل، واشتدّت الوطأة على الناس، وضاقت مذاهبهم، وافترقت أعيانهم بالنواحي.[34]

هذه الصورة القاتمة لليهود نقلها لنا الفقيه محمد بن عبد الكريم المغيلي[35] (ت909هـ/1503م) في أسوء صورها، إذ يقول في وصف حالهم:« فقد سألني بعض الأخيار عمّا يجب من الجزية والصغار، وعمّا عليه أكثر يهود هذا الزمان، من التعدي والطغيان والتمرد على الأحكام الشرعية بتولية أرباب الشوكة أو خدمة السلطان».[36]

هذه الجرأة المتمادية لليهود أغضبت شيخنا المغيلي، وجعلته يرفع صوته حازما لوضع حد لهذا التطاول، محملا إياهم عواقب التمرد على الأحكام الشرعية، وبما أنهم لم يرتدعوا عن تجاوزاتهم أصدر فتواه بتحليل دمائهم، ورفع وصف أهل الذمة عنهم قائلا:«لا شك أنّ اليهود المذكورين كيهود توات[37] وتَجْرَارين[38] وتافيلالت[39] ودرعة[40] وكثير من الأوطان بافريقية وتلمسان، قد حلّت دماؤهم وأموالهم ونساؤهم، ولا ذمة لهم.»[41]

بل زاد على ذلك «فكل يهودي تعلق بخدمة سلطان أو وزير أو قاض كبير فقد انتقض عهده»[42]

وبعد أن استنفد الشيخ المغيلي كل الوسائل والطاقات لدفع شر اليهود في تلمسان، قرر الخروج عنها، منددا بفساد حكامها وانعدام الاستعداد لديهم للنهوض بمصالح الرعية قائلا:

تلمســـان أرض لا تليق بحـــالنـــا ولكن لطْف الله نسأل في القضـــاء

وكيف يحبّ المرء أرض يسوســـها يهود وفجّار ومن ليس يـــرتضـــى[43]

كل هذه النداءات التي ناضل لأجلها المغيلي لم تلق صداها في مسقط رأسه، بل استمر تطاول اليهود على المناصب الحساسة في الدولة، فاشتغلوا في دور السكة، لذلك لم يسلم المسلمون من غش اليهود في تلك الحرفة، حيث قاموا بضرب عملة خارج دار السكة، وقاموا بترويجها، لهذا نجد بعض الفقهاء من يُحمّل اليهود جانبا كبيرا من المسؤولية (الغش)، كالمازوني الذي أرجع أسباب خروج الدراهم الناقصة من دار السك إلى التواطؤ مابين صاحب الفضة واليهود العاملين بدار السكة، نتيجة « قلة الضبط وغلبة الفساد».[44]

وإجمالا نتأكد بصدق قوة الحضور اليهودي في إدارة المعاملات الاقتصادية في المغرب عموما وتلمسان خصوصا، وتأكيدا لهذا القول قرّب لنا الفقيه أبا الفضل قاسم العقباني الصورة قائلا: «... زعمهم أنهم يخافون على أنفسهم وأموالهم إن ظهر عليهم زيهم الذي يعرفون به، وهم في **ذلك كذابون**، لما شاهدنا من حصول **الأمن القوي لهم** عند العرب، و**الحظوة الكبيرة** لما يرجون من حصول النفع منهم، فيرضى العربي أن يستأصل هو وجميع أهله في نجاة اليهودي الذي معه، فلم يبق إلا أنهم لّما **وجدوا السعة** عند من لا ينكر عليهم من جفاة العرب وطغاتهم تزيّوا بأفخر زي المسلمين، إذ كانوا لا يفعلون ذلك في الحواضر...، بل هم اليوم **على أعظم من ذلك**، جبر الله صدع الإسلام، فإنّ قلوب الملوك بيده.»[44]

– نتائج الدراسة:

– إنّ قراءة هذه المادة التاريخية التي تمدنا بها كتب التاريخ والنوازل الفقهية تكشف لنا بوضوح الوضع الممتاز الذي كان اليهود يتمتعون به واستحواذهم على نطاق واسع من عمليات البيع والشراء، بل تعدى الأمر إلى تقديم تسهيلات مالية للناس مقابل حصولهم على

الربا، كما أكدت لنا هذه النوازل ضرورة الحرص في التعامل التجاري معهم لأن معاملاتهم مشبوهة.

– تمتع اليهود بمكانة مرموقة في تلمسان، ويرجع الأمر في رأينا للدور الفعال الذي لعبه اليهود في المجال الاقتصادي كالصناع الذين يشتغلون بدور السكة أو المتخصصين في صناعات وحرف معينة كالصياغة أو التجارة، فكان صعبا على السلطة أن تفرض عليهم قيودا أو تهدد مصالحهم، وهو ما جعلنا نقرّ برأي برودويل القائل بأن اليهودي يمتلك عادة القدرة على استخدام الضغوطات السياسية والمالية الملتوية التي يحسنها ويجيدها في سبيل بقائه واستمراريته بالرغم من عداء بعض الفقهاء لهم.

– تؤكد لنا فتاوى الفقهاء من خلال كتب النوازل خطأ القول بفكرة انعزال اليهود بل نراهم مندمجين داخل المجتمع الزياني، ممّا يعطينا انطباعا أن ثمّة علاقة ما بين المسلم واليهودي طبعها التكامل والتعايش حينا، وعليه نتأكد أنّ أحياء اليهود كانت مفتوحة لهم ولغيرهم.

I–خريطة توضح تجمّعات الطوائف اليهودية في بلاد المغرب مع بداية الدولة الموحدية، محمد الغرايب، اليهود في مجتمع المغرب الأقصى الوسيط، ص20I.

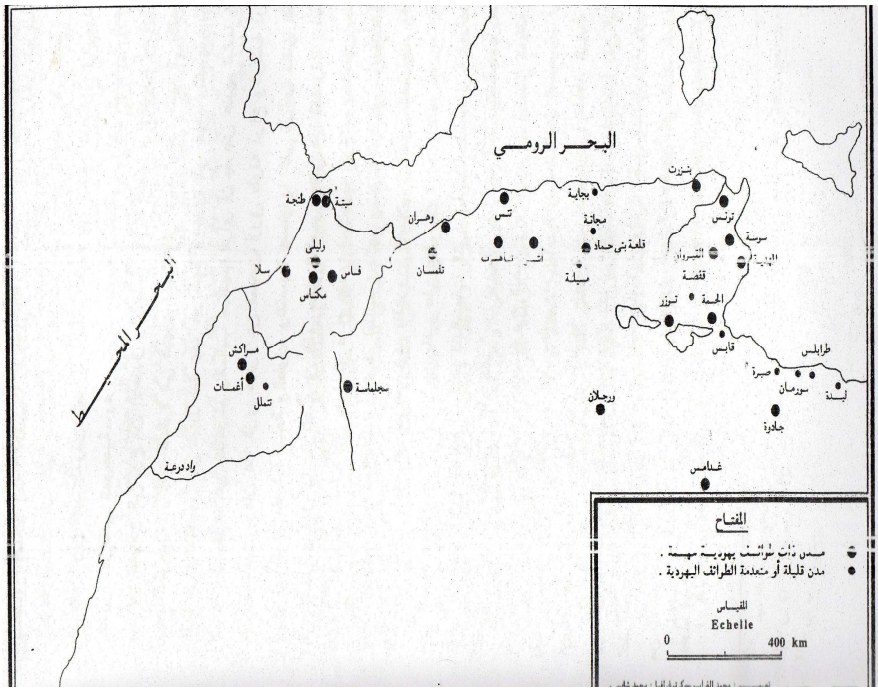

2–خريطة توضح الطرق التجارية التي استعملها اليهود في العهد المريني، محمد الغرايب، المرجع نفسه، ص227.

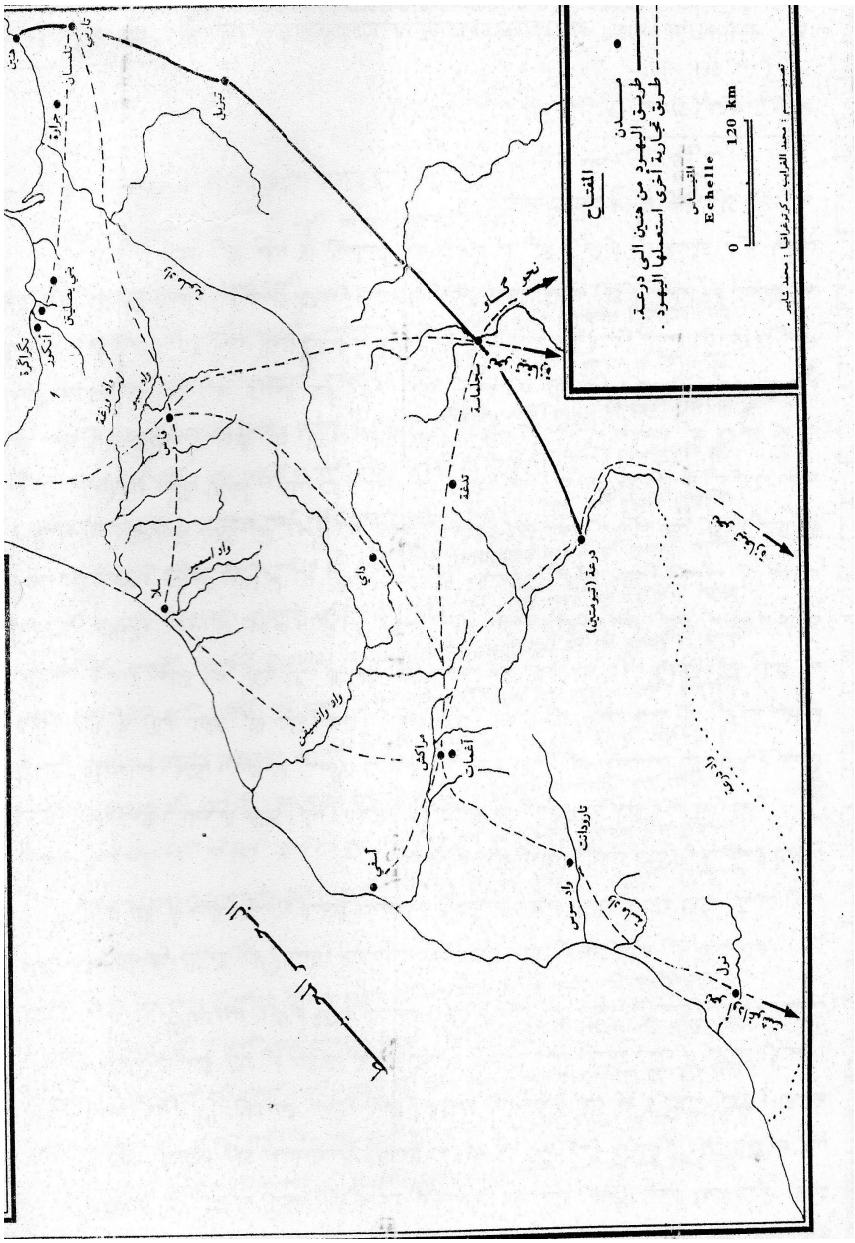

–الهوامش:

1- عمر سعيدان، علاقات اسبانيا القطلانية بتلمسان في الثلثين الأول والثاني من القرن الرابع عشر ميلادي، دراسة ووثائق (رسائل ومعاهدات) وتعاليق وتحاليل، منشورات سعيدان، الجمهورية التونسية، نوفمبر، 2002م، ص39. الظاهر أن المغاربة المسلمين هم الذين هيئوا الفرصة أمام اليهود كي يحتكروا هذه المهنة تبعا لاعتقاداتهم الدينية، فحسب شهادة الحسن الوزان « لا يمكن لأي مسلم أن يمارس مهنة صائغ، إذ يقال أن بيع المصوغات الذهبية والفضية بثمن أعلى مما يساويه وزنها يعتبر ربا، ولكن الملوك يسمحون لليهود بالقيام بهذا العمل». انظر الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي، ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط3، 1983، 283/1.

2- في هذا الصدد يؤكد ابن الصباح في رحلته هذا الطرح بقوله: « ما رأيت في أسفاري يهودا حراثين إلا في بلاد العناب فلاحون يحرثون ويحصدون ويدرسون ويخزنون شيء عجيب»، أنساب الأخبار وتذكرة الأخيار، رحلة المدجن الحاج عبد الله بن الصباح، هذبها محمد بنشريفة، ط1، 2008، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، ص103، ويرجع برودويل سبب تخلي اليهود عن الزراعة إلى أن بحثهم الدائم عن موطئ قدم لهم نشرَهم بالضرورة في كل مكان، ممّا جعلهم يديرون ظهورهم للأرض وزراعتها فأصبحوا ممولين وتجارا ومرابين وأطباء وحرفيين وحائكين. انظر فرنان برودويل، المتوسط والعالم المتوسطي، تعريب مروان أبي سمرا، ط1، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1993، ص143.

3 البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د ت، ص77.

4 الإدريسي، صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، تح محمد صادق، د ط، د ت، ص103.

5 الحسن الوزان، وصف إفريقيا،21/2.

6 ابن الصباح، أنساب الأخبار وتذكرة الأخيار، ص95.

7 ابن سعيد الأندلسي، الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة، تح إبراهيم الأبياري، القاهرة، دار المعارف، مصر، د ت، ص33.

8 محمد الغرايب، اليهود في مجتمع المغرب الأقصى الوسيط من القرن 2هـ إلى القرن 9هـ (القرن 9م ــ 14م) دراسة تاريخية اجتماعية، أطروحة دكتوراه دولة في الآداب، تخصص التاريخ، ج1، جامعة سيدي محمد بن عبد الله كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهراز، فاس، 2000 ــ 20001، ص214.

9 ابن مريم التلمساني، البستان في ذكر الأولياء بتلمسان، نشرة محمد بن أبي شنب، المطبعة الثعالبية، الجزائر،1908، ص 269 –270. إن الزعم الرائج عن انعزال اليهود في أحياء خاصة نتيجة المعاملة الاجتماعية السيئة ليس له سند تاريخي، ومسألة التجمع في الأصل ضرورة اجتماعية أكثر مما هي رد فعل لليهود على المعاملة السيئة التي يتعرضون لها، وهي ميزة خاصة يتميزون بها في كل المجتمعات التي عاشوا بينها.للمزيد راجع، مسعود كواتي، اليهود في المغرب الإسلامي من الفتح إلى سقوط دولة الموحدين، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص102-104.

10 المازوني، الدرر المكنونة في نوازل مازونة، مخطوط بالمكتبة الوطنية بالحامة، ج 1/ ورقة 194 أ.

11 عمر سعيدان، علاقات اسبانيا القطلانية بتلمسان في الثلثين الأول والثاني من القرن الرابع عشر ميلادي، ص39.

12 في هذا الصدد يقدم لنا الدكتور محمد الغرايب أدلة تاريخية حول نبوغ اليهود في الحرف القائمة على الإنتاج المعدني كالصاغة ولعل من أهمها الحلي وصناعة الذهب والتفنن فيه خاصة في صناعة خيوط الذهب المعروفة بالصقلي، وآلات الحرب، وصناعة النحاس وتحويله خاصة إلى أدوات كأبواق اليهود وأنابيب جرّ المياه داخل الأحياء والمساجد، وإنتاج الأساور والخواتم والسبائك المرصودة للتصدير، وأدوات الزينة وغير ذلك. أنظر، المرجع نفسه، ص144 ــ 150.

13 الحسن الوزان، وصف إفريقيا، 2/ 20.

14 المازوني، الدرر، ج 1، ورقة 194 ــ أحمد بن يحي الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي علماء إفريقية والأندلس والمغرب، تح محمد الحجي وآخرون، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1401هـ- 1981م، 253/2.

15 ابن مرزوق الحفيد، نوازل ابن مرزوق الحفيد، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية تحت رقم 1342، ورقة رقم12- الونشريسي، المعيار، 244/5.

16 المازوني، المصدر نفسه والصفحة نفسه.

17 -S, D Goitein : A Mediterrananean Society The Jewish comunities Of The World As Portrayed In The Documents Of The Gairo Geniza, Volume 1- Economic, Fondations, London., P.259-263

18 المازوني، ج2، ورقة 19أ.

19 خايمي الأول: ملك الأراغون والكطلان، تولى الحكم تحت الوصاية وعمره 9 سنوات، لكن بعد بلوغه العشرين من عمره استطاع أن يعيد السلام لبلاده سنة 1227م، متوسعا نحو أراضي الإسلام منها بلنسية والجزر الشرقية التي استرجعها ما بين سنتي 1229 م و1232م، كما توسع نحو ثغر حيفا بفلسطين ن كانت وفاته في 27 يوليوز من سنة 1276م بعد حكم طويل وسع فيه رقعة مملكته أراغون على حساب الأراضي الإسلامية وهو ما جعله يلقّب بحق يوحنا الفاتح Jean le conquérant . للمزيد حول توسعاته أنظر، عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، ط2، العصر الثالث، القسم الثاني، القاهرة، 1964، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1990، ص402 ــ 409.

20 عمر سعيدان، علاقات اسبانيا القطلانية بتلمسان في الثلثين الأول والثاني من القرن الرابع عشر ميلادي، ص 42 ــ 43.

19 المرجع نفسه، ص42. من المؤكد أن العلاقات التلمسانية الأراكونية كانت تجارية في أغلبها نظرا لأهمية موقعها المتوسط في المنطقة، ولنشاط الخط التجاري الصحراوي الواصل عبر واحة توات وعبر سجلماسة إلى تلمسان ومدنها الساحلية، ولا يتضح ما إذا كان الملوك الأراكونيون تمكنوا من فرض ضريبة على أمراء تلمسان، وعليه يؤكد الدكتور أحمد عزاوي أنه على الرغم من المفاوضات الطويلة ما بين الأراكونيين والزيانيين خلال العقد الثالث من القرن الثامن الهجري لم يقبل الزيانيون شروط أراكون لا المالية ولا المتعلقة بتسريح الأسرى النصارى. أحمد عزاوي، علاقات السلم والتجارة بين الغرب الإسلامي وأوروبا المتوسطية، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن طفيل، القنيطرة، العدد1، 1997،ص13 ــ 14.

21 عمر سعيدان، المرجع نفسه، ص42.

22 CH . Dufourq : L’Espagne catalane et le Maghrib aux XIIIe et XIVe siècles ,paris ,1966, p143 ــ محمد الغرايب، اليهود في مجتمع المغرب الأقصى الوسيط، ص229.

23 CH . E. Dufourq : L’Espagne catalane et le Maghrib aux XIIIe et XIVe siècles ,op,cit, p143

24 المصدر نفسه، ص137 ــ 138 ــ محمد الغرايب، المرجع نفسه، ص229.

25 الونشريسي، المعيار،253/2.

26 مارمول كربخال، إفريقيا، ترجمة محمد حجي وآخرون، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1989،2/ 302.

27 ابن مرزوق، المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، تح ماريا خيسوس بيغيرا، الشركة الوطنية للنشر التوزيع، الجزائر، 1981، ص285.

28 يهود الكبوس، الكبوس لباس لليهود يختصّ به من كان أصله من أرض النصارى، ويتكون من ملف له ذؤابة من وراء القفا وزنار من ملف أيضا في الغالب. انظر، العقباني، تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر، حققه ونشره علي الشنوفي في مجلة Bulletin ’études orientales ، العدد 19 سنة 65-1966، ص171.

29 هذا التهرّب من قبل اليهود لأداء الجزية بأساليب غير شرعية مثل رشوة العامل الذي يقوم بجمعها نجدها عند يهود توات أيضا، وهذا الأمر عالجه الفقيه أبو الفضل قاسم العقباني معتبرا إياه ضررا دينيا بقدر ما هو ضرر اقتصادي، لأنه يعطي الفرصة لهذه الطائفة ليكونوا على قدم المساواة مع المسلمين فتسقط الحكمة من مشروعيتها، لكن الفقيه العصنوني ذهب إلى أنهم يعطون الجزية للأشياخ أي أن ارتباطهم برؤساء القبائل التي يقطنون تحت سلطتها الجغرافية وليس بالسلطة المسؤول عن الجباية، وذلك في الأعياد وسائر النوائب وسائر ضيافات العرب، وعليه وقع الخلاف بين الفقهاء حول مقدارها لأن اليهود لم يلتزموا بالشرعي منه، وإنما يقدمون المقدار الذي يتوافق مع ظروفهم الخاصة أو الظروف العامة في المغرب الأوسط. العقباني، تحفة الناظر، ص158- الونشريسي، المعيار، 217/2 ــ سناء عطابي، واقع اليهود في المغرب الأوسط من خلال النصوص الفقهية المالكية، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، العدد12، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، 2011، ص176 ــ 177.

30 محمد العقباني، المرجع نفسه، ص157- 158.

31- CH . E. Dufourq : L’Espagne catalane et le Maghrib aux XIIIe et XIVe siècles ,op,cit, p139..233 ــ الغرايب، المرجع السابق، ص

32 قبائل بنو تجين: هي إحدى القبائل البربرية الزناتية التي سكنت بلاد المغرب، وهي بطن من بطون بني واسين الزناتين، وهي تعدّ من الطبقة الثانية من زناتة على حد تعبير ابن خلدون، اشتهرت بفرعيها بنو بادين وبنو ورتاجن، ومن بني بادين كان بنو توجين، إضافة إلى بني عبد الواد وبني برزال وبني زندان. للمزيد انظر ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبطه خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، لبنان، 2000، 205/5-214.

33 ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك الغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة الورقية، الرباط 1972، ص131-132ــ ابن الأحمر، روض النسرين في دولة بني مرين، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، ط 2، الرباط: المطبعة الملكية، 1411-1991، ص66.

34 ابن الأعرج السليماني، محمد بن محمد، زبذة التاريخ وزهرة الشماريخ، مخطوط بالخزانة الحسنية، تح مختار حساني، ط1، منشورات الحضارة، الجزائر، 2009، ص 146.

35 ــ الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي: الإمام العالم العلامة الفهامة، خاتمة المحققين، القدوة الولي الصالح السني، أحد الأذكياء المتقدّمين في الفهم وقوة الإدراك، مع فرط المحبة للسنة والشريفة ونصرتها، وبغض أعدائها، وهو الذي اشتهر بمواجهته ليهود توات، من مؤلفاته: البدر المنير في علم التفسير، تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلاطين، وأسئلة أسكيا وأجوبة المغيلي، وأحكام أهل الذمة، ومصباح الأرواح في أصول الفلاح، وتأليف فيما يجب على المسلمين من اجتناب الكفّار، وشرح بيوع الأجل من كتاب ابن الحاجب، توفي سنة 909هـ/1505م. ابن مريم، البستان، ص253ــ 275ــ التنبكتي، كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، ضبط النص وعلق عليه أبو يحي عبد الله الكندري، ط1، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان،، 2002، 455ــ 457 ــ بوغرارة نبيلة، محمد بن عبد الكريم المغيلي مساهمته في الثقافة الإسلامية في غرب إفريقيا (823 ــ

909هـ/1417ـ 1503م)، ماجستير جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، 2002 ـ 2003م، ص ص203 ـ 230 .

36 ـ الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني، فتاوي العلماء حول نازلة يهود توات، تحقيق وتقديم أ. مبروك مقدم، تقديم بو عبد الله غلام الله، مجلد 5، وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، إصدار تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية، طبع دار القدس العربي، 2011، ص151 ـ محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي، رسالة في أحكام أهل الذمة، مخطوط من موقع مكتبة المصطفى الالكترونية www.al-mostafa.com، ورقة رقم 91 أ.

37 -توات: هناك اختلاف في مدلولها لكن المرجح أنها اسم بربري، يقع هذا الإقليم بالجنوب الغربي للجزائر، يحده من الشمال العرق الغربي الكبير وواد مقيدن، ويحده من الجنوب صحراء تزروفت وواد قاريت وجبال مويدرا، كما يحده من الشرق العرق الشرقي الكبير المحاذي لواد الماية، ويحده من الغرب وواد الساورة وروافده. فرج محمود فرج، إقليم توات خلال القرنين 18 ـ 19م، المؤسسة الوطنية للكتاب وديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1977، ص 3 وما بعدها ـ وللمزيد حول هذه التسميات ودلالتها، حاج أحمد نور الدين، المنهج الدعوي للإمام المغيلي من خلال الرسائل التي بعثها للملوك والأمراء والعلماء، مذكرة لنيل الماجستير تخصص الدعوة والإعلام، كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية، باتنة، 2010 ـ 2011، ص 17 ـ 23.

38- تَجْرَارين: تقع شمال توات، معناها موقع بناء الخيم، سكنها اليهود الأغنياء، لكنهم تعرضوا للطرد والنهب والتقتيل من طرف السكان والفقهاء. أنظر، الوزان، وصف إفريقيا، 134/2 ـ محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني، فتاوي العلماء حول نازلة يهود توات، هامش ص181.

39- تافيلالت: مدينة مغربية كان لها شأنا كبرا خلال القرون الوسطى، قريبة جغرافيا من الساقية الحمراء ووادي الذهب بالجمهورية العربية الصحراوية سابقا. محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني، فتاوي العلماء حول نازلة يهود توات، هامش ص181.

40 - درعة: إقليم يبتدئ عند الأطلس ويمتد جنوبا على مسافة نحو مائتين وخمسين ميلا عبر صحراء ليبيا.الحسن الوزان، وصف إفريقيا، 118/2.

41 - محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي، فتاوي العلماء حول نازلة يهود توات، ص 181 ـ محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي، رسالة في أحكام أهل الذمة، ورقة رقم 91 أ ـ بوغرارة نبيلة، المرجع نفسه، ص70.

42 - محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي، المصدر نفسه، ورقة رقم 92 ب ـ بوغرارة نبيلة، المرجع نفسه، ص218.

43 بوغرارة نبيلة، المرجع نفسه، (نقلا عن مصباح الأرواح)، ص 69.

44 - المازوني، الدرر، مج1/ورقة 515 ب. لم يستغل اليهود فقط غياب السلطة في الغش فقط، بل تمادت أفعالهم لترويج السحر مستغلين الأماكن البعيدة عن جهاز السلطة والقضاء، وفي هذا الصدد يذكر الونشريسي في نازلة سئل عنها أبا الفضل العقباني، ويدور محتواها حول ظهور ساحر يهودي بقلعة هوارة من أعمال تلمسان سنة 849هـ/1445م هل يستحق القتل جراء أفعاله الشائنة وقيامه بسب المسلمين بأن لا حسب لهم ولا نسب لهم، ورغم أن الإجابة تراوحت ما بين الضرب الموجع، والسجن الطويل، وغيرها من العقوبات التي لا يكون الهدف منها القتل، ممّا يفتح مجالا للتساؤل عن وجود السلطة السياسية (الولاة) والسلطة الإدارية (القضاة والمحتسبة) ودورها في زجرهم ومنع تطاولهم على المسلمين، ويبدو أن هذا اليهودي لم يجد الرادع عن هذا العمل فتمكن من إطلاق الحرية لممارساته وأفعاله. الونشريسي، المعيار،399/2 ـ سمية مزدور، المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط من أواخر القرن السادس الهجري إلى أواخر القرن التاسع الهجري، جامعة منتوري، قسنطينة،2010 ، ص194 - سناء عطابي، واقع اليهود في المغرب الأوسط من خلال النصوص الفقهية المالكية، ص 178.

44- الونشريسي، المعيار، 249/2-248.

تطور التصوف الإسلامي

أ.ة/ بعارسية صباح
جامعة خميس مليانة

إن الحديث عن التصوف شائك ومتشعب، فقد أسال كثيرا من الحبر سواء من المسلمين؛ فقهاء كانوا أو متصوفة، أو من المستشرقين الذين رأوا فيه جوهر الإسلام. ومن أسلم من الغرب في القرن الماضي إنما أسلم بعد اطلاعه على سير المتصوفة، وفلسفتهم الدينية، وعلاقاتهم بخالقهم. فكيف تطور التصوف حتى أصبح محل اهتمام الغرب، وهدفا مطاردا من علماء السلفية؟

التطور المنهجي:

I) تطور التصوف كمنهج للحياة:

كان التصوف في بداية أمره عبارة عن الزهد في الدنيا، والتفرغ للعبادة ومجاهدة النفس، وحملها على الأخلاق الجميلة[1]. فالزاهد لم يكن في القرن الأول الهجري/السابع الميلادي غير عابد، يجعل الرياضات الشديدة في صدر اهتماماته كوسيلة لإرضاء الحاكم الأعظم يوم الحساب، وضمان السعادة الدائمة في الآخرة[2].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية مبينا رأيه في متقدمي الصوفية: "والصواب أنهم مجتهدون في طاعة الله كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله، ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده، وفيهم المقتصد... وفي كل من الصنفين من قد يجتهد فيخطئ، وفيهم من يذنب فيتوب، أو لا يتوب، ومن المنتسبين إليهم طوائف من أهل البدع والزندقة"[3].

ثم جاء أقوام بعد هؤلاء فتكلموا في الجوع، والفقر والوساوس والخطرات كالحارث المحاسبي(165هـ-243هـ/781-857م)[4]. ثم جاء آخرون فميزوه بصفات كلبس المرقعة والسماع والوجد والتصفيق... ثم تفرقوا بعد ذلك فمنهم من قال بعشق الحق[5]، ومنهم من قال بالحلول[6]، ومنهم من قال بالاتحاد،[7] ومنهم من قال بالوصول[8].

2) تطور التصوف كطريقة:

أول صوفي وضع نظام الطرق هو محمد أحمد الميهمي(ت 430هـ/1038م) المعروف بأبي سعيد. أقام في بلدته نظاما للدراويش، وبنى خانا بجوار منزله للصوفية، وجعل نظام تسلسل الطريق عن طريق الوراثة، وهو أول من كتب في طريقة التربية الصوفية[9].

و لم تكن الطريقة في البداية سوى مجموعة من الطقوس كان يقوم بها المتصوفة كتدريب روحي تحضيرا للحياة العامة داخل الطرق، وكان معناها مبهما لكنها بدأت في البروز مع نصوص جنيد والحلاّج... وهي عبارة عن طريقة نظرية مثالية، تتمثل في قيادة دعوة ربانية عبر طريق معلوم (مقامات، أحوال،...) للوصول إلى الحقيقة الإلهية [10]. وهكذا التف المريدون حول شيخ تبنوا طريقته وعملوا بإرشاداته[11].

وفي القرن 6هـ/12م ظهرت مجموعة من رجال التصوف تقول أنها من نسل الرسول صلى الله عليه وسلم، واستطاع كل منهم أن يقيم طريقة صوفية خاصة وأتباعا[12].

غير أن المنعرج الحاسم الذي أدى إلى بروز الصوفية حدث في القرنين 6 و7هـ/12 و13م والذي منح للمسلمين، الذين كانوا يعانون من عدم الاستقرار السياسي وتقلبات الأوضاع، ملجأ وجدوه في الطرق الدينية، ومنذئذ سُمي عناصرها بالدراويش أو الاخوان[13]. وهناك من يرى أن التحالف بين أهل التصوف وأهل السنة راق كثيرا من المسلمين، وزاد انتشار التصوف والطرق الدينية، وأدى إلى قبول تقديس الأولياء لدى أهل السنة [14].

التطور الفكري (تطور التصوف كعلم):

إن التصوف الإسلامي تطور من الزهد وازدهر إلى أن انبثق منه الفكر الصوفي[15]. كيف ذلك ؟

أشار القشيري إلى هذا التطور، حيث ميز البدايات الأولى لظهور حركات الزهد وما تلاها من تطور أدى إلى ظهور الصوفية قائلا: "إن المسلمين بعد رسول الله ﷺ لم يتسم أفاضلهم، في عصرهم، بتسمية علم سوى صحبة رسول الله – ص- ... ثم اختلف الناس وتباينت المراتب، فقيل لخواص الناس ممن لهم شدة عناية بأمر الدين الزهاد والعبّاد، ثم ظهرت البدع وحصل التداعي بين الفرق، فكل فريق ادعى أن فيه زهادا،... وتسموا باسم الصوفية، واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة"[16]. وتفصيل هذا ما يلي:

I) الزهد:

هو بغض الدنيا والإعراض عنها أو ترك راحة الدنيا طلبا لراحة الآخرة[17]. وأول من تحدث عن التصوف كزهد وليس كعلم هو الحسن البصري (ت 110هـ/728م) الذي درَسه، لكنه لم يؤلف فيه. ثمانون سنة بعد وفاة الرسول ﷺ، ثم جاء أقوام آخرون مئة سنة بعده ألفوا عن التصوف كالحارث المحاسبي من بغداد[18].

وقد كانت العبادة والزهد السمتين الغالبتين في المجتمع الإسلامي في عهدي الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين. يقول ابن سينا عن هذه المرحلة: "المُعرض عن قناع الدنيا يُخص باسم الزاهد، وهذه هي المرحلة الأولى التي يسلكها الإنسان فيعرض كلية عن الأهواء والشهوات، فضلا عن الزهد فيما أحله الله، ولا يأخذ من الدنيا إلا ما يقيم أوده ويساعده على استمرارية الحياة..."[19]

وقال الثوري: "الزهد هو قصر الأمل، وهو جامع لجميع الشهوات فإن من يميل للشهوات يحدث نفسه بالبقاء فيطول أمله، ومن قصر أمله فكأنه رغب عن الشهوات كلها"[20].

لكن ليس كل الصوفية يعتزلون الحياة، ويعرضون عن مباهجها، بل هناك من يلقي بنفسه في تيارها الجارف العاصف، ويصارعها بخيرها وشرها حتى ينتصر على غواياتها، ويخوض التجربة بكل أبعادها ثم يخرج منها طاهرا نقيا، وفي نفس الوقت يملك كل أسباب الغنى والثراء ولكنه يزدريها، فهو زاهد عن قوة وتملّك. فالزهد هو أن تكون معرضا عما تملك لا أن تكون معرضا عما لا تملك، والزاهد من لا يملكه مع الله سبب [21].

وقد يتخطى الزاهد مرحلة الزهد لينتقل لطور آخر، بالمواظبة على نفل العبادات من القيام والصيام... فيصبح عابدا حيث يواصل رحلة الجهاد النفسي والجسمي بالمداومة المستمرة على العبادات بأنواعها، ليس المفروضة فقط، بل المندوبات، إذ يستطيع التقرُب بها إلى الله، ويستغرق فيها كلية، ويصبح قلبه مرتبطا بها.[22]

2) التصوف الفلسفي:

قد يتوقف العابد عند هذه المرحلة، وقد يظل في المجاهدات الصوفية، والعروج الروحي بواسطة عقله، ويحتاج إلى التأمل والتفكير، بعد أن تحرر كلية من أدران الجسد ووساوس النفس، والنظر إلى ملكوت السموات والأرض، فيسمى العارف؛ أي الذي عرف ربه حقيقة،

فلازم المقام الإلهي. يقول إبن سينا"... والمنصرف بفكره إلى قدس الجبروت مستديما لشروق نور الحق في سرّه يختص باسم العارف"[23]

فالمتصوف في طريق المجاهدة، يقبل بالكلية على الله حتى يتلاشى وجوده، ولا يشعر بذاته، وتنمحي فرديته ويتحقق له الفناء[24] المطلق في الذات الإلهية؛ أي انمحاء إرادته في إرادة المطلق. ويرى ابن العربي وجوب ستر هذا الفن من الكشف والعلم عن أكثر الخلق لما فيه من العلو: فغوره بعيد والتلف فيه قريب، والرسول ﷺ قال"خاطبوا الناس على قدر عقولهم"[25]، فكل يخاطب على قدر فهمه لأن الله جعل في الألفاظ والأدلة سعة[26].

كما تميز التصوف في هذه المرحلة بصفات: كلبس المرقعة، والسماع والوجد والتصفيق... ثم سموه علم الباطن، وجعلوا علم الشريعة هو علم الظاهر. وقد وضع ذو النون المصري (توفي 246هـ/860 م) تعريفات للوجد والسماع والتوحيد..."ثم تفرقوا، فمنهم من قال بعشق الحق سبحانه، والهيمان فيه، ومنهم من قال بالحلول، ومنهم من قال بالاتحاد..." [27].

كما ذهب بعض المتأخرين إلى القول بالكشف، أي كشف الحجاب والمدارك التي وراءه، متأثرين بالإسماعلية[28]، كما تكلموا عن القطب.[29]

واختلفت طرق الرياضة في ذلك باختلاف تعليمهم في إماتة القوى الحسية وتغذية الروح العاقل بالذكر حتى يحصل للنفس إدراكها[30].

ومنه يمكن القول أن الزهد هو ترك الدنيا خوفا من الحساب، والتصوف هو الإقبال على صفاء النفس لتتصل بالله. فغاية الزاهدين هي السلامة، وغاية الصوفية هي الوصول. فالزاهد يخاف الدنيا لأنها قد تبعده عن الجنة، والصوفي يخاف الدنيا لأنها قد تشغله عن الله. وهذا الفرق فرض صرف، حيث لا حدود واضحة تفصله عن التصوف، فالعبَاد كانوا يسمون زهادا ونساكا في العهد الأول، ثم سُموا صوفية عندما كثر الاهتمام بدرس أسرار القلوب[31]. وأضحت طاعة الله والخوف من عذابه في المقام الثاني، وحُب الله والاتحاد معه هو هدف الصوفي[32]. لهذا يرى بعض المتصوفة أن العبادات تصبح غير ذي جدوى بعد أن يرتقوا درجات التصوف، ويرى آخرون أنها غير ضرورية لأن المتصوف الذي وصل لدرجات عالية غير ملزم بها[33]، وتحل له كل المحرمات من خمر و زنى[34]. إلا أن الفقهاء رفضوا هذه الآراء؛ كالفناء عن الذات، واعتبروا أن البقاء مع الذات والمشاهدة [35] هي أعلى المراحل. ويقارن هؤلاء

المتصوفة الفلاسفة بين حال موسى-عليه السلام- حينما فنى عن نفسه وخر من الجبل، لكن نحن نعلم أن الرسول ﷺ ثبت وبقي في المعية الإلهية عند سدرة المنتهى ليلة المعراج.

3) التصوف السني:

التصوف السني يتكون من ثلاثة عناصر أساسية [36]: الشريعة والطريقة والحقيقة:

فالشريعة التي هي الأصل، هي أحكام الله في الأوامر النواهي.

والطريقة التي هي الفرع، هي العمل بالشريعة.

والحقيقة التي هي الثمرة هي فهم أسرار الأشياء، ومن ذلك الاطلاع على قبول الأعمال الخيرية بواسطة الشعور بانشراح الصدر واللذة عند مباشرتها، وكذا الفراسة. لهذا لقب المتصوفة بأهل الحقيقة لوصولهم لمعرفة الله الحقيقية [37] حيث يقول الصوفية أن الحقيقة هي العلم الذي ذكره الرسول ﷺ في حديثه: "من عمل بما علم ورَثه الله علم ما لم يعلم"[38]

فالعمل هو الطريقة، والعلم هو الشريعة، والعلم الموروث، هو الحقيقة، وهي التي ذكرها الله – تعالى- في قوله :"واتقوا الله ويعلمكم الله"[39]، فلا وسيلة إلى هذا العلم الموعود به في الآية سوى فيض الله العلي القدير، ولا سبيل إليه إلا بالتقوى[40] .

والشريعة لا تخالف الحقيقة بل الحقيقة عين الشريعة لأن هذه جسم و روح. فجسمها علم الأحكام وروحها الحقيقة[41].

لهذا، لما انساق الناس وراء المتصوفة ورفعوهم إلى مصاف الشهداء، كان لا بد من إيلاج التصوف في السنة ووضع حد لانزلاقات المتصوفة، فكتب رجال من أهل التصوف في الورع، ومحاسبة النفس على الاقتداء في الأخذ والترك، مثل القشيري في كتابه "الرسالة" والسهروردي في كتابه "عوارف المعارف"، والغزالي في كتابه "الإحياء". وهكذا صار علم التصوف في الملة علما مدونا بعد أن كانت الطريقة عبادة فقط، وأحكامها تتلقى من صدور الرجال[42].

التطور الحركي التاريخي:

I) في الزمان:

تم الانتقال من الزهد إلى التصوف بطريقة غير محسوسة نحو أواخر القرن الأول الهجري/أوائل القرن 8 م، وبداية القرن الثاني الهجري[43]، والمعروف قبل ذلك، أنه كان عبارة

عن صفات مأخوذة من أفعال أصحابها: كالزهد، والعبادة والعبَاد، التنسك والمتنسكين، وهلم جرا.... و السبب يعود إلى أمرين:

الأمر الأول: أن عصر الرسول ﷺ كان عصر صحبة، والصحبة النبوية لها حرمتها وجلالها، فمن غير اللائق أن يتصف الصحابي بصفة أخرى غير صفة الصحبة الطاهرة.

الأمر الثاني: أن الدين الإسلامي كان على عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين متبلورا في جيلهم وزمانهم برُمته، فلم تظهر صيغة التصوف، وما يتصل بها إلا بعدما انتشرت الفتوحات الإسلامية، واتسعت رقعة أرض المسلمين، واختلط العرب بالعجم، وعرِبت كتب فلاسفة اليونان و أدباء الفرس. فبلبلت أفكارها عقول المسلمين وجنحت بهم إلى كثرة التشكيك[44]، فظهرت البدع في مختلف المعتقدات، غذتها المعتزلة والرافضة والخوارج[45]، كل يدعي الزهد في الدنيا. في حين اندفع الفقهاء إلى الاهتمام بعلوم الدنيا؛ كأحكام المعاملات والعبادات للفوز بمناصب الفتوى، فتطور فقه الظاهر وكثرت العناية به[46].

يرى ابن تيمية أن أول ما ظهرت الصوفية من البصرة، وأول من بنى ديرة الصوفية أصحاب عبد الواحد بن زيد من أصحاب الحسن. وقد كان بالبصرة من المبالغة في الزهد والعبادة والخوف... ما لم يكن في سائر أهل الأمصار، ولهذا كان يقال: فقه كوفي، وعبادة بصرية[47]. من أمثلة هذه المبالغة حكاية من مات أو غشي عليه في سماع القرآن؛ كقصة زرارة بن أوفى قاضي البصرة فإنه قرأ في صلاة الفجر" فإذا نقر في الناقور"[48] فخر ميتا... حيث كان فيهم طوائف يصعقون عند سماع القرآن، و لم يكن في الصحابة من هذا حاله [49].

ولما فشى الإقبال على الدنيا في القرن 2هـ/8 م، وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والتصوف[50].

وبرزت الحركة خلال القرن 2هـ/8 م مع سلوك رابعة العدوية، ثم أبي يزيد طيفور الفارسي.... خصوصا بإغراء بغداد للعلماء والمفكرين في نهاية ذلك القرن، والنشاط الشديد الذي اتخذته المناقشة في مسائل العقيدة والشريعة في كل المشرق الإسلامي، وازدهر التصوف ونمت مبادؤه[51].

وفي القرن 3هـ/9م تنظم التصوف[52]، حيث أصبح ما يمارسه الصوفي، وبدأ يتسرب شيئا فشيئا إلى مواعظ العلماء الذين يميلون للتصوف، وتكونت في هذه المجالس في ذلك القرن مجامع

الأخبار والنوادر الأولى عن التصوف الإسلامي. كما أن للمتكلمين والفقهاء مذاهبهم التي تختلف بعض الاختلاف من حيث الطرق والوسائل دون أن تختلف في الجوهر، كذلك لدى كبار الصوفية مريدوهم وطرقهم. وقد واجهت حركة التصوف معارضة من هؤلاء وأولئك، وأحيانا من السلطة المركزية، لكنها لم تتوقف عن النمو والانتشار[53].

ثم تحولت الحركة إلى تيار فكري في القرنين 3 و4 هـ/9 و10 م مع الحلاج[54]، صاحب نظرية الحلول (توفي 309هـ/ 922 م) الذي أعدم بسبب رأيه. لهذا يُكن أهل السنة للصوفية العداوة لقولهم معرفة الحق تعالى وهو مستحيل من خلال الشريعة[55]. فكان رد الفعل مزدوجا:

1) تقليدي، تجلى في قيام المذاهب السنية في الفقه.[56]

2) صوفي.

فكان لا بد من إنقاذ الإسلام من خطر هذا التصوف المتزايد، حيث استحال القضاء عليه؛ فالاضطهادات رفعت كبار الصوفية إلى منزلة الشهداء، وزادت في قوة تأثيرهم، و لم يكن ثمة مناصا من إيلاج التصوف في الإسلام. هذا ما قام به الصوفية المعتدلون الراغبون في البقاء مسلمين صادقين مع محافظتهم على التصوف[57].

فتم التوفيق بين التصوف والسنة، ابتداء من القرن 5هـ/11م، بفضل القشيري الذي بعث برسالته في 437هـ/1045م إلى الصوفية في بلاد الإسلام، وهي خلاصة لمبادئ التصوف، بنيت على أساس الشريعة الإسلامية[58]. كما حدث التوافق بين الفقهاء والصوفية في عصر نظام الملك (توفي 485هـ/1092م) بفضل أبي حامد الغزالي (توفي 505هـ/1111م) بكتابه "إحياء علوم الدين" الذي هاجم فيه المتكلمين والفقهاء، و بيَن أن العبادة بالقلب وليس بالجسد فقط[59]. وفي هذه الفترة كان أغلب الصوفية من العلماء[60].

2) في المكان:(التصوف بالمغرب الإسلامي):

انتقل تيار التصوف من المشرق إلى المغرب والأندلس مع ابن العربي (توفي 543هـ/1148 م)[61] وأبي الحسن الشاذلي (593-656هـ/1197-1258م)[62] وأستاذه عبد السلام بن مشيش (توفي 625هـ/1227م)[63] ابتداء من القرن 6هـ/12م. واتخذ الإسلام الصوفي مكانة بين

علوم التدريس الديني في شمال إفريقيا، كما في المشرق. ورغم تحريم كتب الغزالي بالأندلس، والمغرب وإحراقها[64] فإن التصوف مد جذوره في عصر المرابطين رغم ازدهار علوم الفروع[65]، ووجد كبار ممثليه وشيوخه في القرن 6هـ/12م، وربما سيرة علي بن يوسف بن تاشفين (توفي 537هـ/1142م) خير دليل على ذلك؛ فقد كان مثل أبيه ملتزما بالصلاة والاستخارة مع الخوف من الله والتقشف، يصوم نهاره ويقيم ليله. وازدهر علم الفروع دون الأصول باستشارة علي بن يوسف للفقهاء وإكرامهم[66]، ما أدى إلى ظهور شريحة الصوفية في المغرب الإسلامي لإعادة التوازن في الحياة الفكرية والدينية[67]. وفي عهد الموحدين "...كان (ابن تومرت) ينتحل مذهب الأشعرية في تأويل المتشابه وينكر عليهم(الفقهاء) جمودهم على مذهب السلف في إمراره كما جاء، ويرى أن الجمهور لقنوه تجسيما، ويذهب إلى تكفيرهم" [68]. وفي عهد أبا يوسف يعقوب بن عبد المؤمن الموحدي (توفي 595هـ/1199م):"خاف الفقهاء علم الفروع على أيامه وأمر بإحراق كتب المذهب (المالكي) وأمر بترك الاشتغال بعلم الرأي والخوض في شيئ منه، وقصد محو مذهب مالك وحمل الناس على الظاهر وهذا مقصد أبيه و جده إلا أنهما لم يظهراه"[69].

نتج عن هذا(الأخذ بالعقيدة التجريدية) بروز تيار صوفي (الصيام، قيام الليل، التواضع...)، واعتبر الصوفية تيار العقل عبثا. وتصدر لحماية إيمان العامة من تشويش الحجج العقلية بعقيدة بسيطة من مذهب السلف أكبر شيوخ الصوفية: سيدي بومدين[70] (توفي 595هـ/1198م).

وبعد معركة العقاب (صفر 609هـ/يوليو 1212م) انحصر نفوذ الدولة في المدن ما أدى إلى قلة الأمن بالبوادي. وبات المغرب يستشعر الأخطار بعد هذه الهزيمة. فظهر نشاط صوفي مغربي بعيد عن الفكر التواكلي الإشراقي الذي علق به، وسيعمل على دفع الخطر الخارجي وتعبئة الأوساط الشعبية أخلاقيا لمواجهة الموقف في الحواضر والبوادي خاصة. واتجه أعلام التصوف المغربي مثل ابن مشيش والشاذلي إلى تعميق قيمة الجهاد وإعلاء فضيلة الرباط على الثغور والسواحل[71].

وانتشرت دعوة الصوفية إلى القناعة والتقشف في الأوساط الشعبية الأمية أكثر، منذ أواسط الدولة الموحدية، بتأثير أبي مدين شعيب[72]، وانتشرت الطرق منذ القرن 8هـ/14م[73]، و لم تعد مقتصرة على الزهاد والمتصوفين بل تغلغلت في الأوساط الشعبية وانتشرت الألقاب مثل الولي،

الغوث، القطب، معرفة علم الحقيقة... وبدأ الناس ينخرطون في الزوايا ويؤمنون بالأولياء. وأصبح الأولياء يمثلون قوة روحية[74].

وقد اتسع هذا النشاط في صدر الدولة المرينية بمساعدة الأمراء الزيانيين الذين استولوا على السلطة بالعصبية وحد السيف، متطلعين لكسب نوع من المشروعية، بانتهاجهم هذه السياسة الودية. في نفس الوقت، حاولوا التحكم في الحركة وضبط اتجاهها بإنشاء تعاليم السنة لردع كل نزوات التطرف سواء في العقيدة أو في التعبد، إلا أن انفساخ الدولة المرينية على إثر تتابع الهزائم في الأندلس، حرر الحركة الصوفية من كل مراقبة، وأتاح لها الفرصة لتتحول إلى مؤسسة مستقلة[75].

وعرفت الطرق انتشارا كبيرا منذ القرن9هـ/15م، خاصة بشمال إفريقيا، حيث نشطت بين العامة، وانتشرت أفكارها؛ من اعتزال العالم والبحث عن حب الله بطرق آلية هي أساس وسبب ظهور الطرق الصوفية[76]. يقول أحد الصوفية في الطريقة:

وإن ترد حقيقة المعرفة	فلتعرف بجهل كل صفة
وإن ترد حقيقة التصوف	أترك فهو لك ولا تعترف
كذلك الزهد له حقيقة	أخذ الذي لا بد في الطريقة
وقل لهم حقيقة التوكل	عن كل شيئ تقتلي و تعتلي[77]

إن الطرق الصوفية مفتوحة للجميع لهذا انظم إليها الأميون والجهال والمجذوبون طمعا في البركة، مما أدى إلى تدهور العلوم الإسلامية بالجامعات. فكل ما أضحى يهم المرء هو السعادة في الدنيا والآخرة، بشعائر سهلة بسيطة. فنزل رؤساء الطرق لمستوى العامة، مما أدى إلى فراغ الجامعات واكتظاظ الزوايا. وأقصى ما كان يهم المريد هو: حفظ القرآن، معرفة الحلال والحرام، قراءة وشرح بعض الأحاديث، والأهم هو معرفة قوانين الطريقة من ذكر وحزب والقيام جماعيا بالمدح والرقص الذي يؤدي أحيانا إلى النشوة الصوفية، أحسن وسيلة لإدخال البركة للنفس[78].

هكذا، وبعد أن كان المتصوفة لا يتسامحون في المجاهدات والنظريات خاصة الشرعية التي تعد الضامن لحصانتهم من البدع (القرن 7هـ/13م)[79]، فقد التعليم قوته وتغير الفكر، حيث لم تعد خدمة الله من أجل الله، ولا مقابل حياة أخروية سعيدة، بل لتلبية طموحات وأطماع مادية تحت غطاء عقائد عملت على تنويم العقول[80] وقويت فكرة "قوة الله" التي منح بعضها

الأولياء منذ القرن 6هـ/12م، وتجسدت في الشريف منذ القرن 9هـ/15م[81]، فركد الإسلام وتقهقرت الحضارة وظهر التعصب الديني والتصوف الشعبي[82].

وتميز هذا التدهور بانحصار التصوف في الرقص والغناء حتى الإغماء[83]، كما تفشى بين شيوخها الجهل واستغلال سذاجة العامة[84].

وهكذا نرى أن التصوف العملي السلوكي رافق التصوف الفلسفي دون أن يطغى عليه، ثم أخذ يبتعد عن أساليب النظر الفلسفي بطغيان الأساليب الآلية الجسدية إلى أن انتهى إلى نظم وأساليب وطقوس شكلية خالصة، فانقسمت حركة التصوف إلى طرق ومشيخات ما أدى إلى فراغ الحركة نهائيا من مضمونها الإيديولوجي، وانقلبت إلى حركة رجعية لعبت دورا خطيرا في عملية التخدير الاجتماعي وفي خدمة إيديولوجية الطبقات الرجعية[85].

يمكن القول في الأخير أن التصوف الذي كان عبارة عن الزهد في الدنيا والسعي للجنة، ثم أضحى عشقا وحبا، استمر إلى أن أصبح قوة يمنحها الله لعباده المصطفين، تجسدت في البركة التي تنازعها المرابطون والشرفاء. فتُرك الاجتهاد وانتشر التقليد واجترار مصنفات السلف، الأمر الذي أدى إلى انفلات الحركة من مراقبة الدولة خاصة بعد أن فشلت هذه في حماية بلاد الإسلام بالأندلس ثم في عقر أراضيها.

الهوامـــش:

I) ماهر محمود: الصوفية، ملف العقيدة، التصوف، الشبكة الإسلامية، Islam online، ص 2

2) ألفرد بـــل: الطرق الإسلامية في الشمال الإفريقي: من الفتح العربي حتى اليوم، ترجمة: عبد الرحمـــان بدوي، الطبعة 3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، I987، ص I37I-.372

3) ابن تيمية: الفتاوي، نقلا عن ماهر محمود: المرجع السابق، ص I

4) نفسه، والحارث المحاسبي: العقل وفهم القرآن، قدم له وحقق نصوصه: حسين القوتلي، الطبعة 3، دار الكندي للطباعة والنشر والتوزيع ودار الفكر للطبع والنشر والتوزيع، بيروت، I982، ص .53

5) الحارث المحاسبي: المصدر السابق، ص .I2

6) الحلول هو أن يكون الشيئ حاصلا في الشيئ ومختصا به بحيث تكون الإشارة الى أحدهما إشـــارة الى الآخر تحقيقا وتقديرا. و الذي يقصد المتصوفة هنا هو أن الله تعالى يحل في العارفين. أنظر أبو حامد الغـــزالي: المنقذ من الضلال، تحقيق وتعليق: عبد الكريم المرّاق، الدار التونسية للنشر، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائـــر، I984، ص .88

7) الاتحاد في الأصل: امتزاج الشيئين واختلاطهما حتى يصيرا شيئا واحدا. وفي عرف الصوفية: الاتحاد هو شهود الحق والاتحادية، من حيث كون كل شيئ موجودا به، ومعدوما بنفسه لا من حيث أن له وجودا خاصا اتحد به، فإنه محال. أنظر علي الجرجاني: التعريفات: تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العـــربي، بـــيروت، I405، ص .22

8) الاتصال بالواحد واجب الوجود بذاته وهو الله. أنظر الغزالي:المصدر السابق، ص 88.

9) عبد الرحمان عبد الخالق: الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة، الطبعة 4، مزيـــدة ومنقحـــة، دار الحرمين للطباعة، القاهرة، I993، ص 539..

10) Louis Massignon : "Tarika", in Encycylopédie de l'Islam, Tome IV,(S-Z), layd librirairie et imprimerie, librairie C.Klinckssick, Paris, 1934, P 700.

II) عصام الدين عبد الرؤوف الفقي: تاريخ الفكر الإسلامي، دار الفكر العربي، القاهرة، I997، ص 329.

I2) عبد الرحمان عبد الخالق: المرجع السابق، ص5I

13) André Miquel : l'Islam et sa civilisation VII^{eme}-XX^{éme}, Armand Colin, Parie, 1977, P 294.

14) Alfred Bel: L'islam mystique, Jules Carbonal imprimeur-éditeur, Alger, 1928, P 14

I5) الفقي: المرجع السابق، ص 327.

I6) نفس المرجع، ص 389 .

I7)الجرجاني: المصدر السابق ,ص I53.

18) Jean Léon L'Africain : Description de l'Afrique, tome 1, traduit de l'italien par A.Epaulard, Adrien- Maisonneuve éditeur, Paris, 1956, P 220

19) Ibn Sina (Avicenne) :Livre des directives et remarques (Kitab Al-Isarat wa L-Tanbihat),traduction avertissement introduction et notes : A.M.Goichon,

commission internationale pour la traduction des chefs-d'œuvres, Beyrout-librairie philosophique J.Vrin, Parie, 1951, P 485-486

20) مجهول: كتاب الزهد، ، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائر، رقم 936، نسخ القرن 10هـ/16م، ورقة 5 ظهر.

21) عباس محمود العقاد: التفكير فريضة إسلامية، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، د ت، ص 109، والتفتازاني: مدخل إلى التصوف الإسلامي، دار الثقافة بالقاهرة، 1974، ص .67

22) عبد الحليم محمود: التفكير الفلسفي في الإسلام، دار الكتاب المصري القاهرة ودار الكتاب اللبناني بيروت، 1989، ص415، و Avicenne : OP CIT,P 493 et suiv

23) Avicenne,OP CIT,P 499-500

24) الفناء عند الصوفية هو فناء للصفات البشرية في مقامات العبادة التي يترقى فيها السالك المتصوف المريد بقدر تلقيه من أنوار الله، كدرجة مقام السكر. ويعرفه ابن تيمية أن الفناء هو أن يغيب بمحبوبه عن نفسه و حبه، وبمذكوره عن ذكره، وبموجوده عن وجوده، حتى لا يشهد إلا محبوبه، فيظن في زوال تمييزه ونقص عقله وسكره أنه محبوب! واعتبر هذا خطأ وضلال. أنظر ابن تيمية: مجموع فتاوى شيخ الإسلام، المجلد 10: علم السلوك، جمع وترتيب: عبد الرحمان محمد بن قاسم بمساعدة ابنه محمد، مكتبة المعارف، الرباط، د ت، ص59. أما ابن العربي فاعتبره رؤية العبد للعلة بقيام الله على ذلك. أنظر محي الدين بن العربي: رسائل ابن عربي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د ت، ص.6

25) ابن العربي: المصدر السابق: كتاب الفناء في المشاهدة: ص3-4. الحديث كما خرجه الديلمي عن ابن عباس في "مسند الفردوس" الجزء1 ، ص 398، رقم الحديث 1611: "نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم". أنظر محمد التهانوي: كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، الجزء1، تقديم وإشراف ومراجعة: رفيق العجم، تحقيق: علي دحروج، نقل النص الفارسي إلى العربية: عبد الله الخالدي، الترجمة الأجنبية: جورج زيناتي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، 1996، ص .43

26) محمد شقرون المغراوي: الجيش الكمين لقتال من كفر عامة المسلمين، ضمن مجموع، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائر، رقم 2301، ورقة 3 ظهر.

27) جمال الدين بن الجوزي: تلبيس إبليس، راجع النسخة وضبط أعلامها: لجنة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية، بيروت، د ت، ص 188

28) أنظر عن تأثر المتصوفة بالتشيع كامل مصطفى الشيبي: الصلة بين التصوف والتشيع، الجزء 1: العناصر الشيعية في التصوف، الطبعة 3، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1982 .

29) عبد الرحمان بن خلدون: المقدمة، دار الجيل، بيروت، د ت، ص 520، والفقي: المرجع السابق، ص 329.

30) ابن خلدون: المصدر السابق، ص .520

31) زكي مبارك: التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، ج 2، منشورات المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، د ت، ص 21-22. غير أن أعلى درجات الزهد الثلاث (السفلى: الزهد في الدنيا والقلب

مايل إليها، يعرف صاحبها بالمتزهد. الدرجة الثانية: ترك الدنيا طوعا استحقارا لها كمن يترك درهما لأجل درهمين. الدرجة الثالثة: الزهد في الدنيا طوعا ويزهد في زهده حيث لا يرى نفسه تاركا شيئا وهو الكمال في الزهد) يمكن اعتبارها أقرب للوصول منها للسلامة. أنظر مجهول: المصدر السابق، ورقة 3 وجه.

32) زكي مبارك: المرجع السابق، ج 2، ص 242 و بل: المرجع السابق، ص 373، و Bel : OP CIT,P 9

33) Idem, P 12-13.

34) أبي محمد بن أحمد الظاهري ابن حزم: الملل والنحل: الجزء 5: تحقيق: محمد إبراهيم نصر وعبد الرحمان عميرة، دار الجيل، بيروت، د ت، ص 97.

35) جاء في "إحياء علوم الدين":"ومحبة الله للعبد تقريبه من نفسه بدفع الشواغل عنه والمعاصي وتطهيره عن كدرات الدنيا، وبرفع الحجاب عن قلبه حتى يشاهده كأنه يراه بقلبه. أنظر أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، المجلد 4، منشورات محمد علي بيضون- دار الكتب العلمية، بيروت، 1998، ص 287. قال العز بن عبد السلام:"كل ما تسمعه من لفظ الشهود والمشاهدة والتجلي المراد به قوة العلم وفيضان بحر العظمة على القلب" ص 86 من "الحبل المتين على نظم المرشد المعين" لمحمد بن محمد بن عبد الله بن المبارك الفتحي. أما الجرجاني فقال: "هناك فناءان أحدهما يحصل بكثرة الرياضة والثاني يحدث بعدم الاحساس بعالم الملك والملكوت وهو بالاستغراق في عظمة الباري مشاهدة الحق". أنظر الجرجاني: المصدر السابق، ص 217

36) محمد بن عبد الكريم: التصوف في ميزان الإسلام، مطبعة النهضة، الجزائر، د ت، ص 23-33، وألفرد بل: المرجع السابق، ص375 37

37) أبي عبد الله محمد الأنصاري الرصاع: فهرست الرصاع، تحقيق وتعليق: محمد العنابي، المكتبة العتيقة، تونس، د ت، ص 198.

38) رواه أنس بن مالك، نقلا عن أبي نعيم الإصفهاني: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، الجزء 10، دار الكتب العلمية، بيروت، د ت، ص 15.

39) سورة البقرة، الآية 282.

40) محمد بن عبد الكريم : المرجع السابق، ص 24

41) ابن العربي: المصدر السابق، كتاب التراجم، باب ترجمة الشريعة والحقيقة، ص.28

42) ابن خلدون: المصدر السابق، ص 519.

43) Bel : OP CIT, P16

44) ابن عبد الكريم: المرجع السابق، ص 7-10.

45) عن الرافضة والخوارج أنظر يوليوس قلهرزن: أحزاب المعارضة السياسية الدينية في صدر الإسلام: الخوارج والشيعة، ترجمة عبد الرحمان بدوي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1968. وعن المعتزلة أنظر حسين مروة: النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية، المجلد 2: المعتزلة- الأشعرية- المنطق، الطبعة 2، دار الفارابي بيروت وANEP الجزائر، د ت.

46) الطاهر بونابي: الحركة الصوفية في المغرب الأوسط خلال القرنين 6 و7هـ/12 و13م، ماجستير تاريخ إسلامي، جامعة الجزائر، 1999-2000، ص 10-11.

47) عن الفقه الكوفي أنظر علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، الجزء 1، الباب الرابع، الطبعة 9، دار المعارف، مصر، 1995. وعن العبادة البصرية أنظر الباب الثالث.

48) سورة المدثر، الآية 8

49) ماهر محمود: المرجع السابق، ص 1. عرف ابن العربي الصعق قائلا: الفناء عند التجلي الرباني. أنظر ابن العربي: المصدر السابق، اصطلاح الصوفية، ص 13.

50) ابن خلدون: المصدر السابق، ص 517.

51) بـــل: المرجع السابق، ص 317- 372.

52) Bel : OP CIT , P 16.

53) بـــل: المرجع السابق، ص 374.

54) ناصر الدين سعيدوني: مؤسسة الزوايا في الجزائر العثمانية (نموذج بلاد القبائل)، عمل نشر في: International congress on learning and education in the Ottoman world, Istanbul, 12-15, April, 1999, P 29

55) سبنسر ترمنجهام: الفرق الصوفية في الإسلام، ترجمة ودراسة وتعليق: عبد القادر البحراوي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1997، ص 36

56) بـــل: المرجع السابق، ص 372

57) نفسه، ص 375-376، وترمنجهام: المرجع السابق، ص 225

58) L'Africain : OP Cit, tome 1, P 221

59) بـــل : المرجع السابق، ص 376، و Bel : OP CIT , P 12-13

60) L'Africain : OP Cit, tome 1, P 221

61) الشيخ الأكبر فيلسوف من أئمة المتكلمين في كل علم. أنكر عليه أهل مصر شطحات صدرت عنه وحبس. وبعد خروجه من السجن استقر بدمشق وتوفي بها. قال بوحدة الوجود، وله 400 كتاب ورسالة. أنظر ترجمته في عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، لأبي العباس الغبريني، تحقيق: رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1970، ص 58-59 وفي خير الدين الزركلي: الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، المجلد 6، الطبعة10، دار العلم للملايين، بيروت، 1992، ص 281

62) سيدي بلحسن ولد جنوب تطوان. تتلمذ على أحد أتباع سيدي بومدين وهو عبد السلام بن مشيش. انسحب للمشرق مخلفا وراءه حشدا من الأتباع. أنظر عن تصوفه ج.ت.نيابي: تاريخ إفريقيا العام، المجلد 4: إفريقيا من القرن 12 إلى القرن 16 م، الفصل 5: المجتمع في المغرب بعد زوال الموحدين، بقلم:هـ.ر.إدريس، اللجنة العلمية الدولية لتحرير تاريخ إفريقيا العام(اليونسكو), المطبعة الكاثولكية، بيروت، 1988، ص 120 وعن ترجمته أنظر الزركلي: المرجع السابق، المجلد 4، ص 305

63) ناسك مغربي اشتهر برسالة "الصلاة المشيشية". ولد بجبل بثغر تطوان وقتل فيه من طـــرف جماعـــة بعثهم ابن أبي الطواجين الكتامي الساحر المتنبئ. أنظر ترجمته في الزركلي: المرجع السابق، المجلد 4، ص 9

64) محمد الأمين بلغيث: الحياة الفكرية بالأندلس في عصر المرابطين، المجلد I، أطروحة لنيل دكتـــوراه دولة في التاريخ الإسلامي، قسم التاريخ، 2002-2003، ص 254 وما بعدها، ومحمد إبـــراهيم بيـــومي: تاريخ الفلسفة الإسلامية في المغرب، دار المعارف بمصر، ص 206، وإبراهيم مياسي "مساهمة القادرية في تأطير الثورات الشعبية"، في: دراسات في العلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد 4، السنة 2003-2004، منشورات كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، ص93. ويذكر بلغيث بعض الفقهاء بالأندلس رفضـــوا إحـــراق كتـــب الغزالي. أنظر ص 260-261-262

65) نشر المرابطون مذهب مالك ورجعوا إليه دون القرآن والحديث عاملين بقول مالك:"الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة" ما أدى إلى عدم الاجتهاد في العقيدة (علـــم الكـــلام) فاستحكم المنهج الحرفي في الفهم بتدعيم من الفقهاء والسلطة واستحكم التقليد. أنظر عبد المجيد عمر النجار: فصول في الفكر الإسلامي بـــالمغرب، دار الغـــرب الإســـلامي، بـــيروت، 1992، ص 68 و 86-87، و C.A.Julien : Histoire de l'Afrique du Nord, tome 2 :de la conquête arabe a 1830, 2ème édition revue et mise a jour par Roger le Tourneau, Payot, Paris, 1956, p 91

66) عز الدين بن الأثير: الكامل في التاريخ، المجلد II، دار صادر، بيروت، 1979، ص 417

67) بونابي: المرجع السابق، ص 65-66-67.

68) عبد الرحمان بن خلدون: تاريخ ...، المجلد 6، دار الكتب العلمية، بيروت، د ت، ص 267. دعى ابن تومرت إلى التنزيه في التصور العقدي على أساس التأويل(على طريقة الأشاعرة). ودعى كذلك إلى التأصيل في الفكر الشرعي على أساس اتخاذ الأصول النصية، واعتبرها المصدر المباشر للأحكام بهدف مقاومة ما عسى يقع فيه التصور العقدي في التجسيم أو التشبيه في الاعتقاد بالله ذاتا وصفاتا نتيجة لإمرار الآيات والأحاديـــث التي توهم التجسيم والتشبيه. كما دفع الفكر المغاربي إلى التفاعل المباشر مع القرآن والحديث لإيجاد حركـــة اجتهادية لاستخراج صور لمعالجة الأوضاع في الفكر والسلوك من ذات النصوص لا مـــن أقـــوال العلمـــاء السابقين. أنظر عبد المجيد النجار: المرجع السابق، ص 39-40.

69) عبد الواحد بن علي المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، وضع حواشيه: خليل عمـــران المنصور، منشورات محمد علي بيضون دار الكتب العلمية، بيروت، 1998، ص 197-198 وابن الأثـــير، المصدر السابق، المجلد 12، ص 145، وبلغيث: المرجع السابق، المجلد I، ص 270

70) بونابي: المرجع السابق، ص 68. أبو مدين شعيب صوفي من مشاهيرهم، وهو من الأندلس أقام في فاس وسكن بجاية، وكثر أتباعه حتى خافه يعقوب المنصور. توفي في تلمسان وقد تجاوز الثمانين. له "مفـــاتيح الغيب لإزالة الريب وستر العيب". أنظر الزركلي: المرجع السابق، المجلد 3، ص 166.

71) عبد المجيد الصغير: تجليات الفكر المغربي (دراسات ومراجعات نقدية في تاريخ الفلسفة والتصـــوف بالمغرب)، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، 2000، ص171-172.

72) بونابي: المرجع السابق، ص 68، ومياسي: المرجع السابق: ص93.

73) Stora et Ellyas Akram : Les 100 portes du Maghreb (l'Algérie-le Maroc-la Benjamin Tunisie),trois voies singulières pour allier Islam et modernité, les éditions Ouvriéres,Paris,1999,p123.

74) مياسي: المرجع السابق، ص 93 .

75) عبد الله العروي: مجمل تاريخ المغرب ، الجزء 3، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1999، ص 39، و

76) Alfred Bel : la religion musulmane en Berberie, esquisse d'histoire et de sociologie, Tome I, établissement et développement de L'Islam en Berberie du VII^{e} an XX^{e} siécle, librairie orientaliste, Paul Geuthner, Paris, 1938, P 297.

Bel :L'Islam mystique, P 20 et 37.

77) الشيخ الإمام أحمد الكرسي: في بعض حقائق التصوف، ضمن مجموع، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائر، رقم 2266، نسخة 1141-1144هـ/1728-1731م، ورقة 92 وجه.

78) Bel : L'Islam mystique, P 37-38 .

79) بونابي: المرجع السابق، ص 228

80) O.Depont et X.Coppolani : Les confréries religieuses musulmanes, J.Maisonneuve et P.Geuthner S.A, Paris, 1887, P 173.

81) Bel : L'Islam mystique, P 38.

82) Ibid, P 16.

83) L'Africain : OP Cit, tome1, P 222.

84) الفقي: المرجع السابق، ص 336.

85) حسين مروة: المرجع السابق، المجلد 3: تبلور الفلسفة-التصوف-إخوان الصفا، ص 226.

المستشرقون وخطرهم على العقيدة والفكر الاسلامي

أ/ بن بوزيد لخضر
جامعة محمد خيضر بسكرة

مقدمة:

لقد ألف المستشرقين في جميع المعارف الاسلامية، فلا تكاد تجد مجال يخص المسلمون إلا وتجدوهم قد تطرقوا إليه، حتى لقد اصبحت كتبهم مصادر للدرسات الاسلامية ليس للأوربين فحسب بل للعرب والمسلمين أيضا، وقد تأثر بدراساتهم وبأراءهم أجيال من الباحثين المسلمين، لذلك يتساءل المرئ عن اسباب دراستهم للمعارف الاسلامية؟ وهل دراساتهم تلك قصدوا بها العلم والمعرفة؟ أم كانت لهم مقاصد أخرى !!! وماهي المآخذ التي تؤخذ عليهم، بل ماهي المكائد والشبهات التي أثاروها في الاسلام؟

أولا: مفهوم الاستشراق:

الاستشراق في اللغة يعني الاتجاه إلى الشرق وأقرب كلمة إلى الاستشراق هي التَشْريقُ فقد جاء في مختار الصحاح أن التَشْريقُ هي الأخذ في ناحية المَشرِق؛ يقال: شتّان بين مُشَرِّقٍ ومغرِّبٍ [1]، وجاء في القاموس المحيط التَّشْرِيقُ هو الأخذ في ناحية المشرق وشَرِّقوا أي ذهبوا إلى الشرق أَو أتوا الشرق[2]، وشرقت الشمس تشرق شروقا وشرقاً: طلعت، وإسم الموضع : المشرق، وشّرقوا ذهبوا إلى الشرق، وكل ما طلع من المشرق فقد شرق [3]، وفي الحديث: عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: «إذا أتيتم الغائط، فلا تستقبلوا القبلة بغائط ولا بول، ولا تستدبروها، ولكن شرقوا أو غربوا» متفق عليه البخاري (394) ومسلم (264).

أما كلمة الاستشراق باللغة الاجنبية فهي مشتقة من كلمة الشرق "orient" والتي تستمد أصلها من اللغة اللاتينية، ومعناها يتمحور حول طلب العلم والمعرفة والارشاد والتوجيه مما يعني اعتراف ضمنيا أن العلم والمعرفة كان يطلب في هذه المنطقة [4].

يعرف الباحثون الاستشراق بأنه تعبير أطلقه الغربيون على الدراسات المتعلقة بالشرقيين، شعوبهم وبلادهم، وتاريخهم، وأديانهم، ولغاتهم وأوضاعهم الاجتماعية، وحضارتهم وكل ما يتعلق بهم [5]، وهو أسلوب غربي لمعرفة العالم الشرقي عن طريق البحث أو التخصص في الشرق، بدراسة علوم وآداب وديانات وتاريخ شعوب الشرق للسيطرة عليه [6] ،ويدخل في المفهوم نفسه الدراسات التي قام بها الروس وسواهم من الشعوب الاخرى، وقد إستُخدم مصطلح ''المستشرق'' في الإنكليزية أول مرة سنة 1779، وبالفرنسية سنة 1799.

أ- أسباب ظهور الاستشراق :

يرى البعض أن الاستشراق ظهر مع ظهور الإسلام، فقد سأل هرقل أبو سفيان عن الرسول ﷺ، ويعد قيصر أول ملك اهتم بالإسلام، وربما سبقه إلى ذلك النجاشي ملك الحبشة مع اختلاف الدافع بينهما، بينما يرجعه آخرون إلى أيام الدولة الأموية في القرن الثاني الهجري حيث أن يوحنا الدمشقي الذي عاش في العصر الاموي وخدم في بلاط يزيد بن عبد الملك، قام بأول محاولة للإستشراق وقد ألف كتابين الأول بعنوان «حياة محمد» والثاني «حوار بين مسيحي ومسلم» وكان هدفه إرشاد النصارى إلى جدال المسلمين [7] .

ويعتبر بعض الباحثين الاندلس المكان الذي نشا فيه الاستشراق حيث أن الكثير من الاوربيين كانوا يدرسون فيها ومن هنا جاء إهتمامهم بالمسلمين، كما أن فشل الحروب الصليبية لعب دورا في نشاة الاستشراق، ويرجح مصطفى السباع أن بدايته كانت بمحاولات فردية منذ أواخر القرن العاشر الميلادي، وأوائل المستشرقين قد يكون الراهب الفرنسي جربرت الذي أنتخب بابا لروما سنة 999 م بعد تعلمه في معاهد الاندلس، ثم بطرس المحترم 1092- 1156 وجيراردي كريمون 1114- 1187 م [8] .

ويمثل عام 1312 منعطفا هاما على صعيد بداية الاستشراق حيث اقرت السلطة الكنسية العالمية في فيننا ضرورة تعليم اللغات الشرقية، فتم إنشاء عدد من كراسي الأستاذية في العربية

والعبرية في جامعات باريس، وأكسفورد، وبولونيا، وأفينيون، وهذا التاريخ يمثل بداية الاستشراق اللاهوتي فعليا على حد تعبير إدوارد سعيد [9].

كما أن فشل الحروب الصليبية كان له دور كبير في ظهور حركة الاستشراق من حيث إقتناع الأوربيين بعدم جدوى القوة العسكرية في مواجهة الإسلام وهذا الذي اقتنع به لويس التاسع عندما كان مأسورا في مصر [10]، من جهة ثانية هناك أيضا فتوح العرب في صقلية والأندلس وجنوب فرنسا، دون أن نغفل سقوط القسطنطينية بأيدي الأتراك، وهو عامل مهم من عوامل نشأة الاستشراف فبسقوطها فتح باب أوربا على الإسلام، ومن هنا لم تبقى عداوة أوربا للإسلام قضية ذات أهمية ثقافية فحسب بل ذات أهمية سياسية أيضا [11].

ب – مراحل تطور الاستشراق :

يمكن تقسيم الاستشراق إلى ثلاث مراحل المرحلة الأولى وهي قبل سقوط الأندلس وأفول نجم الحضارة الإسلامية، أتخذ فيها الاوربيون دور دفاعيا في وجه الإسلام حيث كانت كتاباتهم تتسم بردة الفعل ودراسة الإسلام من أجل التصدي له، وفيها إستفادت أوربا من الحضارة الإسلامية المزدهرة في الأندلس والمغرب ومصر والشام، أما المرحلة الثانية من الاستشراق فهي مرحلة هادفة من قبل الغربيين إلى دراسة الإسلام عقيدة وشريعة وتاريخاً، والمرحلة الثالثة شهدت ظهور الاستشراق العلمي بدراسة لسائر أحوال الشرق أديانه وعلومه وتاريخه .

ومن بين مظاهر الاستشراق الأولى تعليم اللغة العربية فقد قامت فرنسا بإنشاء مدارس لتدريس اللغة العربية؛ مثل: ريمس، وشارتر وذلك منذ القرن الرابع عشر [12]، أما في القرنين السادس عشر والسابع عشر فقد شهدِ الاستشراق ازدهاراً في النواحي العلمية والدراسية المتخصصة حيث تم جمعَ مجموعة هامة من المخطوطات، وفي تلك الفترة تم إنشاء أول مطبعة عربية في أوروبا من طرف الكردينال فرناندو دي مدتشي دوق توسكانا[13].

في القرن السابع عشر ظهرت التجارب الاولى لتعاطي المستشرقين مع الدراسات الإسلامية بالإشراف على نشرْ الكتب ومحاولة تصحيحها[14]، وعندما أقبل القرن الثامن عشر كان الاستشراق قد وطَّد أقدامه وتوسع بشكل غير مسبوق، وتحدَّدت معالمه إلى حدٍّ بعيد، حيث شهدِ إنشاء كرُسيين للغة العربية في جامعتي أكسفورد وكامبريدج [15] .

وقد مثلت الحملة الفرنسية على مصر سنة 1798 منعرجا هاما في تطور الاستشراق، وكان من نتائجها الاتصال المباشر بالشرق والتعرف على أحواله السياسية والاقتصادية والاجتماعية[16]، كما شرعَ الغربيون في تأسيس الجمعيات العلمية التي كانت نقطة انطلاق كبرى للاستشراق حيث تجمَّعت فيها العناصر العلمية والإدارية والمالية، فأسهمَت إسهاماً فعَّالا في البحث والاستكشاف [17]، ومع بداية القرن التاسع عشر بدأت الدراسات الاستشراقية بأسلوب أشمل وأكثر تنظيماً مصحوبة بروح دينية صليبية واستعمارية غربية حاقدة .

وحينما دخل العالم أعتاب القرن العشرين جرت أحداث هامة وتحوُّلات في العالم العربي، فوفدَ عدد كبير من المستشرقين المتخصصين للتدريس بالجامعة المصرية والعربية، لعل من أبرزهم :نيللينو، ماسينيون، شاخت، توماس أرنولد، كازانوفا، كراوس، ليتمان،الذين حاضروا في الفقه والآداب العربية والفلسفة والعلوم والفن...[18].

وبدأ جيل جديد من المستشرقين يغوص في أعماق الفكر والدين والأدب العربي، وقد تميَّز الاستشراق في هذا القرن بتخصُّص كل مستشرق في فرع معيَّن من فروع المعارف الشرقية،وانعقدت العديد من المؤتمرات،أسهمَ المستشرقون فيها بنصيب وافر من البحوث والمقالات، وحرص الأوروبيون والأمريكيون على إنشاء مراكز للدراسات العربية والإسلامية في العالم الإسلامي.

ج – أنواع الاستشراق :

I – **الاستشراق اللاهوتي**: بدأ تقريبا مع بداية الاسلام وإن كان انطلاقته الفعلية بتبني الكنيسة لقرار إنشاء كراسي للغة العربية في الجامعات الاوربية في مؤتمر فينا عام 1312، وقد إحتضنت الكنيسة هذا النوع من الدراسات الشرقية وكان معظم المستشرقين على علاقة فعلية بالكنيسة .

2– **الاستشراق العلمي**: إن الاستشراق قد تشكَّل كعِلمْ في القرن التاسع عشر، منذ أن تخلص من سيطرة اللاهوت، أصبح عِلماً قائماً بذاته، هدفه دراسة اللغات الشرقية وآدابها، وبرزَت هناك نزعة علمية تتَّجه إلى دراسة الآداب والعقائد الشرقية لذاتها، مستهدفة المعرفة وحدْها إلى حدٍّ ما [19].

ومع ذلك فقد ظل يخدم الاغراض الدينية والسياسية ومن الامثلة على ذلك كل من هنري بالمر، وريتشارد بيرتون، وتشارلز دوتي الذين قاموا بدراسات جغرافية عن شبه الجزيرة العربية، كما أن العديد من المستشرقين قد إستغلوا وجود الاستعمار في البلاد العربية فقاموا بدراسات معمقة شملت كل الميادين وقد وفر لهم الاستعمار الامكانيات اللازمة .بما يخدم مصالحه، وهذا ما حدث في الجزائر حيث أسس المستشرقون المؤسسات العلمية التي تمول البحوث وتنشرها مثل: الجمعية الأثرية لقسنطينة والجمعية التاريخية للجزائر التي أنتجت المجلة الإفريقية المشهورة، أكاديمية هبون، الجمعية الجغرافية والأثرية لمقاطعة وهران.

ثانيا– خطر الاستشراق على العالم الاسلامي:

يذكر الامام محمد الغزالي إن الاستشراق كهانة جديدة تلبس مسوح العلم والرهبانية في البحث، وهي أبعد ما تكون عن بيئة العلم والتجرد، وجمهرة المستشرقين مستأجرين لإهانة الإسلام وتشويه محاسنه والافتراء عليه" [20]، فالاستشراق اثر في الفكر الفلسفي العربي والإسلامي م بحيث لا يوجد مجالاً من مجالات دراسة الشرق وعلومه خالياً من أبحاث المستشرقين [21]، ويذكر في هذا الاطار إدوارد سعيد أن المستشرقين نشروا عن الاسلام والمسلمين فكرة مغلوطة وأنهم يصفونهم بابشع الصفات وأنهم غرسوا ذلك في أفكار الأوربيين ونجدها اليوم مجسدة في أفلام السينما [22] .

أ – دوافع وأهداف المستشرقين :

الافكار التي تبثها الكنيسة في عقول الاوربيين عن الاسلام لم تتوقف عند حد معاداة الاسلام، بل إعتبرته دينا محرفا يستمد أصله من اليهودية والنصرانية بل اعتبرته مشوهة، وأن علومه وافكاره في الاصل من علوم الاغريق [23].

تعتبر الكنيسة الإسلام أكبر عدو لها فقد جاء في فرض الكهنة في تاريخ بيزا « دين محمد الهمجي والسكير الذي من نصيبه جهنم عقاب له على سيئاته هو دين خدام الشيطان والمؤابين الانجاس الذين يرددون آيات الرسول ويكثرون من التجذيف على ملكة السموات مريم »، كما أن الكنيسة ثم الاستعمار ساهما في تشويه الإسلام وحضارته وتشويه الإنسان العربي، ثم تركت المهمة بعد ذلك للإستشراق على حد تعبير منتجومري وات مؤلف كتاب " فضل الإسلام على الحضارة " [24] .

وقد كان الهدف الاول للإستشراق ديني، فقد بدأ بنشاط الرهبان في مجال الترجمة، يذكر في هذا الاطار مصطفى السباعي أن الدافع الديني أهم دافع للمستشرقين، فقد كان هدفهم أن يطعنوا في الإسلام ويشوهوا محاسنه فوصفوا المسلمين باللصوص وسفاكو الدماء وأن سعيهم إنما هو لإرضاء ملذاتهم الجسدية [25]، فكان هدف الكنيسة هو التبشير وهنا يذكر يوهان فوك إن فكرة التبشير هي الدافع الحقيقي حول إنشغال الكنيسة بترجمة القرآن واللغة العربية، فكلما تلاشى الامل بتحقيق نصر نهائي بقوة السلاح ، كما يذكر الباحث محمد بن حمادي الفقير التمساني أن حملات التبشير النصرانية كانت أحد أسباب بداية الاستشراق[26].

ومع أن الغرب يمقت الكنيسة ويثور عليها حيث أن شعار الثورة الفرنسية كان " إشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر راهب"، ومع ذلك فنراهم يشجعون على التبشير في الشرق بما يخدم مصالحهم.

إظافة إلى الدافع الديني يوجد الدافع التجاري للترويج لبضاعتهم والحصول على امتيازات ومكاسب اقتصادية ، والدافع السياسي ولعله هو الأخطر حيث أنه وبعد استقلال كل الدول الإسلامية فان الأوربيون ظلوا على اتصال بالمفكرين والقادة السياسيين والصحافيين عن طريق الندوات والحفلات التي يقيمونها، كما أن السفارات أصبحت تضم ملحقين ثقافيين بحيث تعرف كل خبايا البلد .

وهناك الدافع الاستعماري فقد إتجه المستشرقون للتعرف على البلاد من خلال دراسة عادات وعقائد وأخلاق المجتمعات والتعرف على مختلف أقاليمها وثرواتها لمعرفة نقاط القوة والضعف، وعندما تم لهم ذلك راحوا يعملون على إضعاف المقاومة، بإيهام الناس أن الاستعمار قضاء وقدر فيشجعوا التصوف والزوايا وسعوا لإصدار فتاوى تدعوا إلى الاستكانة والاستسلام لقضاء الله .

واخيرا هناك الدافع العلمي بالنسبة فالذين لم يشتركوا في مخططات الكنيسة والاستعمار فإن دافعهم علميا بحت وقد بذلوا قصارا جهدهم في فهرسة المخططات والكتب وهؤلاء إستفادت منهم الدول الاسلامية حيث كان تاثيرهم إيجابيا[27]، إذ لم يكن جميع المستشرقين يخدمون أغراض التبشير أو الاستعمار بل هناك منهم من كان حياديا وكان غرضه العلم وهناك من أسلم[28].

ب- وسائل الاستشراق :

استعمل بعض المستشرقين وسائل دنيئة للوصول إلى أغراضهم خاصة منهم أولئك الذين خدموا الغرض التبشيري أو الاستعمار، ونسوق هنا قصة ليون روش مع الامير عبد القادر، فقد سمى نفسه الحاج عمر والتحق بخدمة الامير، ورافقه مدة طويلة ادَّعى خلالها أنه اعتنق الإسلام، ولما قامت الحرب بين الأمير وفرنسا انشقَّ عنه والتحق بالسلطة الفرنسية، فكلفه الجنرال بيجو الحاكم العسكري للجزائر، بالسفر إلى تونس ومصر والحجاز حاملًا فتوى تدعوا الجزائريين إلى قبول الحكم الفرنسي مقابل أن يحترم هذا الحكم دينهم وعاداتهم وتقاليدهم .

وهو يلخص في كتابه " ثلاثون سنة في رحاب الإسلام " استخفاف المستشرقين بعقول المسلمين حيث يذكر: « وإني قد تمكنت من إغواء بعض هؤلاء الشيوخ في القيروان والإسكندرية ومكة , فكتبوا إلى المسلمين في الجزائر يفتونهم بوجوب الطاعة للفرنسيين، وبأن لا يتزعوا إلى ثوره ،وبأن فرنسا خير دولة أخرجت للناس ومنهم من افتى بأن فرنسا دولة إسلامية أكثر من الدولة العثمانية, وذلك لم يكلفني سوى بعض النقود الذهبية» [29].

ومن أبرز وسائلهم أيضا الغزو الفكري حيث استغلوا انبهار المسلمين بالحضارة الغربية في نشر الثقافة الغربية، فسلاح التغريب من أخطر الاسلحة التي استخدمها الغرب ضد الشرق وقد اضطلع المستشرقون بهذه المهمة .

وبسبب السيطرة الإستعمارية بدأت المؤثرات الغربية تتدفق على البلاد الإسلامية حتى غدا تقليد الغرب والتشبه بأخلاقهم وأسلوب معيشتهم واقتباس أفكارهم وآراءهم الاجتماعية والسياسية، أكبر عوامل التبدل والانقلاب في العالم الإسلامي [30].

وقد ثبت في عصرنا ما اخبر به الرسول ﷺ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صلى الله عليه وسلم «"لَتَتّبِعُنّ سَنَنَ الّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ. شِبْراً بِشِبْرٍ، وَذِرَاعاً بِذِرَاعٍ. حَتّىَ لَوْ دَخَلُوا فِي جُحْرِ ضَبَ لاَتّبَعْتُمُوهُمْ" قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللّهِ آلْيَهُودُ وَالنّصَارَىَ؟ قَالَ "فَمَنْ؟»» صحيح البخاري، رقم 3456.

من أبرز الأمثلة على دور الاستشراق في نشر التغريب ما حدث في تركيا في عهد مصطفى كمال أتاتورك، فعندما قام بدعوته إلى تغريب تركيا حاضرة الخلافة، أخذ المستشرقون يتهمون الإسلام كدين بأنه سبب انحطاط الشعوب الإسلامية، وقوي نشاط المبشرين في العالم

الإسلامي [31]، فقد ساند الاستشراق كل خطوات أتاتورك* بالقضاء على أي صلة لتركيا بالشرق ،عن طريق نشر اللغة التركية بالحروف اللاتينية ومنع العربية والفارسية ونشر الثقافة الغربية في تركيا، فقد قاموا بأبحاث تاريخية ونظريات في فقه اللغة التركية تشهد بتأصيل اتجاهه التغريبي، فساندوا الأفكار القومية الطورانية لأتاتورك، والأصول المشتركة للغات الأوربية مع التركية [32].

وحاول المستشرقون ضرب العقيدة الاسلامية وبث الشكوك حول صحة رسالة الاسلام فمن وسائلهم في التشكيك بصحة رسالة الرسول ﷺ ومصدرها الإلهي، إنكار النبوة والادعاء أن الدين الإسلامي مستوحى من اليهودية والنصرانية، والتشكيك في صحة الأحاديث النبوية وفي الفقه الإسلامي، وفي قدرة اللغة العربية على مواكبة التطور العلمي، وفي قيمة التراث الحضاري الإسلامي وأنه منقول من الحضارة الرومانية واليونانية، والسخرية من بعض الأحكام الدينية، كدعوى عدم مناسبتها لوقتنا الحاضر.

– ومن الادوات التي إستعملوها لتحقيق أغراضهم:

– تأليف الكتب في موضوعات منها القرآن الحديث والفقه والتاريخ الاسلامي وإصدار المجلات لنشر بحوثهم، وإنشاء جمعيات ومدارس ومؤسسات من أجل العمل الخيري والاحتكاك مع الشباب في العالم الاسلامي، وإلقاء المحاضرات في الجامعات والهيئات العلمية ومقالات في الصحف المحلية .

– التركيز على الدعوات الهدامة والافكار الخاطئة والفرق الضالة والدفاع عنها والإشادة بها فنجدهم يركزون بحوثهم على المتصوفة والشيعة والخوارج، الوقوف عند الحوادث التاريخية التي تمثل انتكاسات أو ثورات أو أزمات مر بها العالم الاسلامي وكأنهم إنما يبحثون عن الطعن في الاسلام [33].

ج – علاقة المستشرقين بالاستعمار:

يذكر الباحث بهاء الدين أن الاستعمار ورجال الكنيسة كانوا يشجعون المستشرقين ويدفعونهم لدراسة الحديث والفقه موفرين لهم كل المساعدات المادية والمعنوية [34].

المستشرقون خدموا الاستعمار فسلفستر دي ساسي قام بترجمة الإعلان العام الموجه للجزائريين عند احتلال الجزائر، كما قام بالتجسس على المسلمين في الشرق خدمة للإستعمار، وعندما أنشات فرنسا قبيل احتلال الجزائر هيئة المترجمين والمرشدين العسكريين كان من أهم أعضاءها العديد من المستشرقين منهم سيلفاستر دي ساسي [35]، والمستشرق كارل هنريش بيكر مؤسس مجلة الاسلام الالمانية كان يقوم بدراسات تخدم الاهداف الاستعمارية الالمانية في إفريقيا، أما باتورد مؤسس مجلة الاسلام الروسية فقد كلفته الحكومة الروسية بالقيام ببحوث تخدم مصالحها في آسيا الوسطى، وعالم الاسلاميات اليهودي سنوك هورنجرنيه تولى مناصب في أندونوسيا خدمة للإحتلال [36]، لقد أصبح الاستشراق في ذلك الوقت بالفعل مرادفا للهيمنةِ على الشرقِ، فالباحث لامارتين كان يبرر الاحتلال الأوروبي للشرقِ خلال رحلاته إلى فلسطين [37] .

عمل الاستعمار على الإستفادة من التراث الاستشراقي مما عزز موقفه، فقد واكب تطور الاستشراق التوسع الاستعماري، الذي جند طائفة كبيرة منهم لخدمة أغراضه وتحقيق أهدافه وتمكين سلطانه في البلاد المستعمرة، فعمل بعضهم كمستشاري لوزارات خارجية دولهم وكقناصل وكجواسيس، فقد كان السياسيون يرجعون إليهم قبل إتخاذ القرارات المهمة في الشؤون التي تخص الأمم العربية والإسلامية، كما أن بعض المستشرقين أسسوا صداقات بالرجال البارزين في الامة العربية وإتخذوا من هذه الصلات ستارا يقومون من وراءه بأعمال التجسس [38].

كل ذلك جعل الباحث إسماعيل أحمد عمايرة يجزم أن الظاهرة **الا**ستشراقية كانت تمثل الجذور الايديولوجية للإستعمار الحديث بكل دوافعه النفسية كالسيطرة الاستعلائية والرغبة التنصيرية والمصالح الاقتصادية [39]، الواضح هنا هو تبادل الادوار بين الاستعمار والاستشراق فهذا المستشرق اليهودي الهولندي الاصل سنوك هرجرونيه يتحدث على ضرورة الاستشراق للاستعمار وضرورة الاستعمار للإستشراق فيقول: «... وكلما زاد البلاد الإسلامية التي تقع تحت السيادة الأوروبية زادت الأهمية بالنسبة لنا نحن الأوروبيين لنتعرف على الحياة الفكرية وعلى الشريعة وعلى خلفية المفاهيم الإسلامية ...» [40].

د – علاقة الاستشراق بالتنصير :

طَلائِع المُستَشرِقين الأولى خرجَتْ من الكنائس والأديرَة بمناصب دينية، والبداية كانت عبر مجمع فيينا الكنسي سنة 1312م، وكانت هذه التَّوصية قائمة على دعوة المُنَصِّر المُستَشرِق ريموند لول وهو مستشرق فرنسي تعلم العربية وحفظ القرآن, طاف بشمال أفريقيا أكثر من مرة, كان يهدف إلى هدم الإسلام [41] .

وحول علاقة الاستشراف بالتنصير والاستعمار كتب الباحث نجيب العقيقي: «تعاونت الكنيسة مع ملوك أوربا في مهمة نصفها الأول سياسيا ونصفها الأخر تبشيريا عنصريا » [42]، والاستِشراق مثل التَّنصِير نال الدعم المادي والسياسي والمعرفي والحماية كما نالَ رعاية الكنيسة ومباركتها، فقد اتَّجهت الكنيسة الغربية إلى التَّنصِير من خِلال الفكر والثقافة والعلم، فكان التَّوجُّه إلى ما نُسَمِّيه اليوم بالغزو الفكري في تحقيق ما فشَل فيه السلاح[43] .

لقد برز الاستشراق في البداية بقصد إيقاف التأثير الإسلامي في الغرب، ثم تطور ليخدم مشروع تنصير المسلمين، فقد كان منذ بداية نشأته لخدمة الكنيسة والاستعمار[44]، والمستشرقون لم يتناسوا التبشير في دراساتهم العلمية، والكثير منهم من رجال دين فهدفهم إدخال الوهن في قلوب المسلمين من دينهم وتاريخهم وتراثهم والتشكيك في مبادئهم وعقائدهم وحضارتهم لسلخ المسلمين عن دينهم[45] .

من جهة أخرى سياسة الاستعمار كانت تخدم بدورها كل من الاستشراق والتبشير، فهي تقوم على :

– تشجيع التبشير وتمكينه في البلاد الإسلامية.

– تربية جيل من أبناء المسلمين على الفكر والسلوك الغربي وعزله عن عقيدته وتاريخ أمته، ثم اصطفاء نخبة من هؤلاء ليصنعهم الغرب على عينه، وقد ولاهم مقاليد البلاد .

– توجيه مناهج التعليم والتربية والإعلام والثقافة والفكر والأدب وغيرها، وصبغها بالصبغة الغربية الخالصة، ونشر الافكار والفلسفات الغربية الهدامة بين المسلمين: كالشيوعية، والاشتراكية، والوجودية والقومية، والوطنية، والإباحية ...، وتمكين أصحاب تلك الاتجاهات من مراكز القيادة والتوجيه.

– العمل بكل وسيلة على عرقلة النهضة الإسلامية فكرياً وسياسياً واقتصادياً وعسكرياً لتبقى بحاجة إلى الغرب .

والملاحظ أن الاستشراق أصبح مرادفا للتنصير والاستعمار ونلمس ذلك من خلال قرار إنشاء كرسي اللغة العربية في جامعة كامبردج عام 1636 فقد نص صراحة على خدمة هدفين أحدهما تجاري والثاني تنصيري :« ... نهدف إلى تقديم خدمة نافعة إلى الملك والدولة عن طريق تجارتنا مع الاقطار الشرقية وإلى تمجيد الله بتوسيع حدود الكنيسة والدعوة إلى الديانة المسيحية بين هؤلاء الذين يعيشون في ضلمات » [46]، ولا يتم لهم ذلك إلا بالسيطرة على العالم الاسلامي وإستغلال أرضه وإستعباد الناس لخدمة الاقتصاد الغربي[47].

ثالثا: أراء المستشرقين في العقيدة الاسلامية :

أ– اليهود والاستشراق :

إن اليهود من أشهد أعداء الاسلام وأكثرهم مكر ودهاءاً، قال الله تعالى «لَتَجِدَنّ أَشَدّ النّاسِ عَدَاوَةً لّلّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنّ أَقْرَبَهُمْ مّوَدّةً لّلّذِينَ آمَنُواْ الّذِينَ قَالُوَاْ إِنّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنّ مِنْهُمْ قِسّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ» سورة المائدة : الاية 82.

وقد واجهوا المسلمين بألوان من الكيد والتآمر والتأثير في المشركين والتأثير على المسلمين وإستخدموا وسيلة النفاق ضمن وسائلهم الكثيرة، وقد كان تاريخ الاسلام حافلا بمؤامراتهم [48].

لكن من أخطر المجالات التي دخلها اليهود هي الاستشراق حيث أرادو أن يسددوا إلى الإسلام ضربة في الصميم، من خلال التشكيك في أهم دعامتين هما القرآن والسنة والتشكيك في صحة نبوة الرسول ﷺ ثم التشكيك في السيرة النبوية والتاريخ الاسلامي.

دخل اليهود مجال الاستشراق بإخفائهم الدائم للديانة اليهودية وارتدائهم لأثواب مختلفة، فلقد ارتدوا ثوب الجنسية الأوروبية تارة، والنصرانية تارة , والإسلام تارة أخرى، ويعد يوحنا الاشبيلي أول المستشرقين اليهود وإسمه الحقيقي هو يوحنا بن داود عاش في القرن الثاني عشر كان له دورا في التنصير فقد اعتنق المسيحية وأخفى اليهودية وقام بترجمة سور من القرآن[49] ، فخدعة الإخفاء هي أشهر ما استخدمه اليهود في صراعهم ضد المسلمين، فلقد جاء في أحد بروتوكولات حكمائهم ما نصه:« إن الغاية تبرر الوسيلة... يجب أن لا نلتفت إلى ما هو خير

وأخلاقي بقدر ما بلتفت إلي ماهو ضروري ومفيد... يجب أن يكون شعارنا كل وسائل العنف والخديعة... »[50] .

يقول الباحث محمود حمدي زقزوق : « لم يرد اليهود أن يعملوا داخل الحركة الاستشراقية بوصفهم مستشرقين يهود حتى لا يعزلوا أنفسهم وبالتالي يقل أثرهم، ولهذا عملوا بوصفهم مستشرقين أوربيين , وبذلك كسبوا مرتين : كسبوا أولا فرض أنفسهم على الحركة الإستشراقية كلها , وكسبوا ثانية تحقيق أهدافهم من النيل من الإسلام وهي أهداف تلتقي مع أهداف غالبية النصارى » ، ومنهم أيضا صموئيل زويمر ولعله أخطرهم فقد كتب العديد من المؤلفات الإسلامية، وهو مؤسس مجلة العالم الإسلامي عام 1911 م ترأس وأدار العديد من مؤتمرات التبشير [51] .

ففي مؤتمر القدس التبشيري عام 1935م وقف يقول :« مهمة التبشير التي تربيكم لها الدول المسيحية في البلاد الإسلامية ليست في إدخال المسلمين في المسيحية, فإن في هذا هداية لهم وتكريما، وإنما مهمتك هي أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوق لا صله له بالله ، وبالتالي لا صله له بالأخلاق التي تعتمد عليه الأمم في حياتها »، وفي كتابه "العالم الإسلامي اليوم " يقول : «تبشير المسلمين يجب أن يكون بواسطة رسول من أنفسهم ومن بين صفوفهم لان الشجرة يجب أن يقطعها أحد أعضائها »، وكتب مخاطبا المستشرقين : «إنكم أعددتم نشأ لا يعرف الصلة بالله ولا يريد أن يعرفها، وأخرجتم المسلم من الإسلام و لم تدخلوه في المسيحية وبالتالي جاء النشء طبقا لما أراده الاستعمار ... » .

ومن المستشرقين اليهود أيضا فون جرونباوم وهو مستشرق ألماني ألف عديدا من الكتب الإسلامية منها : "الأعياد المحمدية"، "دراسات في تاريخ الثقافة الإسلامية"، فهذا المستشرق اليهودي إمتلأت كتبه بالاعتداءات الصارخة على الإسلام والمسلمين، ومن بينهم أيضا جولد زيهر وهو مستشرق مجري يعد زعيم علماء الإسلاميات في أوروبا بلا منازع، وكتابه " تاريخ مذاهب التفسير الإسلامي"، يعد أشهر المراجع المعترف بها عند الأوروبيين، وهو الآخر يهودي متعصب ساهم في تلويث المناخ الفكري في العالم الإسلامي ساند هذا المستشرق الفكر البهائي، وهناك جوزيف شاخت** أحد كبار اليهود المستشرقين، ادعى بأن الشريعة الإسلامية لا تختلف عن أعراض الجاهلية، وقد عبر جولد تسيهر عما سماه إختلاف النص القرآني ست عشر مرة في ثمانية وعشرين سطر متوالية[52] .

يذكر الباحث عبد الله التل أنه ليس من قبيل المصادفة أن نجد أكبر المستشرقين منذ أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين هو اليهودي جولد تسيهر، الذي كرس حياتاه للطعن في الاسلام ونبي الاسلام وقرآن الاسلام، بأسلوب علمي مقنع، وليس من قبيل الصدفة أن يكون من أكبر المبشرين واخطرهم طوال النصف الأول من القرن الشرين هو اليهودي صمويل زويمر، الذي كان يدير عملية التبشير في العالم الاسلامي كله ومعه عشرات المستشرقين والمبشرين من اليهود [53] .

إن هناك الكثير من بين علماء المسلمين ومفكريهم من تاثر بالمستشرقين، ومازالت أمتنا الإسلامية حتى هذه اللحظة تعيش آثار هذه الغزو الفكري الذي أحدثه الاستشراق والمستشرقون ولا سيما اليهود منهم .

ب – المستشرقون والقرآن الكريم :

إدعى بعض المستشرقين أن القرآن مأخوذ عن النصرانية واليهودية وأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد إقتبس أفكاره من النصرانية واليهودية، فقد ذكر تيودور نولدكه في كتابه "تاريخ القرآن" أن القرآن في معظمه من أصل يهودي، وسبب ذلك هو وجود جماعات من اليهود في يثرب كما أن اليهود كانوا يترددون على مكة ايضا [54].

من بين المستشرقين الذين طعنوا في القرآن الكريم أيضا جون وانسبروغ الذي ألف كتاب بعنوان " الدراسات القرآنية: مصادر ومناهج التفسير للكتاب الديني"، ذكر فيه أن القرآن تطور تدريجيا في القرنين الثامن والتاسع الميلاديين من أصل روايات شفوية عن طريق تعديلات جرت عبر قرنين حتى أخذ شكله الحالي، وصادف ذلك بروز التفاسير القرآنية، وكانت هذه العملية مماثلة لما حدث في تقويم الكتاب المقدس لليهود[55].

على أن أول المستشرقين الذين طعنوا في القرآن الكريم هو شاخت واستاذه جولد تسيهر وهذا الاخير إمتدت أراءه الخبيثة إلى الحديث ايضا، بينما يذكر شاخت عن القرآن الكريم: إنه لم يكن مصدرا للشريعة الإسلامية قبل القرن التاسع عشر الميلادي[56] .

على أن هناك من بين المستشرقين المنصفين من كذب إدعاءات شاخت وجولد تسيهر حول القرآن الكريم، منهم المستشرق شيبس فقد قال :«يعتقد بعض العلماء أن القرآن كلام محمد وهذا هو الخطأ المحض فالقرآن هو كلام الله تعالى الموحى على لسان رسوله، وليس في

إستطاعة محمد ذلك الامي في تلك العصور الغابرة أن يأتينا بكلام تحار فيه عقول الحكماء ويهدي به الناس من الضلمات إلى النور... » أما الباحثة لورا فيشيا فاغليري فتقول في كتابها " دفاع عن الاسلام " « كيف يكون هذا الكتاب المعجز من عمل محمد وهو الأمي الذي لم يقل طوال حياته غير بيتين أو ثلاثة لا ينم منهما عن أدنى موهبة شعرية»[57] .

المعلوم أن عدد من من المستشرقين قام بترجمة معاني القرآن الكريم منهم المستشرق الانجليزي جورج سيل 1697-1736، والذي وضع لها مقدمة قال فيها أن محمد (ص) « هو من ألفه وساعده أحد من حكماء عصره من بني قومه أو من اليهود والنصارى »، على أن أولى الترجمات تلك التي أمر بها بطرس المحترم في القرن12 الميلادي، والمترجم وهو روبرت الكلوني لم يكن أمينا فقد أغفل بعض المفردات بالاظافة إلى الاخطاء الجسيمة التي وقع فيها ، ثم قام روبرت كينت بمساعدة رجل عربي بترجمة القرآن، وقد يكون هذا المساعد من المسلمين المرتدين [58] .

إهتم المستشرقون أيضا بكتب التفسير التي تخص الفرق الضالة مثل المعتزلة حيث ألف المستشرق الإيطالي جويدي كتاب "شرح المعتزلة للقرآن"، والمستشرق الروسي "سيمينوف" كتاب "القرآن في نظر الإسماعيليين"، لكن الأكثر شيوعاً في هذا المجال هو كتاب " مذاهب التفسير الإسلامي" للمستشرق المجري جولد تسهير.

ج – المستشرقون والسنة النبوية :

توجه المستشرقون إلى دراسات الحديث النبوي في وقت متأخر بعد أن أمضوا وقتا في الدراسات التاريخية والادبية، ومن أهم وأخطر الدراسات ما قام به الالماني إجناس جولد تسيهر سنة 1890 حيث أصدر كتاب بعنوان "دراسات إسلامية"الذي أصبح مرجعا للباحثين [59].

إتهم جولد تسيهير أبو هريرة والامام الزهري بأنهم وضعوا الاحاديث وأن أمراء بنو أمية إستغلوا دهائهم في إجبار الامام الزهري على وضع أحاديث مغلوطة عن النبي ﷺ، وقد فند مصطفى السباعي ذلك وأكد أن هذا المستشرق إستغل رواية لإبن عساكر وإبن سعد وحملها لغير موضعها من أجل الطعن في الاحاديث، فقد ذكر إبن عساكر أن هشام بن عبد الملك طلب من الزهري أن يملي على ولده أربعمئة حديث ليكتبها فيحفضها وان الامام الزهري كان يرفض كتابة الحديث من أجل أن يحفضها الناس في صدورهم، وعندما خرج من عند الامير

قال " يا أيها الناس إنا كنا منعناكم أمرا بذلناه لهؤلاء الامراء وإن هؤلاء الامراء أكرهونا على كتابة الاحاديث، فرأينا أن لا نمنع أحد من المسلمين ،فتعالوا حتى أحدثكم بها " [60] .

وكان هدف هذا المستشرق من وراء ذلك الطعن في أعظم رواة الحديث من جهة، ومن جهة ثانية الطعن في صحة العقيدة الاسلامية القائمة على الكتاب والسنة، بل ويشكك المسلمين في تاريخهم من خلال إتهام الدولة الاموية بتلفيق الاحاديث وتحريف العقيدة الاسلامية .

بعد ذلك جاء مستشرق أخطر من تسيهر هو شاخت الذي أمضى عشرة أعوام في دراسات الاحاديث والفقه الاسلامي ونشر بحوثه في كتاب بعنوان "اصول الشريعة المحمدية " ، وكان خلاصة ما وصل إليه أنه ليس هناك حديث واحد صحيح وخاصة الاحاديث الفقهية، وأصبح هذا الكتاب مرجعا للباحثين ونال شهرة واسعة .

وتعتبر تأثيرات كل من جولد تسيهر وشاخت عظيما في المسشرقين فقد وصف المستشرق جب كتاب جولد تسيهر بأنه سيصبح المرجع الاول للأبحاث عن الحضارة الاسلامية والتشريع على الاقل في الغرب، أما نظرية شاخت التي وضعها في كتبه فقد أثرت في جميع المستشرقين ومنهم : أندرسون، روبستون، فيزجرالد، كولسون، بوزورت وغيرهم، بل وأثرت في الكثير من المسلمين المتاثرين بالحضارة الغربية [61]، كما تأثر بعض المسلمين بهذه الافكار المسمومة فقد ظهرت طائفة في الهند تدعى" أهل القرآن " تنادي بعدم الاحتجاج بالحديث[62].

ولم يكتف المستشرقون بالطعن في صحة نسبة الاحاديث النبوية إلى الرسول مباشرة بل طعنوا في شخص الرسول ومن وهؤلاء وليام بدول (1516م-1632م) الذي ظهرت له كتابات امتلأت بالحقد على الإسلام والرسول صلى الله عليه وسلم [63]، وينقل إدوارد سعيد عن نورمان دانيال في كتابه " الإسلام والغرب "، بأنّ النبي محمد صلى الله عليه وسلم ينظر إليه في الغرب بأنه نبيٌّ الوحي الكاذب [64].

لكن هناك من المستشرقين انفسهم من إنبرى دفاعا عن الحديث النبوي، فهذا موريس جودفري ديمونبنين في كتابه : "القوانين الاسلامية" قال عنه: «هو المصدر الثاني للقانون الاسلامي، يبدو أنه إلى يومنا لا ينضب من المواد المسجلة لدراسة القانون ...إنها وثائق في غاية الامتاع والفائدة »، ومنهم ايضا غوستاف جرونبوم في كتابه "الاسلام في العصور الوسطى" : إن المثل الذي يجب الاقتداء به هو النبي ﷺ، ومن حيث أن القرآن لا يورد التعليمات التفصيلية

اللازمة لتطبيق نصوصه كانت سنة النبي هي التي كانت تملأ الفراغ وتحوي التفصيل اللازم، ويذكر الباحث إ – س تريتون في كتابه : " الاسلام عقيدة وعمل " « يعتبر محمد المثال الذي يجب أن يحذو حذوه المؤمنون، فالذين آمنوا بجد أردو أن يعرفوا كل تفاصيل حياته حتى يتسنى لهم إتباعه أ فالقوانين في القرآن لا تأتي التفاصيل الكافية لتنظيم الحياة في الدولة الاسلامية ... ومن هنا جاء الاهتمام بتدوين الاحاديث وجمها وتبويبها.»[65] .

ومن الباحثين من يؤدي به البحث المخاص إلى الاهتداء إلى الاسلام، كما فعل المستشرق الفرنسي إتيان ديني الذي عاش في الجزائر وأعجب بالاسلام فاسلم وتسمى بناصر الدين ديني، والف كتاب عن سيرة الرسول ﷺ، والمستشرق المجري عبد الكريم جرمانوس الذي إعتنق الاسلام في الهند، ومنهم موريس بوكاي الطبيب الفرنسي صاحب كتاب : دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، والمستشرق الاسباني سيمون هايك [66]، ومن بينهم أيضا مراد هوفمان الذي ألف كتاب : "الإسلام كبديل"، والفيلسوف الفرنسي رينيه جينو الذي أصبح إسمه عبد الواحد يحيى حيث قال: « أردت أن أعتصم بنص لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فلم أجد بعد دراسة عميقة، سوى القرآن الكريم».

وعلى العموم فإن بعض المستشرقين ربما المنصفين منهم يعتبرون محمد "صلى الله عليه وسلم" نبي العرب بينما معظمهم يعتبرونه شخصية إصلاحية، وقلة منهم من دخل في الاسلام، أما الحاقدين منهم فهم يحاولون النيل من الاسلام قدر المستطاع، فهم يبحثون عن الثغرات وربما يختلقونها، ويطعنون في أعمدة العقيدة الاسلامية المتمثلة في الكتاب والسنة، ويعملون على إحياء الافكار المشوهة والفرق الظالة والثورات والحوادث السيئة التي حدثت في التاريخ الاسلامي، ويدافعون عنها ويعتبرونها معبرة عن آراء إسلامية مبتكرة وأصيلة وأنها تعرضت للإضطهاد والتشويه من طرف الدول الاسلامية.

الهوامش:

(I) الرازي محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، مختار الصحاح، تحقيق محمود خاطر، بيروت، مكتبة لبنان ناشرون، 1986، ص 142.

(2) الفيروز آبادي محمد بن يعقوب مجد الدين، القاموس المحيط، تحقيق محمد نعيم العرقسوسي، بيروت، مؤسسة الرسالة، 2005، ط8، ص 879.

(3) مصطفى إبراهيم وآخرون، المعجم الوسيط، ج1، القاهرة، مجمع اللغة العربية، ط4 ،2004، ص482.

(4) النعيمي عبد الله محمد الامين، الاستشراق في السيرة النبوية ، فرجينيا الولايات التحدة الامريكية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1997، ص15-16.

(5) الميداني عبد الرحمان حسن حبنكة، أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها التبشير الاستشراق الاستعمار، دمشق، دار القلم، ط8 ،2000 ، ص 53.

(6) الزيادي محمد فتح الله، الاستشراق أهدافه ووسائله، دمشق ،دار قتيبة، ط2 ،2002، ص 16-17.

(7) الضاهر سليمان أحمد، لاهوت يوحنا الدمشقي(دراسة تحليلية في كتاب "المئة مقالة في الإيمان الأرثوذكسي") كتاب طبع بمناسبة القدس عاصمة الثقافة العربية ، ص 734-735، لامنس هنري ،"أسرة القديس يوحنا الدمشقي"، مجلة المشرق ،العدد 29، بيروت، 1931، ص482-483.

(8) السباعي مصطفى ،الاستشراق والمستشرقون، بيروت، المكتب الإسلامي، ط2، 1979 ص14-17.

(9) سعيد إدوارد، الاستشراق، ترجمة محمد عناني، القاهرة، رؤية للنشر والتوزيع، 2006، ص 80.

(10) السباعي مصطفى، المرجع السابق، ص 14.

(11) الفيومي محمد إبراهيم، الاستشراق رسالة إستعمار ،ـــبيروت، دار الفكر العربي 1993، ص30.

(12) الحاج ساسي سالم، نقد الخطاب الاستشراقي، ج1، بيروت، دار المدار الإسلامي، 2002، ص 107

(13) زقزوق محمود حمدي ،الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، بيروت، دار المعارف، 2008، ص30 .

(14) بدوي عبدالرحمن، موسوعة المستشرقين، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر 2003، ط4، ص 248 .

(15) مراد يحيى، معجم أسماء المستشرقين، بيروت، دار الكتب العلمية،2004، ص44 .

(16) الحاج ساسي سالم، المرجع السابق، ص 91 .

(17) مراد يحيى، المرجع السابق، ص 45

(18) الحاج ساسي سالم، المرجع السابق، ص63.

(19) زقزوق محمود حمدي، المرجع السابق، ص 41 .

(20) الغزالي محمد، دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين، القاهرة، نهضة مصر، ط7، 2005، ص 3.

(21) أحمد عبد الرزاق، فلسفة المشروع الحضاري ،ج1، هرندن، فرجينيا ، الولايات المتحدة الامريكية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ، 1995، ص162.

(22) سعيد إدوارد، المرجع السابق، ص 286-288.

(23) الفيومي محمد إبراهيم، المرجع السابق، ص61.

(24) نفسه، ص44، 58.

(25) السباعي مصطفى، المرجع السابق، ص 15-16 .

(26) النملة على بن إبراهيم، " الاستشراق والقرآن الكريم"، مجلة البحوث والدراسات القرآنية، ، العدد الثالث، السنة الثانية ،جانفي 2007،ص 209- 210.

(27) السباعي مصطفى، المرجع السابق، ص 21-23.

(28) الميداني عبد الرحمان حبنكة، المرجع السابق،ص 53 -54

(29) روش ليون، ثلاثون سنة في رحاب الإسلام مذكرات ليون روش في رحلته إلى الحجاز، ترجمة محمد خير محمود البقاعي، بيروت، جداول للنشر، 2011، ص 09- 14، وحول رد الامير عبد القادر أنظر مخطوط بخط يد الامير بعنوان : " حسام الدين لقطع شبه المرتدين ".

(30) الفيومي محمد إبراهيم، المرجع السابق، ص81

(31) نفسه: ص87.

* قيل بأن اصوله تعود إلى يهود الدونمة.

(32) الفيومي محمد إبراهيم، المرجع السابق، ص89- 90.

(33) السباعي مصطفى، المرجع السابق، ص 25-36.

(34) بهاء الدين محمد، المستشرقون والحديث النبوي، عمان الاردن، دار النفائس، 1999، ص35.

(35) بدوي عبد الرحمن، المرجع السابق، ص334-339 ، مراد يجي، المرجع السابق، ص 537-530.

(36) زقزوق محمود حمدي، المرجع السابق، ص44- 46، حميش سالم، "الاستشراق والعقد الاستعماري "، مجلة الاجتهاد، عدد 23، بيروت، 1994، ص 200- 207 .

(37) سعيد إدوارد، المرجع السابق، ص 288-286.

(38) نفسه، ص146، 121، زقزوق محمود حمدي، المرجع السابق، ص46-47.

(39) عمايرة إسماعيل أحمد، المستشرقون وتاريخ صلتهم بالعربية، بحث في الجذور التاريخية للظاهرة الاستشراقية، عمان الاردن، دار حنين، ط2، 1992، ص 51

(40) بوسكي وشاخت، مختارات من كتاب سنوك هرجرونيه نشرها، لندن مؤسسة برايل 1957م، ص 267.

(41) ساسي سالم الحاج ، المرجع السابق، ص37

(42) العقيقي نجيب، المستشرقون، مصر، دار المعارف، 1964،ج 3، ص1156-1157.

(43) عاشور سعيد، بحوث في تاريخ الإسلام وحضارته، القاهرة ،عالم الكتب، 1987, ص12, أبو خليل شوقي، أضواء على مواقف المستشرقين والمبشرين، طرابلس ليبيا، جمعية الدعوة الاسلامية ،1992, ص264.

(44) النعيمي عبد الله محمد الامين، الاستشراق في السيرة النبوية، فرجينيا، الولايات التحدة الامريكية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1997، ص18.

(45) السباعي مصطفى، المرجع السابق، ص 21-23

(46) النعيمي عبد الله محمد الامين، السابق المرجع، ص19.

(47) الميداني عبد الرحمان حسن حبنكة، المرجع السابق، ص 130-131

(48) نفسه، ص 28.

(49) بدوي عبد الرحمن، المرجع سابق ،ص 631.

(50) التونسي محمد خليفة، الخطر اليهودي بروتكولات حكماء صهيون، ترجمة عباس محمود العقاد، بيروت، دار الكتاب العربي، ط4، ص116-118.

(51) التل عبد الله: جذور البلاء، ج1،، بيروت، دار الارشاد، ص 187-203، زقزوق محمود حمدي: المرجع السابق، ص 52-54.

** مستشرق ألماني مختص في الفقه الاسلامي يعد الخبير الاول في الشريعة الاسلامية كتب ابحاثا كثيرة في الفقه وترجم العديد من الكتب العربة وشارك في تحرير دائرة المعارف الاسلامية، من أهم كتبه كتاب "أصول الشريعة المحمدية"، أنظر : بهاء الدين محمد :المرجع السابق، ص19.

(52) جبل محمد حسن حسن، الرد على المستشرق اليهودي جولد تسيهر في مطاعنه على القرءات القرآنية، القاهرة، جامعة الازهر، ط2، 2002، ص 15

(53) التل عبد الله، المرجع السابق، ص 298.

(54) تيودور نولدكه، تاريخ القرآن، ترجمة جورج تامر وآخرون، هلدسهايم، زيورخ، المانيا، دار النشر جورج ألمز،، ط4، 2000، ص 7-8

(55)J. Wansborough: Qur'anic Studies, Sources and Methods of Scriptural Interpretation, Oxford, 1977, pp.42-45

(56) ibid, p44

(57) النملة على بن إبراهيم ،المرجع السابق ، ص 206.

(58) العسري محمد عبد الواحد، الاسلام في تصورات الاستشراق الاسباني من ريموندس لولوس إلى أسين بلاثيوس، الرياض، مكتبة الملك عبد العزيز العامة ،2003، ص 122.

(59) محمد بهاء الدين، المرجع السابق، ص19.

(60) السباعي مصطفى، السنة ومكانتها في التشريع الاسلامي، دمشق، المكتب الإسلامي، ط2، 1982، ص 221.

(61) بهاء الدين محمد، المرجع السابق، ص20-22.

(62) نفسه، ص34

(63) بدوي عبد الرحمن، المرجع السابق، ص 252.

(64) سعيد إدوارد، المرجع السابق، ص62

(65) بهاء الدين محمد، المرجع السابق، ص31-32

(66) الميداني عبد الرحمان حسن حبنكة، المرجع السابق، ص 132-134.

معاهدة الصلح والسلام بين بريطانيا العظمى والجزائر 1682م
من خلال وثيقة أصلية

أ/ قرباش بلقاسم
جامعة معسكر

تعتبر الوثائق الرسمية حقائق صادقة في كتابة التاريخ، ومن خلالها يمكن الكتابة بنوع من الموضوعية، في حين أن الاعتماد على مجرد شهادات الأفراد ورواياتهم يجعل من التاريخ يميل إلى الأدبية في الطرح، ويؤدي إلى نتائج ذاتية تنقص من قيمة أي عمل مهما كانت نتائجه التاريخية.

وتبرز أهمية الوثيقة التي بين أيدينا في كونها طبعت بأمر من الملك البريطاني تشارلز الثاني، كما أنها تعبر عن العلاقات الرسمية بين انجلترا والجزائر، وتدحض الكثير من الادعاءات التي جاءت بها روايات ورحلات الأفراد.

I- العلاقات الجزائرية البريطانية:

إن العلاقات البريطانية الجزائرية قبل سنة 1581؛ تميزت بالطابع الغير رسمي في مضمونها، وأغلب ما كتب قبل هذه الفترة ارتبط بالدولة العثمانية، "ككتابات موريسون *Moryson*، ساندرسون *Sanderson*، بيديلف *Biddulph*، ليقاو *Lighgow* ، باونت *Bount* وآخرون، هذا الشح في مصادر المعلومات عن المغرب الإسلامي، يمكن أن نرجعه إلى اهتمام الكتاب الانجليز بالدولة العثمانية أكثر من اهتمامهم بمنطقة المغرب الإسلامي، خاصة وأن الشرق كان يعتبر منطقة تجارية تستقطب إليها التجار الإنجليز".[1]

ولكن بعد إنشاء شركة المشرق بأمر من الملكة إليزابيث الأولى سنة 1581؛ أصبحت هذه العلاقات تكتسي طابعا رسميا، كما سمحت للانجليز بالدخول إلى البحر المتوسط بشكل أكبر، ففي سنة 1683 منح الداي حسان آغا للتاجر توماس سينغلتون *Thomas singleton* جواز سفر جاء فيه "نحن حاكم ونائب مملكة الجزائر حسان آغا[2]، منحنا وأهدينا جواز سفر للتاجر توماس سينغلتون وبحارته، ولسفينته الحرية في القدوم والمغادرة من الميناء، كما لها الحرية

التامة في التجارة بالمدينة، وفي كل المناطق التي تخضع لسيطرتنا؛ من الشرق وإلى الغـــرب... ونحن نأمر بحارتنا وقباطنة المشرق إن حدث وأن صادفتم التاجر توماس في بحار جنوة؛ فرنسا؛ نابلي، البليار، سردينيا مع سفينته وسلعه ورجاله؛ مـــن أي أمـــة كـــانوا أن لا تتعرضـــوا لممتلكاتهم... وأن تدعوهم يمرون في طريقهم ولا تعيقوهم... وقعت في قصر الداي 23 جوان 1583".[3] ومن خلال هذه الرسالة نستشف أن العلاقات بين الجزائر والرعايا الغربيين كانت تتخذ طابعا رسميا وحميميا، ما دام هؤلاء الرعايا يحترمون القوانين البحرية المفروضـــة علـــيهم آنذاك.

لقد كانت العلاقات الجزائرية الانجليزية بعد إنشاء شركة المشرق تدار من قبل القنصـــل الانجليزي في اسطنبول، باعتبار أن الانجليز لم يعينوا لهم قنصلا في المدينة، وهذا مـــا توضـــحه الرسالة التي وجهها القنصل البريطاني في اسطنبول إلى داي الجزائر سنة 1583، وحتى فيما بعد أوكلت مهمة تعيين القناصل الانجليز في المناطق التابعة للعثمانيين لشركة المشرق.

بعد وفاة إليزابيث الأولى أعلن خليفتها، جيمس الأول أن زمن الحرب قـــد انتـــهى، و لم يكتف بتوقيع السلام مع اسبانيا بل أنه أيضا أعطى نفوذا وسمعة إلى السفير الاسباني في البلاط الأنجليزي. ومن الطبيعي أن هذا التحول سرعان ما لوحظ في الجزائر... والسفير الانجليزي مثله مثل نظيره الفرنسي بعد أن وقع هنري الرابع السلام مع اسبانيا، وجد نفسه لا يستطيع الضغط على (السلطات العثمانية) لوقف النهب "غير الشرعي" للسفن الانجليزية من قبل رياس شمال إفريقيا. ذلك أن سلطة السلطان لم تعد تحمي بسهولة سفن الدول التي يفترض أنها صـــديقة لنظامه والتي هي في نفس الوقت في سلام مع اسبانيا.[4]

ويضاف إلى هذه المشاكل أن العديد من القراصنة الانجليز الذين كـــانوا يتبعـــون الملـــك الانجليزي، انفصلوا عنه وانظموا إلى الجزائر بعد أن أعلن الصلح مع الاسبان، حيث أصبح من غير المسموح لهم التعرض للسفن الإسبانية، بعد أن كانوا يحصلون على مداخيل هائلـــة مـــن نشاطهم ضد السفن الاسبانية المحملة بالذهب والفضة القادمة من أمريكا، أصبحوا مجرد قـــادة سفن مهمتهم تنحصر في حراسة المضائق والشواطئ التابعة للملك الانجليزي، ولعـــل أشـــهر هؤلاء القراصنة هو ذلك الذي يسمى وارد *Ward* الذي انضم إلى تونس سنة 1604.[5]

بعد هذا التاريخ شهدت العلاقات بين الانجليزية الجزائرية فترة من اللاإستقرار، فقد تعرضت العديد من السفن الانجليزية لهجمات البحارة الجزائريين، ففي رسالة إلى البرلمان الانجليزي سنة 1640، ذكر فيها أن ثلاثة آلاف أسير إنجليزي يتواجدون في مدينة الجزائر " بكثير من الجوع، والقسوة المفروضة على أجسادنا العارية، تخلى الكثير منا عن دينه وانظم إلى دين الشيطان الوثني".[6] وفي الفترة الممتدة بين 1628-1634 تمكنت السفن الجزائرية من أسر 80 سفينة تجارية فرنسية تضم 968 أسير، وأما بين سنتي 1628-1641 فقد أخذ الجزائريون 131 سفينة انجليزية؛ تضم 2555 أسيرا. رغم أن الطرفين عقد معاهدة صلح سنة 1622، إلا أن العلاقات استمرت في التدهور.

أدت هذه العمليات البحرية المتلاحقة إلى إلحاق أضرار كبيرة بالاقتصاد الانجليزي، فرض على الإنجليز التفكير مليا في دعم أنفسهم بالبحر المتوسط، وتوجيه حملة تأديبية ضد المدينة، تحفظ لإنجلترا تجارتها، لكن ذلك كان يعتبر مستحيلا خلال النصف الأول من القرن السادس عشر؛ فالانجليز كانوا يحتاجون إلى قواتهم لمواصلة حربهم في أوربا الأكثر أهمية "حرب الثلاثين سنة"؛ حيث أنه وبمجرد نهايتها وجه الملك البريطاني حملة إلى سواحل المغرب الإسلامي.

ففي سنة 1653 جاء روبير بلاك إلى البحر المتوسط؛ على رأس عمارة انجليزية محكمة التنظيم. كان يقود عمارتها من على متن سفينته سان جورج ذات الستين مدفعا والمائة والخمسين رجلا... وفي أوائل سنة 1654 وصل سواحل المغرب الإسلامي ليثأر للاعتداءات التي تتعرض لها السفن الانجليزية من قبل رياس الجزائر وتونس وطرابلس... واستطاع أن يدخل ميناء الجزائر دون مقاومة تذكر، وطلب من الباشا محمد أن يطلق سراح كل الأسرى المسيحيين، فقدم له الباشا هدية ثمينة تتمثل في قطيع من الحيوانات، وتعهد بإطلاق صراح الأسرى مقابل فدية مخفضة.[7]

لقد مثلت المعاهدة التي بين أيدينا مخرجا من الأزمة بالنسبة لكلتا الدولتين، فالإنجليز أرهقوا من جراء العداء للجزائريين، رغم أنهم حاولوا "تأديبهم" إلا أنهم فشلوا في كل مساعيهم، فالتجارة الانجليزية تضررت بشكل واضح " ففي الفترة الممتدة بين سنتي 1672-1682 أسر الجزائريون 353 سفينة بريطانية؛ وكل سنة كان يتعرض بين 290 و430 إنجليزي للأسر"[8]، ويذكر السيد النبيل دنكور الذي كان بالجزائر سنة 1681 أن الجزائريين أخذوا في ثلاث أو أربع سنوات أكثر من 150 سفينة وأسروا أكثر من 8000 إنجليزي.[9]

ويذكر مورغان أن الجزائريين استطاعوا أسر 160 سفينة صغيرة وكبيرة تعود للملك البريطاني في الفترة الممتدة بين جويلية 1677 وأكتوبر سنة 1680.[10] وأما بالنسبة للجزائريين فالمعاهدة كانت تعني استمالة الإنجليز أو على الأقل كسب حيادهم، في حربهم المعلنة ضد الفرنسيين، "فنحن لا نعرف شيئا عن العمليات الحربية التي قام بها الجزائريون ضد الفرنسيين، كما أننا لسنا مقتنعين بالتفسيرات التي أعطاها المؤرخون الفرنسيون للآثار التي نجمت عن قصف الأسطول الفرنسي، الذي يقوده ديكين، لمدينة الجزائر بالقنابل في صيفي سنتي 1682 و1683، سواء بالنسبة للخسائر أو الأهداف السياسية التي حققتها هاتان الغارتان.[11]

وقد استمرت العلاقات الفرنسية الجزائرية في تدهورها فحتى معاهدتي 1684، 1686، لم تكن لتغير شيئا في العلاقات بين الطرفين، وبهذا فإن عقد معاهدة مع الانجليز يمكنه أن يخفف الضغط الذي استطاعت أن تفرضه فرنسا على الجزائر، ويمنحها مزيدا من الوقت فالجزائريون كانوا يعلمون جيدا أن حصول عداوة مع فرنسا وانجلترا في آن واحد يعني نهاية الإيالة.

2- وثيقة المعاهدة[12]:

وقعت معاهدة السلم والتجارة بتاريخ 9 أفريل 1682، بين بريطانيا العظمى ومملكة الجزائر، بطلب من فخامة الملك البريطاني تشارلز الثاني الذي ناب عنه الأدميرال آرثر هاربرت إسكوير، قائد الأسطول البريطاني في البحر المتوسط، وداي الجزائر بابا حسن (1682-1683).

البند- 1: ضرورة احترام السلم بين إنجلترا والجزائر ، منذ تاريخ توقيع المعاهدة وإلى الأبد، وأن تحترم حياة مواطني كلا الجانبين، وأن لا يتعرض أي نوع من السفن للاعتداء، ومنذ هذه اللحظة لا يتعرض أي طرف بالضرر، الإساءة أو الظلم بالكلام أو الفعل للطرف الآخر؛ وأن تحفظ المعاهدة بكل وسائل الاحترام والصداقة.

البند- 2: لا تتعرض أي سفينة حربية أو أي نوع من السفن أو الرعايا التابعين لملك انجلترا للاعتداء؛ ويكونون آمنين في القدوم إلى ميناء الجزائر، أو أي ميناء تابع للمملكة (الجزائر)، ولهم الحرية في بيع أو شراء السلع على أن تكون التعريفة المعلومة 10%. كالوقت السابق، عن كل المواد التي باعوها أو التي لم يبيعوها، ولهم الحرية في حمل السلع على السفن دون أي يدفعوا أي ضرائب، كما لهم الحق في أن يغادروا في أي وقت يشاؤون وإلى أي مكان

يريدون دون أن يتعرضوا للإيقاف أو العرقلة مهما يكن. أما فيما يخص السلع المهربة؛ كالبارود، الحديد، الخشب، وكل أنواع الخشب المجلوب لصناعة السفن، الحبال، الزفت، القطران، وما يحمل بداعي الحرب فالملك البريطاني لن يدفع عليها أي ضريبة إلى داي الجزائر.

البند– 3: اتفق الطرفان على أن كل السفن التابعة للملك الانجليزي أو لرعاياه؛ ونفس الشيء بالنسبة للسفن المملوكة للدولة أو للأفراد الجزائريين، لها حرية المرور بالبحر المتوسط، والمتاجرة دون أي تفتيش، أو إعاقة وتحرش؛ وكل الأفراد أو المسافرين الخاضعين لبريطانيا أو الجزائر يعتبرون هم وممتلكاتهم وسلعهم آمنين، على أن لا تمس هذه السلع والأفراد في أي موضع من السفينة، وبالطبع لا يأسرون أو يسلبون، أو يتعرضون لأي أذى أو تخريب.

البند– 4: إن التقت سفينة جزائرية حربية أو أي سفينة أخرى من أي نوع؛ بسفينة تجارية أو أي سفينة أخرى تابعة لرعايا الملك البريطاني، و لم يكونوا في مناطق بحرية تخضع لبريطانيا ، يمكن إرسال قارب واحد يحمل مُرَاقِبيْنِ بحيث لا يتعرضان لأي سلع موجودة على ظهر السفينة، وللمراقبين الحق في الاطلاع على جواز السفر المنوح من قبل الأدميرال الانجليزي والايرلندي، أو القائد الأعلى للقوات الأيسلندية، وبهذا فإن هذا القارب له الحرية التامة في المغادرة، وتظل هذه المعاهدة طول خمسين شهرا من توقيعها راسخة ولا تخرق، وإن صادف والتقت أي سفينة تابعة للملك البريطاني أو رعاياه بسفينة جزائرية تغادر بحريّة، لكن وبعد هذا التاريخ (أي الخمسين شهرا) يتوجب على السفن التجارية المملوكة للدولة أو الأفراد، أو حتى السفن الحربية أن تقدم جواز سفر مختوم من قبل الداي، والذي يمنحه بالنيابة عنه القنصل الانجليزي بالجزائر للمرور؛ أما إذا لم تكن تحمل هذه السفن جواز سفر بعد هذا التاريخ تصبح طواقمها ملكا للأتراك والمغاربة، كأسرى بالجزائر، لكن بعد وصولهم إلى المدينة ويتم التأكد بأنهم انجليز يطلق سراحهم مباشرة، ونفس الأمر يتعلق بالجزائريين فإنه وبعد مرور خمسين شهرا من هذا التاريخ، يصبح إلزاما على الجزائريين إظهار جوازات سفرهم للسفن الحربية البريطانية.

البند– 5: لا يحق لأي قائد أو فرد تابع للسفن الجزائرية أن يستولي على السفن التابعة للملك الانجليزي، أو يأسر أي فرد أو أفراد مهما يكن دون أعذار، ودون استخدام أي تعذيب أو عنف ضد مواطني أي أمة مهما كانت جنسيتهم، في حالة تواجدهم على السفن التابع لجلالة الملك البريطاني ودون أي أعذار.

البند– 6: في حال تحطم أي سفينة تابعة لسيادة الملك البريطاني على سواحل الجزائر لا تصبح غنيمة؛ ولا تأخذ الممتلكات التي تحتجز، أو الرجال كعبيد، وعلى سكان الجزائر عمل ما في وسعهم لإنقاذ ممتلكات ومواطني ملك بريطانيا.

البند– 7: لا يسمح لأي سفينة جزائرية أن تتعاون أو تذهب لمدينة سالي[13]، أو إلى أي مكان آخر يعتبر معاديا لجلالة ملك بريطانيا العظمى، لاستخدامهم كقراصنة أو بحارة ضد مواطني بريطانيا العظمى.

البند– 8: لا ترسوا أو تهاجم السفن الكبيرة والصغيرة للجزائر مدينة وحامية طنجة[14] (Tangier)، أو أي طرق، مرافئ و موانئ، والمدن والمناطق التي تتبع جلالة الملك البريطاني، وليعمل كل طرف ما بوسعه للحفاظ على السلم والتجارة.

البند– 9: إذا ما قامت أي سفينة تونسية، طرابلسية أو تعود لقراصنة سالي، أو لأي منطقة أخرى، بجلب أي سفينة كبيرة أو صغيرة، رجال أو ممتلكات تخص رعايا الملك الانجليزي إلى الجزائر أو أي مدينة أو ميناء في المملكة الجزائرية، فبالطبع إن الحاكم لن يقبل ببيعها على المناطق التي تخضع ضمن سلطته.

البند– 10: في حالة قدوم أي سفينة حربية تعود للملك البريطاني محملة بغنائم إلى الجزائر، أو إلى أي ميناء أو منطقة تابعة للمملكة الجزائرية فلها الحق في بيعها، أو التخلص منها دون تحرش من أحد، وطبعا لا يفرض على هذه السفينة دفع أي ضرائب لأي حصن؛ وإذا أرادت أن تتزود بالحاجيات والمؤن أو أي أشياء أخرى، فلها الحرية في شراءها بالتكلفة التي تباع بها في السوق.

البند– 11: عندما تظهر سفينة حربية انجليزية أمام مدينة الجزائر، فيجب إخطار حاكم الجزائر من قبل قائدها أو القنصل الانجليزي في المدينة، والذي يصدر على الفور إعلانا عام بمنح العبيد المسيحيين الأمان؛ وفي حالة هروب أحدهم على ظهر هذه السفينة الحربية، فقائد السفينة ليس مسؤولا عن إرجاع هذا العبد مرة أخرى، ولا يجبر القائد أو القنصل أو أي أحد من مواطني الملك البريطاني بدفع فديته.

البند– 12: منذ تاريخ اليوم وحتى الفترات اللاحقة من تاريخ توقيع هذه المعاهدة من طرف جلالة الملك البريطاني، فإن حاكم الجزائر يؤكد، على أنه لن يبـاع أو يشترى، أو

يستعبد أي من الرعايا الإنجليز في الجزائر أو على أي نطاق يتبع لها، دون أي أعذار. إن الملك البريطاني غير ملزم من خلال معاهدة السلم هذه بتحرير أي من رعاياه حاليا، أو أولئك الذين وجدوا قبل توقيع هذه المعاهدة؛ وبالطبع هذا يعتمد على الملك، أو أصدقاء و علاقات الأفراد المتواجدين بالعبودية، دون أي تحديد أو ضبط للوقت من أجل افتداء الكل، والعديد من هؤلاء سيحررون من وقت لآخر، بثمن مقبول من قبل أسيادهم وملاكهم؛ ودون اختيار الملاك للأفراد الذين يرغبون في تحريرهم، مهما يكن سواء أولائك التابعين للبايلك أو الغاليارات، أو كل من يخضع للباشا، الداي، الحاكم، الآغا، أو لأي فرد آخر مهما كان. وكل العبيد الذين هم رعايا للملك البريطاني؛ عندما يتم افتداؤهم، يتمتعون بامتيازات وفائدة تخصم من قيمة الفداء مباشرة من الخزينة الملكية، ومن الحمولات الأخرى، عن طريق أسعار مقبولة كتلك التي تدفع عند تحرير عبيد الأمم الأخرى.

البند– 13: إذ صادف وتوفي أحد رعايا الملك البريطاني في الجزائر، أو في إحدى المناطق الخاضعة لها، فممتلكاته وأمواله لن يتم احتجازها من قبل حاكم الجزائر أو القضاة، أو أي مسؤول جزائري، وتعود هذه الأموال إلى الموصى إليه من ورثته الذي يجب عليه أن يتواجد في مكان وفاة المُوصِي. وفي حالة عدم تواجده هناك، فإن منفذ الوصية وبطريقة قانونية يقوم بجرد جميع ممتلكات وأموال الميت المتروكة، ويأخذهم تحت وصايته دون أن يتعرض للمضايقات ويكون مسؤولا عليها إلى أن يعطيها للورثة الشرعيين والحقيقيين؛ أما في حالة وفاة أحد الرعايا الأنجليز دون أن يترك أي وصية، فهذه الممتلكات والأموال تصبح ملكا للقنصل الأنجليزي الذي يقوم بجردها؛ ليوزعها على أسرة وورثة الميت فيما بعد.

البند– 14: لا يفرض على أي تاجر من رعايا الملك البريطاني؛ يسكن بمدينة الجزائر أو يتاجر على أراضيها، شراء سلع دون رغبته؛ وبالطبع يعتبر حرا في شراء أي سلعة بما يعتبره ملائما، ولا يفرض على أي قائد أو قبطان سفينة تخص رعايا الملك البريطاني، أن يحمل ممتلكات أو يقوم برحلة إلى أي مكان لا يرغب في الذهاب إليه: ولا القنصل البريطاني في الجزائر، ولا الرعايا البريطانيين الآخرين ملزمين بدفع ضريبة على أي رعية بريطاني، إلا إذا أراد أحدهم أن يتكفل بدفعها.

البند– 15: إذا صادف وأن تتشاجر مواطنو الملك البريطاني في الجزائر أو على أراضيها، لا يحق لأي سلطة قضائية أن تفصل في الأمر ما عدا الداي والديوان، ولكن إن حدث

واختلف الطرفان في إصدار الحكم، لا يحق لهما أن يُدْخِلُوا طرفا آخر للأخذ برأيه باستثناء القنصل الإنجليزي في مدينة الجزائر.

البند– 16: في حالة إذا ما قام أحد رعايا الملك البريطاني في الجزائر بضرب أو جرح أو قتل أحد الأتراك أو الجزائريين؛ وتم القبض عليه فيجب أن يعذب على حسب القانون الجزائري، دون أي قسوة زائدة، وتكون العقوبة على حسب الخطأ المرتكب؛ لكنه وفي حالة إذا ما هرب، فالقنصل الانجليزي ورعايا الملك البريطاني، لا يتعرضون للاستجواب أو الإزعاج.

البند– 17: تمنح الحرية والسلامة الكاملة للقنصل الإنجليزي في الجزائر، في الوقت الحاضر أو مستقبلا في ممتلكاته وأفراده، وبالطبع له الحرية التامة في اختيار عماله وتجاره، وله الحرية في الصعود على سطح أي سفينة راسية على الساحل، كما تمنح له الحرية في مترله الريفي (*The Country*)؛ ويمنح له مكان للصلاة به، ولا يتعرض للأذى بالكلام أو الفعل من أي فرد.

البند– 18: يستمر السلم والصداقة بين الطرفين؛ لكن في حالة إذا ما خرق أو نشبت الحرب مستقبلا بين ملك بريطانيا العظمى والجزائر، فإن القنصل الانجليزي والرعايا البريطانيين المقيمين في مملكة الجزائر، سيكونون دائما وفي كل الأوقات في السلم والحرب، أحرارا في المغادرة إلى ديارهم؛ أو أي بلد يختارونه، وعلى ظهر أي سفينة يرونها ملائمة مهما كانت جنسيتها، محملين بكل ممتلكاتهم، وعائلاتهم وخدمهم، دون أن يتعرضوا للاعتداء أو الإعاقة.

البند– 19: يسمح للمسافرين من رعايا الملك البريطاني، القدوم والمغادرة مع أمتعتهم، من وإلى أي ميناء يرغبون في الذهاب إليه، دون اعتراضهم أو التطفل عليهم، حتى لو كانوا على ظهر سفينة معادية للجزائر؛ ونفس الشيء بالنسبة للرعايا الجزائريين المسافرين المتواجدين على ظهر إحدى السفن المعادية للملك البريطاني، فالأفراد والممتلكات التي تكون محملة على السطح هي آمنة.

البند– 20: إذا ما ظهر ت إحدى السفن الحربية التابعة لجلالة الملك البريطاني في أي وقت أمام مدينة الجزائر، وهي تحمل العلم البريطاني على سطحها ؛ ثم ترسوا على الشاطئ، يتم مباشرة إعلام القنصل الانجليزي، أو يرسل ضابط من السفينة إلى الداي وحاكم الجزائر، وبالطبع احتراما لجلالة الملك البريطاني، تُحَيَّى السفينة بواحد وعشرين طلقة مدفع من قلاع وحصون المدينة، ثم ترد السفينة بنفس العدد من الطلقات.

البند– 21: مباشرة بعد توقيع وختم بنود هذه المعاهدة من طرف الباشا، الداي، الآغا، وحاكم الجزائر، أي اعتداءات أو أضرار تمارس ضد أي طرف، تلغى وتنسى، ويحافظ السلم على كامل قوته وقيمته وتستمر المعاهدة، وكل السلب والضرر الذي يقترف بعد ذلك من كلا الجانبين، وقبل إعلام أي طرف فأي شيء يمكنه يحافظ على السلم يقوم به الطرفان، ومهما يكن يبقى السلم كما ورد مسبقا لا يتغير.

البند– 22: في حالة حدوث أي أمور تعيق تنفيذ هذه المعاهدة مستقبلا؛ سواء من قبل رعايا الملك الانجليزي أو الجزائري، تستمر المعاهدة بنفس قوتها، ولا تمنح أي فرصة لخرق السلم والصداقة، والعلاقات الحميمة مهما حدث، وبالطبع فإن الطرف المذنب سيقوم فورا بتقديم الترضيات اللازمة على الاعتداءات السابقة قبل أن يُخْتَرَقَ السلم قانونيا؛ وإذا ما قام أحد الرعايا الخواص بخرق السلم فإنه يعذب باعتباره كاسر السلم، ومعيقا للهدوء العام. إيماننا سيبقى راسخا وكلمتنا ستبقى كلمتنا.

نؤكد ونختم في حضرة الله العظيم، أن المعاهدة وقعت بتاريخ 9 أبريل 1682، وبالتاريخ الهجري 11 رجب 1093.

النهاية

3– تجديد المعاهدة:

تم تجديد هذه المعاهدة حفاظا السلم سنة 1686، عن طريق السيد وليام ساومس بارت، في طريقه متوجها إلى القسطنطينية، باعتباره سفيرا للملك البريطاني جايمس الثاني إلى السلطان العثماني، وفي سنة 1691 جددت هذه المعاهدة كذلك من طرف توماس باكر دون تعديلات تذكر في كلا المعاهدتين الموقعتين.

أما في سنة 1700 فقد أوكلت مهمة تجديد معاهدة السلم والتجارة السابقة للكابتن ماندن بالاشتراك مع القنصل الانجليزي بالمدينة دون تعديلات تذكر. وفي سنة 1703 قام الكابتن بوني بإضافة بندين للمعاهدة السابقة، ضمت تخفيضات في الضريبة المفروضة على التجار الإنجليز في حالة بيعهم منتوجات في مدينة الجزائر والموانئ الخاضعة لسلطة الداي؛ من 10% إلى 5%. ثم جددت المعاهدة سنة 1716 عن طريق القبطان باكر في طريقه لعقد معاهدة مع داي تونس

وطرابلس، وقد أضيف للمعاهدة أربعة بنود، أهمها تلك التي تتعلق باحترام جزيرة مينوركة ومدينة جبل طارق باعتبارهما أصبحتا ضمن الملكية البريطانية، وأن لا يتعرض الجزائريون لموانئها أو سكانها الذين لهم الحق في المتاجرة والاستقرار في أي منطقة تابعة للجزائر دون التعرض لأي مضايقات. وأما إن كان على ظهر السفينة الانجليزية أي مسافر أو ممتلكات تعود لجزائريين فإن قائد السفينة سيدافع عنهم ولن يسمح بتسليمهم إلى أعداء الجزائر.[15]

الخاتمة:

إن المعاهدة السابقة كانت أهم معاهدة وأطولها بين الجانبين البريطاني والجزائري ، حيث حددت عدة شروط كانت في غالبها تصب لصالح انجلترا، باعتبارها قوة تجارية يجب عليها المحافظة على نشاطها التجاري في البحر المتوسط، وتأمينه من هجمات البحارة الجزائريين. ويضاف إلى هذا أن معاداة الجزائر سيعود بالسلب على الإنجليز خاصة مع الحروب العظمى التي كانت تمر بها أوربا بين سنتي 1688-1714، كما أن الابقاء على قوة بحرية ثابتة في المتوسط يعتبر أمرا مستحيلا في ظل الظروف الراهنة، وحتى القصف كان يكلف أموالا ضخمة تحتاجها بريطانيا في حروبها بأوربا والعالم الجديد.

وإجمالا فإن الوثيقة التي عملنا على ترجمتها تكشف لنا العديد من الملابسات فيما يتعلق بالدعاية والتشهير، كما أعطت لنا معلومات جديدة فيما يتعلق بالعلاقات الدولية في البحر المتوسط، وتأثيراتها وشروط الحفاظ على السلم بين الدول المغاربية والممالك المسيحية.

وقد مثلت المعاهدة شهادة حية فيما يخص الإدعاءات التي ظل الكتاب الغربيون يرددونها، في كون المنطقة تعتبر منطقة فراغ حضاري، وأن حكام الجزائر خلال الفترة العثمانية كانوا مجرد عصابات تحكم المنطقة، حيث لم ترقى لأن تؤسس دولة بالأسس الغربية، فالمعاهدة التي بين أيدينا أعطت دليلا رسميا عن كون الجزائر كانت تملك سياسة خارجية مستقلة، مكنتها من عقد معاهدات خارجية مع دول غربية.

الهوامش:

1 Daniel. j. Vitkus, *Piracy, Slavery, and Redemption, Barbary captivity narratives from early modern England*, Colombia University Press, New York, 2001, p03.

2 حسان "فينيزيتنو 1582 1588 " حاكم الجزائر للمرة الثانية. أنظر: Haedo Fray Diego, *Histoire des rois d'Alger, traduire par H.D. de grammont, Alger: Adolph Jordan, 1881.*

3 Richard Hakluyt, *The principal navigations, voyages, traffiques, and discoveries of English Nation, made by sea or over-land, South and south-East parts of the World, at any time within the compasse of these 1600 years…*, 2nd, George Bishop, Ralph Newbery, Robert Barker, London, 1599.

4 جون.ب.وولف، الجزائر وأوربا، تر. أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986.

5 لمزيد من المعلومات حول الموضوع ينظر: *A true and certain report of the beginning, proceedings, overthrows, and now present stat of Captains Ward and Dansker, the two late famous pirates ; from their first setting forth to this present time*, published by Andrew Barker, London, 1609.

6 Robert. C. Devis, *Cristian slave, Muslum masters, White slavery in the Mediterranean, the Barbary coast and Italy*, Palgrave Macmillan, London, 2003, p21.

7عباد صالح، الجزائر خلال الحكم التركي 1514–1830، ط3، دار هومة، الجزائر،2011، ص 126.

8 Robert. C. Devis, op.cit, p04.

9 مروش المنور، دراسات عن الجزائر في العهد العثماني: القرصنة، الواقع الأساطير، ج2، دار القصبة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص344.

10 Robert Davis, op.cit, p06.

11 جمال قنان، معاهدات الجزائر مع فرنسا 1619– 1830، وزارة المجاهدين، الجزائر، 2007، ص88–89.

12 *Article of Peace and Commerce between the most serene mighty Prince Charles 2, by the grace of God King of Great Britain, France and Ireland, defender of the faith, and the most illustrious Lords, The Bashaw, Dey, Aga, and Governours of the famous City and Kingdom of Algiers in Barbary: concluded by Arthur Herbert, Esquire, Admiral of his Majesties Fleet in The Mediterranean seas: on the Tenth of April, Old Stile, 1682,* Printed by John Bill, Henry Hills, Thomas Newcomb, London, 1682.

13 إحدى المدن المغربية الساحلية، اشتهرت في التاريخ الحديث بممارسة بحارتها للقرصنة بتفويض من الملك المغربي، وقد تأسس جيشها البحري في الغالب من الأندلسيين المرحلين باتجاه السواحل المغربية سنة 1609، كما عرف بحارتها بالكفاءة حيث قارنهم الكثير من علماء التاريخ ببحارة الجزائر. أنظر: Julian S. Corbett, *England in the Mediterranean, A study of the rise and influence of British power within the Straits 1603- 1713*, Vol1, Longmans Green and Co, New-York, 1904.

14 طنجة: مدينة مغربية ساحلية، تمكن الانجليز من وضع حامية بها، بعد أن منحها ملك البرتغال كهدية للإنجليز على أثر زواج الأميرة البرتغالية كاثرين من الملك تشارلز ستيوارت الثاني الذي كان منفيا بفرنسا.

ينظر: John B.Hattendorf, *Naval policy and Strategy in the Mediteranean, Past, Present and Future*, Frank Cass, London, 2000.

15 J. Morgan, *A complete History of Algiers, From the Earliest to the present time*, V2, London, J. Bettenham, 1729, pp 689- 693.

الاستشراق قراءة في الدوافع والأهداف

أ/عبد الكامل عطية
جامعة الوادي

إن مما لا جدال فيه أن الاستشراق له أثر كبير في العالم الغربي وفي العالم الإسلامي على السواء وإن اختلفت ردود الأفعال على كلا الجانبين. ففي العالم الغربي لم يعد في وسع احد أن يكتب عن الشرق أو يفكر فيه أو يمارس فعلا مرتبطا به أن يتخلص من القيود التي فرضها الاستشراق على حرية الفكر أو الفعل في هذا المجال من حيث أن الاستشراق" يشكل شبكة من المصالح الكلية التي يستحضر تأثيرها بصورة لا مفر منها في كل مناسبة يكون فيها ذلك الكيان العجيب (الشرق) موضوعا للنقاش"[1].

وفي عالمنا العربي الإسلامي المعاصر لا يكاد يجد المرء مجلة أو صحيفة أو كتابا إلا وفيها ذكر أو إشارة إلى شيء عن الاستشراق أو يمت إليه بصلة قريبة أو بعيدة [2].

يطلق لفظة الاستشراق على طلب معرفة ودراسة اللغات والآداب الشرقية، ويطلق لفظ المستشرق على الدارس للغات الشرقية وفنونه وحضارته، وعليه الاستشراق دراسة يقوم بها غير الشرقيين لتراث الشرق، هذا من حيث المفهوم الواسع [3].

والذي يعنينا- كما يقول الدكتور محمود حمدي زقزوق- هو«المعنى الخاص لمفهوم الاستشراق الذي يعني الدراسات الغربية المتعلقة بالشرق الإسلامي في لغاته وآدابه وتاريخه وعقائده وتشريعاته وحضارته بوجه عام، وهذا هو المعنى الذي ينصرف إليه الذهن في عالمنا العربي والإسلامي، عندما يطلق لفظ استشراق أو مستشرق، وهو الشائع أيضا في كتابات المستشرقين المعنيين»[4].

هذا ومن خلال استقراء المراجع والدراسات التي تناولت هذا الموضوع، يلاحظ أن المستشرق لابد أن يكون غربيا، ولا فرق بين نصرانيا أو يهوديا أو مسلما، أو ملحدا ينكر الدين من أصله. وان كان السواد الأعظم ممن ركب حركة الاستشراق من غير المسلمين، المهم انه عالم غربي يطلب دراسة علوم الشرق، خاصة الشرق الإسلامي العربي، لكن نجيب العقيقي صاحب الكتاب الموسوعة عن الاستشراق والمستشرقين قد شذ عن هذا الإجماع، حينما ذكر

بعض الرهبان العرب والشرقيين ضمن المستشرقين، وممن عدهم الأب "جورج قنواتي" المولود في الإسكندرية من أصل سوري، والأب هنري "عيرواط" المولود في القاهرة، والأب "نويا" المولود في الموصل بالعراق، وغيرهم إلى أن عد نفسه هو من المستشرقين، مع انه ولد ونشأ وتعلم في لبنان[5].

ويمكننا أن نصنف أسمائهم في شبه ما يسمى "طبقات" على صنفين:

أ- من حيث الزمن: طبقات القدماء مثل: جربر دور بياك، والقديس توماس الإكويني، وطبقة المحدثين مثل: كاره دوقو وجولد تسيهر.

ب- من حيث الاتجاه العام نحو الإسلام والمسلمين لكتاباتهم : فهناك طبقة المادحين للحضارة الإسلامية، وطبقة المنتقدين لها المشوهين لسمعتها[6].

ولقد كان الإستشراق وميدان الدراسات الإستشراقية في بداية ظهوره مقتصرا على دراسة الإسلام وحضارته واللغة العربية وآدابها، ثم بعد ذلك اتسعت مجالات الإستشراق وأصبحت تشمل دراسة الشرق كله: لغاته، أديانه، تقاليده وآدابه، ولكن أهم ما اعتنى به المستشرقون في دراساتهم هو الدين الإسلامي واللغة العربية لأن ذلك مثار اهتمامات المستشرقين الأول والكبير والذي يمثل النزاع الفكري والسياسي والعقائدي الذي يسود عصرنا الحالي[7].

ومن الصعب تحديد تاريخ معين لبداية الإستشراق وإن كان بعض الباحثين يشير إلى أن الغرب يؤرخ لبدء وجود «الإستشراق الرسمي» بصدور قرار مجمع «فينا» الكنسي في عام 1312م بإنشاء عدد من كراسي اللغة العربية في عدد من الجامعات الأوربية. ولكن الإشارة هنا إلى «الإستشراق الرسمي» تدل على انه كان هناك استشراف غير رسمي قبل هذا التاريخ [8].

ففي سنة1130م أنشئت في مدينة طليطلة مدرسة للترجمة تولاها الأسقف«ريموند» أخذت تنقل جلائل الأسفار العربية إلى اللاتينية، وتظارفت على هذا المجهود النبيل قواعد أخرى للترجمة طوال القرون الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر حتى بلغ ما ترجموه من العربية يومئذ ثلاثمائة كتاب اغلبها للرازي وأبو القاسم الزهراوي وابن رشد وابن سينا...وظلت هذه الكتب المنقولة منهاجا للتعليم في جامعات أوربا خمسة قرون ويزيد، واحتفظ بعضها بقوته وقيمته حتى القرن التاسع عشر الميلادي [9].

على أن الاستشراق لم يبقى محصورا في دائرة الانتفاع بعلوم العرب ومدنية الشرق، وإنما خرج عنها إلى أغراض تجارية أو استعمارية فأقبلت الأمم الأوربية القوية بحكم هذه الدوافع تتنافس في تعرف الشرق، وارتياد أقطاره، وكشف أثاره، وفتح كنوزه وإحياء أدبه، وطبع كتبه، وإبراز فنه[10].

ليس ميسورا أن نشير إلى عامل واحد أو عاملين في تفسير الدوافع التي حفزت المستشرقين إلى دراسة تاريخ الإسلام وحضارته. ذلك لان الإستشراق ظاهرة تاريخية معقدة تنوعت دوافعها عبر القرون وتباينت حسب المراحل التاريخية، ولكن الحقيقة تبقى واضحة وهي أن جملة عوامل اشتركت في تحديد معالم الاستشراق ومنطلقاته. ولعل من الدوافع البارزة التي حفزت المستشرقين ما يلي[11].

أولا: الدافع الديني :

لقد لفت نظر النصارى منذ قرون عديدة سرعة انتشار الإسلام، وقدرته الفائقة على التوسع والتغلب على خصومه، وخاصة عندما غزا الإسلام الدول الصليبية وانتصر عليها وأقام حضارة ودولة في الأندلس، ثم حينما اشتبكت الصليبية مع الإسلام في الشرق" الحروب الصليبية" وتراجعت منكسرة مهزومة تجر أذيال الخيبة[12].ثم واصل العثمانيون عملية الاندفاع الإسلامي في أوربا ففتحوا القسطنطينية سنة 1453م وهددوا فينا بعد أن اشرفوا على سواحل بحر الأدرياتيك[13].

وليس هذا فحسب فقد كان الفكر والفلسفة والثقافة الإسلامية أرفع درجات من مثيلاتها في أوربا ولهذا شكلت تهديدا خطيرا على أراء الكنيسة وتعاليمها خاصة وأن العلماء والفقهاء المسلمين ردوا على أراء الكنيسة حول طبيعة المسيح وعبادة الصور المقدسة[14].

أدرك الغرب المسيحي أن الإسلام يمثل تهديدا حقيقيا للنصرانية، فهبوا يكتبون عن الإسلام بروح متعصبة وقلوب حاقدة، وقامت طلائع المستشرقين تعمل في دأب على تشويه صورة الإسلام، و لم تترك نقيصة ولا رذيلة إلا وألصقتها بالإسلام ورسوله وتاريخه ورجاله، من منطلق كراهيتهم للإسلام واعتقادهم انه دين معاد للنصرانية [15].

وقد برز الدافع الديني للإستشراق أكثر ما برز في اتجاه خطير، ألا وهو التبشير، حيث رغب النصارى في تنصير المسلمين. وبهذا الدافع كان الإقبال على تعلم اللغة العربية وآدابها، ليتم لهم قراءة العلوم الإسلامية، والتعرف على مبادئ الإسلام ومصادره وشعوبه، ووضع الخطط والتصورات المناسبة للتشكيك المسلمين في دينهم، وتشويه صورته أمامهم حتى يسهل عليهم القيام بأعمال التبشير بينهم[16].

ثانيا: الدافع الاستعماري:

لقد كان من أهداف الحروب الصليبية الاستيلاء على تلك البلاد المليئة بالخيرات والكنوز، ولقد هزموا هزيمة منكرة على يد صلاح الدين الأيوبي وجيوشه، ومع ذلك فلم يخامرهم اليأس وظلوا يعدون العدة للإستلاء على تلك البلاد.

يقول المؤرخ" جرنفيل" الذي رافق الملك لويس التاسع:" أن خلوته في معتقله بالمنصورة أتاحت له فرصة هادئة ليفكر بعمق في السياسة التي كان بالمغرب أن يتبعها إزاء المسلمين وقد انتهى به التفكير إلى تلك الآراء والمآخذ التي أفضى بها لأعوانه المخلصين أثناء رحلته إلى عكا مقلعا غليها من دمياط[17].

وانتهى تفكير الملك لويس التاسع إلى أن النعرة الدينية في الغرب لم تعد كافية لإثارة الحروب ضد الإسلام والتغلب على المسلمين، فالحروب الصليبية أنهكت القوى الغرب البشرية والمالية، وأن قوى الصليبيين في الشرق أخذت في الانهيار ومات في قلب الصليبي ذلك الحافز الروحي وتبدل بحوافز مادية لا تتصل بالروح وإنما تتصل بالغنائم والأسلاب[18].

منذ أن انهزمت القوى الصليبية والعالم الأوربي الصليبي متحفز مترقب يخطط لكيفية الثأر من العالم الإسلامي، تراوده فكرة السيطرة عليه، ودبت أوربا دبيبا حول هذا العالم وجعلت تطوق شواطئ القارة الإفريقية من الغرب إلى أن بلغت شواطئ الهند، طوقته يومئذ بطوق من الثغور تحتلها، إلى أن انتصف القرن التاسع عشر الميلادي وأخذت أقطار العالم الإسلامي تخضع فعليا لدول أوربا، وتسقط في قبضة الغرب واحدة تلو الأخرى. حتى وضعت يدها في الأخير على هذا الميراث الضخم من أمم الإسلام وشعوبه، وبسطت سلطانها عليها بأسماء مختلفة من احتلال واستعمار ووصاية وانتداب[19].

ثالثا: الدافع الاقتصادي:

من الدوافع التي كان لها أثرها في تنشيط الإستشراق، رغبة الغربيين في التعامل معنا لترويج بضائعهم وشراء مواردنا الطبيعية الخام بأبخس الأثمان ولقتل صناعتنا المحلية التي كانت لها مصانع قائمة مزدهرة في مختلف بلدان العرب والمسلمين[20].

ولقد خدم الإستشراق الناحية الاقتصادية خدمة عظيمة، وساعد على إحياء النهضة الصناعية في أوربا. وذهب بعض الدارسين إلى أن الدوافع الاقتصادية التجارية الإستشراق انشغال بعض المستشرقين بإبراز بعض الجوانب الخرافية المنسوبة إلى الشرق والاتجار بهذه الجوانب والاسترزاق من ورائها فترجموا " ألف ليلة وليلى" وحللوها وبحث فيها، وكذا "رباعيات الخيام"ورسائل "إخوان الصفاء" وغير ذلك[21].

رابعا: الدافع العلمي:

يقول الأستاذ حنبكة الميداني:" وهناك مجموعة من المستشرقين اندفعت إلى العالم الإسلامي نتيجة الانبهار بالحضارة والتاريخ الإسلامي والعقيدة الإسلامية التي بنيت على التسامح مع الآخرين.. الأمر الذي لم يتحقق في إطار الديانتين السابقتين(اليهودية والنصرانية).هذا الانبهار حدا بالبعض إلى الاتجاه نحو الشرق والتعمق في علوم الإسلام. وانتهى المقام بالكثير من هؤلاء إلى إن يخرجوا من ربقة الإستشراق ويصبحوا في عداد المسلمين، وإن أخفى بعضهم إيمانه نظرا لعوامل اجتماعية وسياسية، ومن هؤلاء "توماس أرنولد" في كتابه "الدعوة إلى الإسلام". وأيضا المستشرق الفرنسي "رينيه" الذي عاش في الجزائر وأعجب بالإسلام وأعلن أسلامه، وتسمى باسم "ناصر الدين رينيه" ألف كتاب "أشعة خاصة بنور الإسلام" بين فيه تحامل قومه على الإسلام ورسوله[22].

وهذا الدافع قد تمثل في اتجاهين على النحو التالي:

- دافع علمي يقصد به دراسة علوم الشرق الإسلامي في مختلف التخصصات العلمية ، ونقلها إلى الغرب لتنهض أوربا وتتقدم نحو الرقي الحضاري الذي سبقها به المسلمون بمسافات شاسعة أبان ازدهار الحضارة الإسلامية، حيث كان الغرب يعيش في ظلام دامس، وتخلف حضاري مطبق، فحرص على أن ينهل من علوم الشرق الإسلامي. وقد ظل هؤلاء محتفظين لأنفسهم بعقائدهم واتجاهاتهم البغيضة نحو الإسلام والمسلمين[23].

- دافع علمي لبعض المستشرقين، القصد منه البحث العلمي الخالص، ودراسة الإسلام وعلومه، بتجرد عن الهوى ونزاهة عن التعصب، دراسة تجلي لهم بعض الحقائق التي خفيت عنهم[24].ومن المستشرقين نفر قليل جدا أقبلوا على الإستشراق بدافع حب الإطلاع على حضارات الأمم وأديانها وثقافاتها ولغاتها، وهؤلاء كانوا أقل خطأ في فهم الإسلام وتراثه، فجات أبحاثهم أقرب إلى المنهج العلمي السليم من أبحاث الجمهرة الغالبة من المستشرقين. ومن الأمثلة على هذه الفئة المستشرق الألماني "يوهان ج رايسكة"، (1716-1774م) الذي كان واحدا من علماء العربية في عصره ولكن معاصريه تجاهلوه ، وحاربه رجال اللاهوت ولعل ذلك يرجع لموقفه الإيجابي من الإسلام[25].

خامسا: الدافع السياسي:

رأى الغرب بعد انحسار جيوشه وإجلائها عن أرض الشرق، أن يكون له وجود سياسي يرابط في سفاراته وقنصلياته ممن لهم خبرة عالية في الدراسات الإستشراقية ليقوم هؤلاء بمهمات سياسية متعددة في بلدان المسلمين، لتجنيد بعض رجال الفكر والسياسة والصحافة لمصالحهم، والتشكيك في جدوى الدين الإسلامي وإشاعة الفرقة وبث الفتن بين أبناء البلد الواحد[26].

ولا يزال هؤلاء في بعض البلدان العربية والإسلامية يبثون الدسائس لتفرقة بين الدول العربية والدول الإسلامية، بحجة توجيه النصح وإسداء المعونة بعد أن درسوا تماما نفسية كثيرين من المسئولين في تلك البلدان، وعرفوا نواحي الضعف في سياساتهم العامة، كما عرفوا الاتجاهات الشعبية الخطيرة على مصالحهم واستعمارهم[27].

والدول الغربية تظل دائما بحاجة دائمة إلى مشورة المستشرقين والاسترشاد بآرائهم، ونصحهم عند رسم سياستهم الخارجية في بلاد الشرق الإسلامي، كما أنها تحتاج إلى من يرصد لها باستمرار واقع تلك البلاد، وما تموج به من تيارات أو حركات مناوئة لها ولمصالحها، ولا يتم ذلك ونحوه إلا بإيجاد متخصصين في دراسة الشرق دراسة دقيقة ومنحهم الرعاية الشاملة والدعم اللازم، ماديا ومعنويا حفظا على مصالحهم[28].

يقول الدكتور اللبان:"...والواقع أن رجال السياسة في الغرب على صلة وثيقة بأساتذة هذه الكليات(كليات اللغات الشرقية في أوربا) وإلى أرائهم يرجعون قبل أن يتخذوا القرارات الهامة في الشؤون السياسية الخاصة بالأمم العربية والإسلامية وقد سمعت احد كبار المستشرقين

يتحدث أمامي فيذكر أن مستر (إيدن) كان قبل أن يضع قرارا سياسيا في شؤون الشرق الأوسط، يجمع المستشرقين المستعربين ويستمع إلى أرائهم ثم يقرر ما يقرر في ضوء ما يسمعه منهم..." [29].

ودخلت في هذا المضمار في الوقت الحاضر اليابان والصين وكوريا وغيرها من بلاد الشرق الأقصى، وزاد اهتمام هذه البلدان بالعالم الإسلامي بعد تحولها إلى دول صناعية تضارع- بل تفوق- الدول الغربية؛ وهؤلاء الجدد قد لا يحملون مسمى "المستشرقون" بالضرورة...منهم خبراء بالمنطقة أو باحثون أو علماء متخصصون، وهذا يأتي نتيجة لمحاولات الانسلاخ من مصطلح "الإستشراق" نظرا لما وقر في نفوس المسلمين من مفهوم هذا اللفظ، والمهمة التي كان يقوم بها المستشرقون الأوائل، يقوم بها المستشرقون الجدد وأن اختلفت الوسائل وحورت المسميات[30].

وتتمثل جهود المستشرقين على مدى تاريخهم الطويل في أعمال مختلفة تشكل في مجموعها كل واحدا. ويمكن تلخيص هذه الأعمال في عدة أمور هي:

- التدريس الجامعي.
- جمع المخطوطات وفهرستها.
- التحقيق والنشر.
- الترجمة من العربية إلى اللغات الأوربية
- التأليف في شتى مجالات الدراسات العربية والإسلامية[31].
- المؤتمرات الإقليمية والدولية لطرح أفكارهم ونشر أرائهم.
- الاشتراك في المجامع العلمية الرسمية في العالم الإسلامي[32].

إن معرفة الدوافع الحقيقية للإستشراق هي التي تحدد الهدف الذي يسعى إليه المستشرقون بعنايتهم بدراسة الإسلام والمسلمين، فهذا العدد الهائل من المستشرقين في كثير من بلاد العالم الذين سخروا كل جهودهم، بل وأفنوا أعمارهم في دراسة وتحليل حضارة غريبة عنهم، بالتعاون مع الدوائر الاستعمارية التي تغدق عليهم الأموال، وتمدهم بكل الإمكانيات، كل ذلك يحمل في طياته أهداف كبيرة يسعى هؤلاء لتحقيقها والاستفادة منها ومن هذه الأهداف ما يلي:

- محاولة إعطاء صورة مشوهة عن الإسلام كدين، وعن الشرق كحضارة، وعن العربية كتراث وقومية، وذلك حتى يمكن من خلال هذه الصورة تنفير ممن اشرأبت نفوسهم لتفهم الإسلام واعتناقه وفي تحقيق هذا الهدف خدمة كبيرة للكنيسة وللحركة التبشيرية بصفة عامة[33].

- التشكيك في رسالة سيدنا محمد-ﷺ-نبيا أوحي إليه وانزل عليه أخر الرسالات السماوية. ومن أشد هؤلاء تعصبا وانحرافا "مرجليوث" و"لامنس". وعن تعصب هؤلاء قد أشار إلى ذلك المستشرق" إتيان دينيه" في كتابه عن سيرة الرسول -ﷺ- حيث قال:« إن هؤلاء المستشرقين الذين حاولوا نقد صورة النبي-ﷺ- لبثوا ثلاثة أرباع قرن يدفعون، ويمحصون مزاعمهم حتى يهدموا ما تفق عليه الجمهور من المسلمين من سيرة النبيﷺ ومع ذلك لم يتمكنوا من إثبات أقل شيء جديد، بل إذا أمعنا النظر في الآراء الجديدة التي جاء بها المستشرقون: لا نجد إلا خلطا وخبطا ».

- إنكارهم كون القرآن كتابا منزلا من عند الله عز وجل وحين يفحمهم ما ورد في القرآن من حقائق تاريخية عن الأمم الماضية مما يستحيل صدوره عن أمي مثل سيدنا محمد-ﷺ- يزعمون أن سيدنا محمد-ﷺ- أستمد هذه المعلومات من أناس كانوا يخبرونه بها [34].وحين يفحمهم ما جاء في القرآن من حقائق علمية لم تعرف وتكتشف إلا في هذا العصر، يرجعون ذلك إلى ذكاء النبي -ﷺ-، فيقعون في تخبط أشد غرابة من سابقه[35].

- تشكيك المسلمين بقيمة تراثهم الحضاري، حيث يدعون أن الحضارة الإسلامية منقولة عن حضارة الرومان، ولم يكن العرب والمسلمين إلا نقلة لفلسفة تلك الحضارة وآثارها، وإذ تحدثوا بشيء عن حسناتها يذكرونها على مضض مع إنتقاص كبير[36].

- إضعاف ثقة المسلمين بتراثهم، وبث روح الشك في كل مابين أيديهم من قيم وعقيدة ومثل عليا، ليسهل على الاستعمار تشديد وطأته عليهم، ونشر ثقافته الحضارية فيما بينهم، فيكونوا عبيدا لها مما يضعف روح المقاومة في نفوسهم.

- إضعاف روح الإخاء بين المسلمين في مختلف أقطارهم عن طريق إحياء القوميات التي كانت لهم قبل الإسلام، وإثارة الخلافات والنعرات بين شعوبهم وذلك للحيلولة دون قيام إتحاد بينهم[37].

ورغم كل ذلك، لابد أن ننصف الاستشراف في أنه أعطى دفعا قويا للتراث العربي بإحيائه، إذ يرى الأستاذ.محمد عبد المنعم خفاجي " أن الاستشراف أفاد الثقافة العربية فوائد عديدًة منها: نشر الثقافة الأوربية عن العرب والإسلام وكذلك نشر كثير من كتب التراث نشرا علميا، أضف إلى ذلك كتابة العديد من المؤلفات النفيسة عن الحضارة العربية والإسلامية، ويمكن زيادة الاستفادة من بعض العلماء المستشرقين في كثير من الميادين الثقافية في البلاد العربية."[38].

إن أهم ما نصل إليه من ذلك كله أن الموضوعية التي نطلبها من جمهور المستشرقين في دراستنا لتاريخنا وحضارتنا من الصعب تحقيقها خاصة وأن نحن المسلمين مختلفون في تفسيرنا لبعض أحداث تاريخنا إلا أن ما نطلبه من المستشرقين هو الحد الأدنى من الإنصاف في البحث التاريخي وتفسير النصوص في حدود معقولة تكون صورة مقبولة للظاهرة التاريخية وليست صورة تعسفية[39].

ونأمل من جمهور المستشرقين عدم التحيز السياسي للأنظمة أو الحركات السياسية المعادية للإسلام، والكف عن أسلوب القدح والغمز واللمز في تحليلهم لمظاهر التاريخ الإسلامي وحضارته، وعدم تحميل النصوص فوق ما تحتمل أو بتر النصوص عن سياقها لخدمة التفسير الذي يريدون إثباته، وكذلك عدم الاعتماد على بعض المصادر التي لا يعدها جمهور المسلمين مصادر لدينهم وتاريخهم، وعدم اتخاذ بعض ممارسات المسلمين في الحياة العامة حجة على الإسلام[40].

في الأخير أردت أن اختم الموضوع بمقاله أحد رواد علم "الأنثروبولوجيا" العرب الأستاذ أحمد أبوزيد حيث قال:« إن الأمر يتطلب من العلماء في الشرق أن يتخطوا مرحلة التصدي للكتابات الغربية بالنقد والتقويم إلى الدراسة الجادة العميقة للتراث الشرقي ومثل هذه الجهود يجب أن تلقى ما تستحقه من توجيه وتشجيع ليس فقط في المنشئات والمعاهد العلمية بل وأيضا من الحكومات، لأنها جهود تهدف ليس فقط إلى التعريف بالشرق وتراثه وإنما سوف تحقق في آخر الأمر توكيد الذات وإثبات الكيان وفرضه على الآخرين »[41].

ومهما يكن من أمر فالمطلوب من مؤرخينا اليوم الرد على التفسيرات المتحاملة بمعالجة أكثر موضوعية لواقع تاريخنا ومظاهر تراثنا وذلك بتبني وجهة نظر ذاتية وتفسير ذي منهج

شمولي في فهم التاريخ وكتابته. إننا لا نريد لمجتمعنا أن يتنازل عن أرثه الحضاري وخصوصيته ويستبدله بقيم ومعايير غريبة عنه. والأمر متوقف علينا أولا وأخيرا [42].

الهوامش:

(1)- ادوارد سعيد: الإستشراق، ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت،1981، ص39.

(2)- محمود حمدي زقزوق: الإستشراق، دار المعارف ،القاهرة، ص11.

(3)- سعد المرصفي: المستشرقون والسنة، مؤسسة الريان، بيروت، لبنان، دت، ص 9.

(4)- نفسه.

(5)- إسماعيل على محمد: الإستشراق بين الحقيقة والتظليل، ط3، الكلية للنشر والتوزيع، مصر، ص ص12-13.

(6)- نفسه ، ص ص 11-12.

(7)- عدنان محمد وزان: الإستشراق والمستشرقون وجهة نظر، دت، دط، ص 15.

(8)- محمود حمدي زقزوق:المرجع السابق، ص18.

(9)- جابر قميحة: أثار التبشير الإستشراق على الشباب المسلم، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، 1991م، ص 15.

(10)- نفسه.

(11)- فاروق عمر فوزي:الإستشراق والتاريخ الإسلامي، ط1، الأهلية للنشر والتوزيع، الأردن، 1998م، ص31.

(12)- إسماعيل على محمد: المرجع السابق، ص28.

(13)- فاروق عمر فوزي: لمرجع السابق، ص32.

(14)- نفسه.

(15)- إسماعيل على محمد: المرجع السابق، ص28.

(16)- نفسه،ص33.

(17)- عبد الرحمن عميرة: الإسلام والمسلمون بين أحقاد التبشير وضلال الإستشراق، دار الجيل، بيروت، ص96.

(18)- نفسه.

(19)- إسماعيل على محمد: المرجع السابق، ص55.

(20)- مصطفى السباعي: الإستشراق والمستشرقون، دار الوراق للنشر والتوزيع، ص23.

(21)- عبد الرحمن عميرة: المرجع السابق، ص97.

(22)- عبد الرحمن عميرة: المرجع السابق، ص ص98-99.

(23)- إسماعيل على محمد: المرجع السابق، ص ص38-39.

(24)- لابد أن نشير هنا بأن هناك نسبة ضئيلة من الأدباء والمثقفين الأوربيين ممن عبروا عن أراء منصفة حول الإسلام والرسول ﷺ والقرآن مثل: الفيلسوف الانجليزي برنارد شو والفيلسوف الألماني جوته. فقد قال الأول مثلا: « لقد طبع رجال الكنيسة في القرون الوسطى دين الإسلام بطابع أسود إما جهلا وإما تعصبا. ذلك أنهم كانوا في الحقيقة مسوقين بعامل بغض محمد ودينه فعندهم أن محمدا كان عدوا للمسيح. ولقد درست سيرة محمد الرجل العجيب وفي رأي انه بعيد جدا من أن يكون عدوا للمسيح إنما ينبغي أن يدعى منقذ البشرية ». وقال الثاني: « إن أسلوب القرآن في فحواه وهدفه قوي خصب ومتسامي في كثير من الأحوال فلا عجب أن يكون محل دهشة وإعجاب الكثيرين ».ينظر: فاروق عمر فوزي: المرجع السابق، ص71.

(25)- إسماعيل على محمد: المرجع نفسه، ص ص38،42.

(26)- عبد الرحمن عميرة: المرجع السابق، ص98.

(27)- إسماعيل على محمد: المرجع السابق، ص ص 69-70.

(28)- نفسه،ص70.

(29)- نفسه.

(30)- عبد الرحمن عميرة: المرجع السابق، ص98.

(31)- محمود حمدي زقزوق:المرجع السابق، ص61.

(32)- إسماعيل على محمد: المرجع نفسه،ص ص98،101.

(33)- محمد فتح الله الزيادي: ظاهرة انتشار الإسلام وموقف بعض المستشرقين منها، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس، ليبيا، ص ص 89-90.

(34)- عبد الرحمن عميرة:المرجع السابق، ص ص119-120.

(35)- مصطفى السباعي: المرجع السابق، ص30.

(36)- نفسه، ص31.

(37)- نفسه.

(38)-إبراهيم مناد: نبذة عن مسيرة الاستشراف:في مجلة حوليات التراث، العدد:03،2005، جامعة مستغانم، ص 54.

(39)- فاروق عمر فوزي: لمرجع السابق، ص191.

(40)- نفسه، ص192.

(41)- نفسه، ص196.

(42)- نفسه.

الوصية، مضمونها ومكانتها بمجتمع مدينة الجزائر في العهد العثماني

أة/ نجوى طوبال
جامعة الجزائر2/ أبو القاسم سعد الله

الوصية، هي عقد يفيد تمليك منفعة بلا عوض، تمليكا مضافا إلى ما بعد موت الموصي، وهي تشبه الهبة، من كونها عقد تمليك بغير عوض، لكنها تخالف الهبة، لأن الهبة يستفاد منها في الحال، أما الوصية فمؤجلة لما بعد الموت.[1] وقد جرت العادة، خاصة في المجتمعات المسلمة، ومنها مجتمع مدينة الجزائر بأن يفكر الناس عموما، والذين تقدموا في السن منهم خصوصا، في ترك وصية شفهية أو موثقة، تعبر عن رغبتهم في اقتطاع جزء من تركاتهم، والذي يجب أن لا يتجاوز1/3 ، من أجل استغلاله في أحد الأعمال الخيرية. في حين دأب البعض على تخصيص عقارات تحبس على من يتولى قراءة القرآن الكريم والذكر على أرواحهم، إضافة إلى التوصية بعتق العبيد عنهم، لاعتقادهم أن هذه الأعمال تعود عليهم ، بالحسنات بعد وفاتهم، أو ما يعرف بالصدقة الجارية. وهو سلوك يعكس مدى الإيمان بالله سبحانه، ومدى الخوف منه والإعداد لليوم الآخر.

وقد اشتملت وثائق الرصيد العثماني الجزائري، على عدد من عقود الوصايا، التي عرّفتنا بتوجهات ورغبات وعادات الأفراد ومجال اهتماماتهم واستعدادهم للموت، وإدراكهم لضرورة استمرار وتواصل عملهم الخيري حتى بعد رحيلهم عن الدنيا. والجدير بالملاحظة أن الحرص على حسن تنفيذ الوصية بحذافيرها، دفع البعض إلى توثيقها رسميا عند القاضي. الذي كان يحرص على تنفيذها بعد وفاة الموصي.

وقد أفادنا شاهد العيان، حمدان بن عثمان خوجة، بالإجراءات وعادات الدفن، المتبعة بمدينة الجزائر، في العهد العثماني ، ومدى الاهتمام البالغ، الذي يُولى لتنفيذ وصية الموتى، وحصر التركة، وسرعة تنفيذهما، من طرف الموظفين المشتغلين بهيئة بيت المال، فقال بهذا الخصوص:" ... إذا ترك الميت وصية ما، يجب أن يتأكد القاضي من تنفيذ محتواها بعد تسجيلها، والتأكد من صحتها. عندئذ يؤذن بحمل الميت في نعش إلى مثواه الأخير. ويذهب

الموثقان إلى محل سكناه، فيقيدان جميع الأشياء الموجودة فيه. ثم تنقل الأشياء الثمينة التي يُخشى أن تضيع، إلى مأمن، حتى يجتمع الورثة أو غيرهم من ذوي الحقوق. وإذا كان الميت أجنبيا مجهولا أو كان أهله متغيبين، فإن هذه الهيأة تمثلهم(يقصد بيت المال)، فتبيع التركة بالمزاد العلني وتحتفظ بالقيمة المالية ،كوديعة مقدسة. بعد أن تخصم منها المصاريف التي يجب أن لا تتجاوز سبعة في المائة، لتدفع أجور كاتب الضبط والموثق ومصاريف البيع العلني...الخ ، ويودع المبلغ الباقي في صندوق عمومي، ويسجل مقداره في ثلاثة سجلات. ولا يستطيع أحد أن يتصرف فيه إلا بإذن شرعي. أما إذا لم يترك الشخص المتوفى وارثا حاضرا أو غائبا، فتحسم المصاريف المترتبة عن دفنه، وتدفع ديونه إن كانت عليه ديون، ثم تنفذ رغباته الأخيرة إذا كانت لا تتجاوز الثلث من قيمة جميع المخلفات، وهو المقدار الذي ينصّ عليه الشرع، حتى ولو ترك أقرباء. أما الثلثان الباقيان فيضمان إلى الأملاك الإيالة".[2]

وبالعودة إلى الوثائق الأرشيفية، يمكننا تصنيف وصايا ورغبات الأفراد، استعدادا للموت، كالتالي:

1- التحبيس على من يقرأ القرآن على القبر

يعتبر تحبيس الأملاك كليا أو جزئيا، على من يقرأ القرآن الكريم، على روح الميت، من أهم الوصايا التي كان يوصي بها الأفراد في مدينة الجزائر، وقد تساوى في هذه التوصية، الأشخاص من الطبقة الخاصة والعامة على حد سواء، الأحناف والمالكية، الوافدون والسكان المحليين. وقد وجدنا من بين هؤلاء الداي الحاج محمد التريكي(1671-1682م) الذي" حبس نصف حانوت، يقع بسوق الخياطين، على مقرأين(طالبين) اثنين، يقرءان القرآن العظيم بمقبرته الواقعة خارج باب الوادي، يختمون عليه ختمة واحدة في كل شهر، حيث يقرءان حزبان على قبره في كل يوم من الشهر. دائما وأبدا دون انقطاع. وتُصرف نصف غلة الحانوت سوية بينهما..."[3].

ومما نسجله في وصية الداي محمد التريكي، هو الدقة والعناية والحرص الشديدين، من أجل حسن تنفيذ وصيته الأخيرة بعد وفاته. حيث اشترط في القارئين، أن يكونا مشهورين بالصلاح والتقوى. و لم يتوقف الأمر عند من يقرأ القرآن على قبره، بل خصص النصف الباقي من غلة الحانوت المحبسة، " لكي تُصرف لمن يطوف عنه بالبيت المشرف، من القاطنين بمكة، شريطة أن يطوف عنه في كل يوم، تسعة أشواط، ثلاثة منها، يصرف ثوابها له وثلاثة لأبيه

وثلاثة لأمه، دائما مؤبدا. واشترط أن لا يكون في ذلك أي تقصير. كما أنه عين الشخص المكلف بالطواف عنه وعن والديه، وهو الحاج الشريف الوغليسي القاطن بمكة والذي كان يسكن بالجزائر، ثم لأولاده من بعده وعقبه وعقب عقبه، إلى أن ينقرضوا. فإن انقرض عقبه يُعطي ذلك لأهل الفضل والصلاح من القاطنين بمكة المكرمة.. كما عين الحاج محمد التريكي وكلاء يشرفون على تنفيذ وصيته التي وثقها في أواخر جمادي الأولى 1081هـ /1670م".[4]

هذا السلوك الدال على مدى الخوف من الله، والعمل على الإعداد للقائه، لم يكن مقصورا على الخاصة والحكام، وأصحاب الأموال، بل كان حاضرا حتى عند عموم الناس، ويتساوى في ذلك الرجال والنساء، ومنهم السيدة فاطمة بنت علي بجينين، التي تصرفت تصرفا مماثلا لما أشرنا إليه، حيث " حبست حانوت بسوق البادستان، على العالم أبي زيد بن سيدي محمد الفرجاني، على أن يقرأ في كل شهر ختمة من كتاب الله عزّ وجلّ. ويذكر لا إله إلا الله محمد رسول الله، 70 ألف مرة في كل شهر رجب، ويُصرف ثواب ذلك كله لها، سواء كانت ميتة أو حية، ثم جعلت الحبس لأعقاب العالم بعده، ما تناسلوا.وامتدت فروعهم في الإسلام ... .بتاريخ أوائل ذي القعدة 1056هـ/ديسمبر 1646 م".[5]

ومثل هذا التصرفات سجلتها العديد من الوثائق، التي أشارت مثلا، إلى أن السيدة نفيسة بنت الحاج علي، التي حبست حانوتا على نفسها، ثم تُعطي ستة دنانير زيانية ، كل شهر لمن يقرأ عند قبرها ختمة من القرآن الكريم، ويصرف ثواب ذلك لها، إلى أن يرث الله ومن عليها... بتاريخ 1095هـ/1684م.[6] أما الأختان غير الشقيقتان، عائشة وأم الحسن، فقد سجلتا حبسهما أمام القاضي الحنفي السيد عمر بن محمد، في أواخر شعبان 1114هـ/ جانفي1703م، وفيه إقرار منهما بأن العلوي الكائن بباب عزون، "يرجع بعد وفاتهما على رجلين يقرءان سورة الإخلاص 200 مرة، والصلاة على النبي، كل يوم عند الزوال، ويكون ذلك بالمسجد الكائن قرب الرحبة القديمة..ويعطى لكل واحد منهما نصف ريال في كل شهر...".[7] وكذلك فعل الشاب، مصطفى بن الحاج علي غرناوط، الذي "حبس حانوت قرب القهوة الكبيرة، أعلى باب البادستان، على الحاج أحمد أفندي، على أن يقرأ الجامع الصحيح للإمام البخاري، من أوله إلى آخره، في ثلاثة أشهر، وهي رجب وشعبان ورمضان، في كل عام، وصرف ثواب ذلك للمجلس...بتاريخ رجب 1169هـ/ أفريل 1755 م".[8]

ومن النماذج الأخرى، التي نستدل بها في هذا المقام، والتي بينت اهتمام سكان مدينة الجزائر عموما، بمن يقرأ القرآن الكريم ، أو الذكر والأدعية المأثورة والأحاديث النبوية، بعد وفاتهم، على أرواحهم وأرواح ذويهم ومن يحبونهم، ما كان مع الولية الزهرا بنت السيد الحاج علي، التي أكدت، أنه بعد وفاة قريبها السيد الهادي الإنكشاري، الذي حبست عليه جنتها، الواقعة خارج باب عزون، يعود الحبس "على حزابين الحلقة، الذين يقرءون الحزب بعد الظهر بالجامع الأعظم.. أواسط رجب 1237هـ/ أفريل 1822م".[9]

وفي أوائل شهر شعبان 1220هـ/ نوفمبر 1805م، سجل السيد عمر خوجة الخيل وصيته، التي "حبس فيها الحانوت الواقعة قرب المحكمة المالكية، المعدة لصنعة الحرير، على نفسه ثم على كل من يقرأ بجبانته على قبره، الكائنتين خارج باب عزون في الصناقجية، حزبين من كلام الله عزّ وجلّ، حزب في الصباح وحزب وقت العصر، في كل يوم على الدوام والاستمرار".[10]

كما أن السيد الحاج حسين، صهر المعظم حسن باشا،وبعد أن استقر له "جميع بناء الكوشة والعلوي الراكب عليها، الكائن بحومة سبع لويات..حبس على أربعة رجال من الطلبة الذين يقرؤون الحزب بالجامع الأعظم، بعد صلاة الظهر، ويُعطى كل واحد منهما ريالان اثنان في كل شهر من غلة ما ذكر على الدوام..أوائل جمادي الثانية 1238هـ/مارس 1823م".[11]

2- عتق العبيد والإيماء

لقد حظ الدين الإسلامي على فعل الخير عموما، وجعل العتق بابا من أبوابه المميزة، وهذا ما جعل سكان مدينة الجزائر يألفون ويبادرون إلى عتق الأرقاء، وكان ذلك يتم عادة، عند المرض المتصل بالموت (مثلما كان يعبر عنه في الوثائق). أو يتكفل أهل الميت بذلك، قاصدين به الثواب للمتوفى. وقد بينت الوثائق أن السبب الأساسي للعتق هو " مرضاة الله تعالى ورجاء ثوابه الجسيم، وأن الله يجزي بذلك المتصدقين ولا يضيع أجر المحسنين، ورجاء أن يعتق الله بكل عضو منه، عضوا من المعتق من النار...".[12]

ونظرا لعظم الأجر والثواب، المرجوان من المولى سبحانه، كان الناس يقبلون على عتق الإماء خاصة، أو يوصون ذويهم بفعل ذلك بعد وفاتهم، وعليه تخرج الآمة حرة بعد وفاة مالكها، أو تخرج من ثلث المخلفات،[13] ومن الحالات التي وردت فيها مثل هذه التوصيات، ما قامت به السيدة الزهرة بنت محمد، التي "أوصت بعتق أمتها المسماة فاطمة ونعتها طويلة،

ولغتها عربية اللسان، كبدية اللون، تخرج حرة بعد وفاة سيدها من ثلث مخلفاتها، وكان ذلك في أوائل رمضان 1246هـ/ أفريل 1831م". [14]

والأمثلة في هذه الخصوص عديدة، وغير محصورة، حتى أن الوثائق كشفت عن وجود من أوصى بعتق جميع العبيد الذين هم تحت ملكه، وذلك مباشرة بعد وفاته، ومن بين أولئك الذين أقدموا على مثل هذه الخطوة، كاتب دار الإمارة، الشيخ ابن أبي الضياف العنابي، وهذا بحسب ما تضمنته وثيقة الوصية، المؤرخة في أوائل شهر محرم 1218هـ، الموافق لشهر أفريل 1803م.[15]

وكانت الوصية بالعتق تأتي على الخصوص من الأشخاص الذين يكونون على فراش الموت،[16] ومن لم يفعل ذلك منهم، يقوم مقامه أقاربه، فيعتقون عنه بعد وفاته، ومن ذلك وجدنا أزواجا يعتقون على زوجاتهم المتوفيات، مثلما فعل السيد حسن خوجة بن مصطفى، الذي أعتق عبده بلخير، وجعل ثوابه لزوجه المرحومة السيدة خداوج بنت حسن خزناجي، أواخر رمضان 1238هـ/جويلية 1823م.[17] وذات التصرف أقدم عليه السيد علي أوضة باشي، ابن عبدي شاوش، الذي "أعتق الآمة المسماة، سترة..وجعل ثوبها لزوجه المرحومة مريومة بنت حسن، قصد بذلك وجه الله العظيم..أواخر صفر 1236هـ/نوفمبر 1820م"[18].

وبالمقابل وجدت زوجات أعتقن على أزواجهن، ومنهن السيدة مونى بنت محمد شاوش العسكر، التي "أعتقت الآمة جوهرة..، وجعلت ثوابها لزوجها المرحوم الحاج حسين خوجة، ..في أواسط محرم 1214هـ /جوان 1799م".[19] وهو السلوك الذي استمر مع الأبناء، الذين وجد منهم من يعتق لأحد الوالدين، مثلما فعل السيد حمدان بن محمد الغبري، الذي أعتق آمته يسمينة، وجعل ثواب ذلك لوالدته المرحومة مريومة بنت قاضي الحنفية.[20]

وكذلك، أعتقت السيدة قامير بنت السيد محمد خوجة على والدها،[21] وهو الأمر نفسه الذي أقدم عليه إبراهيم بن مصطفى باشا، الذي أعتق آمته المسماة مباركة، وجعل ثوابها على والده،[22] والفعل ذاته قام به السيد محمد الإنكشاري بن الحاج حميدة بوقندورة، الذي "أعتق آمته المسماة جوهرة، وجعل ثوابها لزوجة والده، وهي الزهرة بنت علي، وذلك في أواخر شهر رجب 1241هـ/ مارس 1826م".[23]

كما أن هناك حالات عتق لم تكن العلاقة فيها واضحة بشكل دقيق، بين المُعتق والمعتق عليه، وإن كانت تبدو من نفس العائلة، ومن ذلك ما ورد في الوثيقة التي تحمل تاريخ أواخر شهر شعبان 1244هـ/مارس1829م، والتي أعتقت فيها السيدة نفيسة بنت الحاج حسين،

صهر السيد حسن باشا، وعلى لسان زوجها،" آمتها المسماة فطومة..وجعل ثوابها للمرحومة الولية عايشة بنت المرحوم السيد حسن باشا"،[24] وعلى الأرجح في هذا المثال، أن المقصود بالعتق هي الخالة.

وحالات العتق، وردت في الكثير من الوثائق، وفي سنوات مختلفة، حيث أوصى السعدي المزوار، ا" ... في قايم حياته بعتق جميع ما على ملكه من العبيد،حسبة لله تعالى..." وحملت الوصية تاريخ أواسط شعبان 1245هـ/فيفري 1830م[25].

وتواصل العتق بين سكان مدينة الجزائر، حتى بُعيد دخول الاحتلال الفرنسي، ومن ذلك العتق الذي كان لروح المرحومة خدوجة بنت المرحوم القايد صالح ،زوج السيد مصطفى باي، حيث قام بعد وفاتها" ربيبها الزكي الأشمل السيد مصطفى، وأنجز عتق الفتى سالم مملوك الولية المذكورة وألحقه بحراير المسلمين...وصرف ثواب ذلك للولية المذكورة..أواخر ربيع الأول 1251هـ/جويلية 1835م.[26] وذات الفعل كان من الولية خديجة بنت السيد علي الخياط، في أواسط رجب 1251هـ/ نوفمبر 1835م، عندما أعتقت آمتها المسماة ياسمينة، ونعتها زنجية اللون..تخرج حرة بيوم قبل مرض سيدتها المتصل بوفاتها، وقصدت بذلك وجه الله العظيم".[27]

مما سبق، يتضح أن عموم الناس بمجتمع مدينة الجزائر في العهد العثماني، كانوا يقدرون الأعمال الخيرية، ويجلون القائم بها بشكل كبير، إيمانا منهم بنيل ثوابها في الدارين الأولى والآخرة، وكان الحرص شديد فيما يتعلق بترك صدقة جارية لا ينقطع بها العمل وتعود على الميت بالثواب، ومن أبواب الخير والصدقة الجارية، عتق العبيد والإماء، الذي كان يقوم به المالك نفسه في حياته أو بوصية منه، تنفذ بعد الوفاة، أو بمبادرة من الأهل في بعض الأحيان، لقد كان العتق من التصرفات المنتشرة وسط سكان مدينة الجزائر، وبين مختلف طبقات المجتمع بما في ذلك الحكام والجنود والحرفيين...الخ.

3- مكان الدفن وتنظيم مراسيم الجنازة

بداية نشير إلى أن الموتى في مدينة الجزائر، كانوا يخضعون لقوانين تسري عليهم منذ الوهلة الأولى لوفاتهم، وكان الميت يدفن وفقا لقوانين الإيالة، حسبما ذكره السيد حمدان خوجة، الذي قال بالحرف الواحد:" ...ووفقا لأحد قوانين الإيالة، هناك هيأة يسمى رئيسها التركي بيت المالجي، يساعد هذا الرئيس قاضي وموثقان وكاتبا ضبط ومسجلون ... ولا يمكن أن يدفن الميت إلا بأمر من رئيس هذه الهيأة... ".[28]

لقد حظيت مراسيم الجنازة ومكان الدفن[29] بنصيب وافر من وصايا الناس عموما ، والوصية في هذه المقام كانت من المهام التي دأب على تركها المتوفى، بحيث يذكر فيها الموصي المكان أو المقبرة التي يختار أن يدفن فيها، مع تحديد القبر أحيانا، ثم كيفية تنظيم مراسيم جنازته. ففي الحالة الأولى كشفت لنا الوثائق عن وجود أناس بعضهم اشترى قبره قبل وفاته، وبعضهم الآخر أوصى بمكان دفنه. وقبل أن نسوق بعض الأمثلة من باب التدليل، نشير إلى أن المدينة كانت تعج بالمقابر، الخاصة بعامة المسلمين، حيث كانت تحيط بها كالحزام أو الطوق.[30] كما أن حكام الجزائر في العهد العثماني وذويهم، كانوا يوصون عادة بدفنهم، في الأضرحة والمقابر الخاصة.[31]

ومن الذين أوصوا بمكان دفنهم، السيد الحاج محمد الدولاتلي[32] شهر التريكي، وقد سجل وصيته في أواخر جمادي الأولى من العام 1081هـ الموافق للخامس عشر أكتوبر 1670، جاء فيها إشارة واضحة إلى مكان دفنه بعد وفاته، وهي" جبانته الكاينة خارج باب الوادي.[33] أحد أبواب المدينة...".[34]

كما أن هناك من كان يشتري موضعا لدفنه، لاسيما إذا كان الموضع بمحاذاة أحد أولياء الله الصالحين المشهور بكراماته، وهو ما نستخلصه في الوثيقة التالية، والتي جاء فيها:".. أذنت الولية خدوجة بنت أحمد خوجة، بمحضر زوجها القايد عمر بن يحي وكيل قايد سباو في التاريخ، للولية دومة بنت الحاج، محمد في الدفن في قبرها الذي يعود لها، الواقع بضريح الولي سيدي أحمد بن عبد الله الأول عند باب الضريح المذكور، ودفعت لها في مقابلة البلاط والآجور والجنابيات والمشاهد، أربعة عشر دينار صرف تسعة ريالات، وكان ذلك بمحضر السيد محمد الحرار وكيل الضريح المذكور، ابن الكواش به شُهر ...إذنا تاما.. أواسط جمادي الثانية 1233هـ /أفريل1817م".[35]

وقبل هذا التاريخ،كان المرحوم السيد أحمد خوجة دفتر دار، بدار الإمارة العلية، قد "حبس جبانة لدفن الأموات له، ولزوجه ولذريته وذرية ذريته من بعده، في المواضع خارج باب عزون المجاورة لجبانة السيد علي آغا الإصبايحية، كان وبمقربة من برج رأس تافورة الكاين هناك، ودفن بها السيد أحمد خوجة، ومن مات من ذريته، وكان ذلك بأعوام عديدة وسنين مديدة..".[36]

كما ورد في الوثائق أسماء لمقابر، كانت على ما يبدو لأصحابها من الحكام والسادة، يوصون بأن يدفنوا فيها هم وذويهم، ومن ذلك " جبانة السيد مصطفى آغا القريبة من ضريح الولي الصالح سيدي عبد القادر الجيلاني".[37] وامتلك السيد علي آغا الإصبايحية، بحسب الوثيقة المؤرخة في أواخر 1200هـ/ أكتوبر 1786م،"جبانة تقع برأس تافورة المقابلة لبرج رأس تافورة..".[38]

أما فيما يتعلق بتنظيم الجنازة، فقد قدم لنا المعاصر للأحداث السيد عبد الرزاق بن حمادوش، وصفا لأحد الجنائز، وهي الجنازة الخاصة بالداي عبدي باشا باشا(1724-1732م)، عارضا وصف تلك الجنازة على الشكل التالي:" في يوم الأربعاء الثالث والعشرين شوال 1145هـ الموافق للسادس نوفمبر 1732م، توفي الباشا، وكان مريضا، توفي في الليل، فرفع عليه العلامات(الرايات) الخضر في الصوامع، فأوتي به للجامع الكبير، وقرأ عليه ثلاثون رجلا كل واحد حزبين من القرآن، فكان ذلك ختم للقرآن مرتين، وأخذ كل واحد من القراءين ربع سلطاني وانصرفوا. كما عتق عنه آمة سوداء كانت جالسة عند رأسه، وصُلي عليه بعد صلاة الظهر، ودفن في المقبرة التي في باب السوق، تحت المكتب بإزاء العين".[39]

وهذا الوصف لجنازة الداي الذي قدمه ابن حمادوش، لا يختلف عن جنائز عامة الناس تقريبا، وهو ما تؤكده بعض الوثائق، التي تضمنت وصايا من متوفين عن تنظيم جنازاتهم، فقد ظهر في هذه الوثائق، أن المُوصي كان يخصص أن يُخرج الثلث مما يخلفه(تركاته) في تنظيم الجنازة ، حتى أن هناك من خصص حُليا ذهبية لهذه الغاية، من أجل أن تُباع وتصرف في الجنازة، مثلما فعلت الحاجة فطومة سنة 1188هـ/1174م، حيث أوصت أن"يبقى خلخال وخرصة من أجل تنظيم جنازتها".[40]

أما مجال صرف الوصية فكانت تخصص لمؤونة تجهيز الجنازة، من شراء الكفن، وحفر القبر، وصدقة الطعام وعتق الرقبة وختمة من كلام الله تعالى، وقراءة البُردة ومبيت طلبة الذين يقرؤون القرآن على القبر، وحتى مصروف طعام الأربعين، كان يؤخذ بعين الاعتبار.[41] وهناك من الموصين من يحدد المصروفات بشكل أكثر دقة، ومن ذلك أن السيد أحمد بن المفتي، قام بهذا الفعل وقسم ثلث مخلفاته على النحو التالي: 20 دينارا ذهب سلطاني، تخصص لشراء عبد يعتق عليه، و 12 دينار ذهب سلطاني تخرج في صدقة إسقاط الصلاة، و10دنانير تصرف لشراء الكفن والدفن وحفر القبر ومثلها (أي 10 دينار) للصدقة و إطعام الأربعين.[42]

كما أن السيد محمد أمين جماعة المقايسية، أنفق مبلغا قدره 372 ريال، هي قيمة جنازة زوجته المتوفاة، السيدة مريم بنت مصطفى، وصُرفت تلك القيمة في "مؤونة تجهيزها من كفن وشاش وطيب وحفر قبر وقمح وخبز وصدقة عليها حين الدفن، ويوم الأربعين، وقراءة ختمتين من القرآن العظيم بالجامع الأعظم" وهذا ما ورد في الوثيقة المؤرخة في أوائل صفر 1174هـ / ماي 1770 م.[43] والأمر يتكرر وإن بصيغة مختلفة مع الولية آسية بنت المرحوم الحاج محمد اسكرا لي، التي أمرت أن يُصرف من مخلفات ثلث أملاكها في " مؤونة تجهيزها من كفن ودفن وصدقة وإسقاط صلاة وعتق رقبة وختمة من كلام الله تعالى وقراءة بردة، ومبيت الطلبة بالقبر، وطعام الأربعين وغير ذلك..."، وذلك بحسب ما ورد في الوثيقة المسجلة في أواخر جمادي الثانية 1218ه/ أكتوبر 1803م.[44]

4- التصدق بثلث المخلفات (التركات).

كما سجلت الوثائق، حضور الكثير من الموصين بنصيب من تركاتهم، ليس لذويهم فحسب بل للفقراء والمحتاجين في المدينة، أو لفقراء الأندلس أو الحرمين، ومن الأمثلة التي رصدناها في هذا الخصوص تلك الوثيقة التي شهد فيها السيد الحاج أحمد العطار حرفة، ابن المرحوم أبي شاكر ابن الحاج عبد الله الأندلسي الشريف الحسيني، " على نفسه أنه متى أتاه أجله المحتوم وتوفاه الحي القيوم، فيخرج الثلث الواحد من جميع متخلفه، يُعطي موفورا كاملا لفقراء الحرمين الشريفين...رغبة في الأجر والثواب من الملك الوهاب....أوائل جمادي الثانية 1087هـ/ 1676م".[45]

كما أوصت الحرة" آمنة بنت المرحوم الحاج مصطفى الأندلسي.. أنه إن أتاها أجلها المحتوم وتوفاها الحي القيوم، فيخرج ثلث متخلفها...لجانب فقراء الأندلس 500 دينار من الألف التي لهم بذمته...ولمعتقة بعلها 50 دينارا، وآمة تعتق عنها..وثلث على فقراء الأندلس وثلثين على فقراء الحرمين . ويُشترى بالنصف الآخر ملك يكون وقفا على أولاد ابنتها، وهم، محمد ويوسف وآمنة، أولاد المعظم السيد أحمد بن الحاج علي الغبري...وخلفت الهالكة جميع الطبقة السفلى من العلوي الواقع بسوق المقايسية، قرب باب البحر..مع نصف الطبقة التي فوقها..وحانوت في اعتمار عبد الرحمان المقايسي..وأسبابا وأثاثا وحُليا ودينا لها على ابنتها آمنة قدره 3953 دينار...بتاريخ ربيع الأول 1090هـ/ أفريل 1679م".[46]

ومن جهته، سجل أبو العباس السيد أحمد بن المرحوم الشيخ محمد ابن المفتي، أنه " إذا أتاه أجله المحتوم وتوفاه الحي القيوم، فيُخرج الثلث من مخلفاته..ويعطى كاملا موفورا للشاب عبد الرحمان الحرار بن السيد أحمد بن الكالي-به عرف-، وذلك بعد إخراج 20 ذهب سلطانية، يشتري بذلك عبدا يعتق عليه، و12 دينارا تخرج في إسقاط الصلاة عليه...قصد وجه الله العظيم...غرة قعدة 1185هـ/فيفري 1772م ".[47]

أما السيدة آسية بنت المرحوم الحاج اسكدرالي، المدعوة سونة، والتي وثقت وصيتها في أواخر جمادي الثانية 1218هـ/ أكتوبر 1803م، فإنها أوصت بأن ما يبقى من ثلث مخلفتها، " يعطى للفقراء والمساكين .."[48]. كما حبس ووقف لله، السيد عمر خوجة، "جميع نصف الثمن من الدار..على ساقية ماء العين الداخلة للبلد ، على يُدخل خوجة العيون..جعبة ماء من الساقية المذكورة للجبانة الكاينة بالضاحية، خارج باب عزون، أحد أبواب البلد، على الدوام والاستمرار..على أن لا يمنع أحد، دخول الماء للجبانة المسطورة، ومن أراد منعه، فلا شيء له في الحبس..ويرجع الحبس على ذرية المحبس..ما تناسلوا وامتدت فروعهم..شعبان 1221هـ/ نوفمبر 1806م ".[49]

وتشير وثيقة أخرى، إلى أن السيدة "الولية الزهرا بنت السيد الحاج علي، سليل الشيخ البركة علي بن لموا..، قد حبست الجنة بفحص كرسي الجلوة، خارج باب عزون، ..بعد موتها، على قريبها السيد الهادي الإنكشاري بن محمد مدة حياته..أواسط رجب 1237هـ/أفريل 1822م".[50] وفي شهر رمضان من السنة نفسها (1237هـ/جوان 1822م)، حضر إلى المحكمة الحنفية "المكرم علال الإنكشاري الجاقماقجي، الذي أوجاقه 45، ابن خليل، حفيد السيد حسن البوجاقجي، وأشهدها أنه إن أتاه أجله المحتوم وتوفاه الحي القيوم، فالوصية على ولديه، وهما محمد وفاطمة الزهرا، ووالدهما الولية ميمي بنت السيد علي شاوش.." .[51]

ومن خلال الأمثلة التي استشهدنا بها في هذه الدراسة، تتضح الصورة المتعلقة بإجراءات الدفن، وعادات العامة والخاصة في تنظيم الجنازة بمجتمع مدينة الجزائر في العهد العثماني. ومدى الحرص الشديد على حسن التنظيم الذي دفع بالبعض إلى توثيق رغباتهم لدى القضاة، وهو ما أفرز عددا من عقود الوصايا في هذا الشأن.

كما نستشف مدى الاهتمام والعناية والتفكير والإعداد ليوم الرحيل، حتى وإن كان هذا اليوم يوم حزن. ولكن إيمان بلقاء الله، كان يشكل الحافز، لدى البعض على ترك وصية شاملة، تعبر عن رغبات الموصي في تأمين موارد ومنافذ تبقى مفتوحة ينتفع بواسطتها حتى بعد الموت، حيث يحصد المزيد من الحسنات (الصدقة الجارية). ومن هذه المنافذ المتعارف عليها حينذاك، التوصية بالصدقة وقراءة القرآن، وعتق العبيد والإماء، والتصدق بثلث التركات التي تشمل الفقراء والمساكين وحتى بعض الأقارب غير المباشرين، الذين لا يحق لهم الاستفادة من تركات المتوفى.

ومن خلال نظرة عامة للوصايا، يتبن أن الأمر الأهم بالنسبة إلى الموصي، هو الأمل في مغفرة المولى، خاصة أن أغلب الوصايا، عبارة عن قنوات لا تنقطع من الصدقات والأعمال الخيرية، بغية نيل رضى ومغفرة المولى عزّ وجلّ، وهو الأمر الذي يتحقق بترك صدقة جارية، تدر عليهم بعد مماتهم الثواب والأجر، وهذا الاهتمام لا يقل شأنا عن اهتمامهم وانشغالهم بما تتطلبه الحياة الدنيا منهم، من سكن وعمل وزواج و أسرة وغيرها.

الهوامش

[1]– هناك تشابه كبير بين الوصية والهبة، والفرق بينهما هو أن الهبة، تخضع لمجموعة من الشروط، ومنها، العقل والبلوغ والحرية وأن لا تتجاوز ثلث الأملاك...أنظر عبد الوهاب خلاف، **أحكام الأحوال الشخصية في الشريعة الإسلامية**، ط 2، منشورات دار القلم، الكويت، 1990، ص ص، 255-258.

[2]- حمدان خوجة، **المرآة**، تحقيق وتقديم، محمد العربي الزبيري، الجزائر، 2007، ص، 135.

[3]– Archive. Outre. Mère(Aix en Provence). 1Micro films internes./ 05 - Z 10.

[4] -Ibid.

[5] – A.O.M. 1Mi / 20 - Z 40.

[6]– A.O.M. 1Mi/ 05 - Z 10.

[7] – A.O.M. 1Mi /B 05 - Z 10.

[8] – A.O.M. 1Mi/ B 07 - Z 16.

[9] – A.O.M. 1Mi/ 09 - Z 10.

[10]– A.O.M. 1Mi/ B 23 - Z 45.

[11]– A.O.M. 1Mi/ 54 - Z 151.

[12] – A.O.M. 1Mi/ 26 - Z 52.

[13] – A.O.M. 1Mi/ 06 - Z 14.

[14] – A.O.M. 1Mi /27 - Z 53.

[15] – A.O.M. 1Mi /02 - Z 03.

[16]–أنظر ما تضمنته مثلا العلبة: – A.O.M. 1Mi/ 26 - Z 52.

[17] – A.O.M. 1Mi/ 02 - Z 03.

[18]– A.O.M. 1Mi /B 27 - Z 53.

[19] – A.O.M. 1Mi /32 - Z 81.

[20] – A.O.M. 1Mi /27 - Z 53.

[21]- Ibid.

[22] – A.O.M. 1Mi /20 - Z 40.

[23] – A.O.M. 1Mi/ 09 - Z 20.

[24] – A.O.M. 1Mi/ B 15 - Z 31.

[25]– A.O.M. 1Mi /14 - Z 28.

[26] – A.O.M. 1Mi /B 27 - Z 53.

[27] - Ibid.

[28]- خوجة، المصدر السابق، ص، 134.

(29)– تهتم الأمة الإسلامية عموما بالمقابر، ومنها مجتمع مدينة الجزائر في عهد الدايات، بحيث كانت المقابر منتشرة في كل المدينة، وقد ذكرت المصادر الأجنبية، أن الاحتلال الفرنسي أحصى حين دخوله للجزائر أكثر من ثلاثين هكتارا في المدينة خاصة بالمقابر، قدر ثمنها 60 مليون فرنك فرنسي سنة 1830. أنظر،

-Henrrie Klien, **Feuillets d' El Djezair, T2**, Ed. Du Tell, Blida- Algérie, 2003, p.31

(30)– كانت هناك مقابر لعامة المسلمين، وهناك مقابر خاصة بكل فئة أو طائفة، ومن ذلك المقابر الخاصة بالأتراك، الذين كانت مقابرهم قرب باب عزون، وأخرى للمزابيين في تلملي، أما الحضر المسورين فكانت لهم مقابر هم العائلية الخاصة...الخ. أنظر،

- Klien, Op,Cit. p,31

(31)– نذكر مثلا مقابر الحكام والأعيان المدفونين بضريح سيدي عبد الرحمن الثعالبي.

(32) – الدولاتلي، ويعني صاحب الدولة، ويعتبر لقب تشريف وتعظيم لحكام الجزائر، ومما تعنيه، السلطان والملك. للمزيد أنظر، نور الدين عبد القادر، **صفحات من تاريخ مدينة الجزائر منذ أقدم عصورها إلى انتهاء العهد التركي**، نشر كلية الآداب الجزائرية، مطبعة البعث، قسنطينة، 1965، ص، 71.

(33)-يذكر أنه كانت خارج باب الوادي مقبرة في غاية الاتساع، وفيها كان يُدفن المسلمون وغيرهم من النصارى واليهود.كما كان بها جهة مخصصة لأن تكون قبورا لولاة الجزائر، وهي متقنة البناء، وللعلم أن المقابر كانت تحيط بالمدينة مثل الحزام، وكان من عادة الأهالي الدفن في بيوتهم، وأما من جهة باب عزون، فقد كانت المقابر قليلة. أنظر، عبد القادر، المرجع السابق، ص ص، 231-233.

(34) – A.O.M. 1Mi/ B 05 - Z 10.

(35) – A.O.M. 1Mi /B 26 - Z 52.

(36)– و تشير ذات الوثيقة إلى أن برج رأس تافورة قد انهدم في زمن مصطفى باشا، وأراد بناء برج جديد داخل الجبانة، مما عنى أخذ رأي المفتي (الحنفي)، في هذا الأمر، و هو الذي طلب موافقة من بقي من ذرية أحمد خوجة، وشرح لهم أهمية إحداث هذا البرج في مواجهة أعداء المسلمين، فوافقوا في أواسط شهر ربيع الأول 1218هـ/جويلية1803م ومنذ .ذلك الحين لم يعد يدفن في تلك الجبانة، أنظر: A.O.M. 1Mi 53 - Z 124 -

(37) -A.O.M. 1Mi/ 54- Z 150.

(38) -A.O.M. 1Mi/ 16 - Z 33.

(39)– عبد الرزاق ابن حمادوش، **لسان المقال في النبأ عن النسب والحال**، تحقيق ابو القاسم سعد الله، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2005، ص، 236.

(40) -A.O.M. 1Mi/ 03 - Z 06.

(41)– A.O.M. 1Mi/ B 39 - Z 73.

(42) -A.O.M. 1Mi /27 - Z 53.

(43) -Ibid.

(44) -Ibid.

(45) – A.O.M. 1Mi /B 44 - Z 95.

(46) – A.O.M. 1Mi/ B 16 - Z 34.
(47) – A.O.M. 1Mi/ B 27 - Z 53.
(48)– A.O.M. 1Mi /01 - Z 01.
(49) – A.O.M. 1Mi /B 27 - Z 53.
(50) – A.O.M. 1Mi /B 09 - Z 19.
(51) – A.O.M. 1Mi /B 22 - Z 44.

أومبرتو عمر: العميل السري الايطالي في مسقط 1908– 1911
(دراسة وثائقية)

دة/ ناهد عبد الكريم – د/ بوعلام بلقاسمي
جامعة السلطان قابوس – سلطنة عمان

المقدمة:

كانت عمان بحكم موقعها الاستراتيجي المطل على بحر العرب وبحر عمان والمتحكم بباب المندب ومضيق هرمز، منطقة مستقطبة للتنافس الدولي للسيطرة عليها. وقد تنوعت أشكال التدخل الأوروبي في شؤونها، فتارة معاهدات وتارة أخرى احتلال مباشر، وفي بعض الأحيان اللجوء إلى عملاء سريين تسند لهم مهمة تقديم التقارير عن البلاد وأحوالها وما يدور فيها. وكانت ايطاليا واحدة من تلك الدول الاستعمارية التي سعت لتجد لها مكانا في عمان مستفيدة من التنافس الدولي في تلك المنطقة، وكان الكشف عن دورها مدعاة للبحث فيه.

و تأتي أهمية هذا البحث من كونه بالدرجة الأولى أصيلا معتمدا على وثائق ايطالية يتم الكشف عنها للمرة الأولى، ولأنه يعد بالدرجة الثانية مساهمة في رفع الحجاب عن حقيقة الدور الإيطالي في عمان. كما يسعى هذا البحث إلى الإجابة عن بعض التساؤلات منها:

- متى بدأ التدخل الايطالي في عمان ؟ ولماذا؟
- ما هو شكل هذا التدخل ؟ وهل كتب له النجاح؟
- من هو أومبرتو عمر ؟ وما هي مهماته السرية في عمان ؟

وقد تم تقسيم هذه الدراسة إلى محورين أساسيين، الأول: يتناول التنافس الاستعماري في الخليج العربي وجنوب الجزيرة العربية في الربع الأخير من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ودخول ايطاليا على خط التنافس، والمحور الثاني: يتناول دور أومبرتو عمر العميل

السري الإيطالي في عمان ومراسلاته مع الجهات الحكومية الايطالية. وأخيرا الخاتمة وتتضمن أهم النتائج التي توصل إليها البحث.

وتم اعتماد المنهج الوصفي التحليلي في تتبع الأحداث واستخلاص المعلومات من الوثائق وربطها بما كان يجري في عمان لتصبح الصورة أكثر وضوحا. وتعتبر الوثائق الإيطالية المحفوظة في الأرشيف التاريخي لوزارة الخارجية الإيطالية المصدر الرئيس لهذه الدراسة إلى جانب عدد من الدراسات.

تمهيد:

انتاب التطور العسكري والتجاري البحري الذي حققته عمان في عهد أسرة آل بو سعيد التي وصلت إلى الحكم عام 1744 مخاوف الدول الاستعمارية، خاصة بعد تنامي القوة البحرية العمانية وازدهارها في عصر السيد سعيد بن سلطان (1804-1856) وضمه لساحل افريقيا الشرقي لإمبراطورتيه واتخاذه زنجبار عاصمة لها عام 1832. بذلك أصبحت عمان قوة لا يمكن تجاهلها ووجب التعامل معها، فاتخذت العلاقة مع عمان أسلوب المعاهدات التجارية من خلال تسابق الدول الأوروبية لتأمين مصالحها الاقتصادية في ممتلكات السيد سعيد.

إلا أن مرحلة جديدة من الصراع الاستعماري بدأت بعد وفاة السيد سعيد بن سلطان عام 1856، فقد واتت الفرصة كلا من بريطانيا وفرنسا لتأكيد مصالحهما في المنطقة، وتم بسعي الطرفين تقسيم الأملاك العمانية بموجب التحكيم الدولي للجنة كنج Canning عام 1861، وانقسمت أسرة آل بوسعيد إلى فرعين حاكمين في عمان وفي زنجبار، ولعل أهم ما اتفق عليه الطرفان البريطاني والفرنسي بعد التقسيم هو تعهدما باحترام استقلال كل من سلطنة عمان وسلطنة زنجبار، وكان ذلك في عام 1862م [1].

واعتبارا من نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين شهدت مناطق المحيط الهندي بما فيها الساحل الشرقي لإفريقيا وجنوب الجزيرة العربية والخليج العربي عودة محمومة للتسابق على تكريس النفوذ الاستعماري بين بريطانيا وفرنسا، وكان النصيب الأكبر لشرق افريقيا والخليج العربي. وقد دخلت على خط الصراع دول جديدة وهي ألمانيا وايطاليا الحديثة الوحدة، وكذا روسيا التي سعت إلى تمديد نفوذها باتجاه الخليج العربي.

وفي ظل الصراع حول المصالح الاستعمارية، عقدت فرنسا وروسيا اتفاقا للحد من النفوذ البريطاني في الخليج العربي بعد أن وقع عبء التصدي للنفوذ البريطاني هناك على عاتق فرنسا وحدها، والتي بدأت تعلن عن تململها في أعقاب توقيع بريطانيا معاهدة مع السلطان فيصل عام 1891 [2].

دخول ايطاليا على خط التوسع الاستعماري:

كان خروج ايطاليا إلى عالم الاستعمار متأخرا بسبب عدم اكتمال وحدتها حتى عام 1871م، وهي بذلك تتزامن مع الوحدة الألمانية، واعتبارا من ثمانينات القرن التاسع عشر راحت ايطاليا تبحث لنفسها عن مكان بين الدول الاستعمارية مدفوعة برأي عام داعم للاستعمار، وظهور دعاة من مختلف التوجهات مثل المستكشفين والرحالة ورجال الدين المبشرين الساعين لتوسيع نشاطهم، إضافة لرجال الأعمال المصرفية والرأسماليين وغيرهم. وقد سطر هؤلاء هدفين أساسيين لنشاطهم؛ يتمثل الأول في تحقيق القوة لإيطاليا بالتوسع كغيرها من الدول الاستعمارية وتوجيه الأنظار نحو افريقيا بعد ضياع أحلام ايطاليا في تونس لصالح فرنسا. أما الهدف الثاني فيرمي لحل العديد من المشاكل الداخلية التي كانت تعاني منها ايطاليا وفي مقدمتها زيادة الكثافة السكانية والوضع الاقتصادي الصعب وتزايد البطالة[3].

انطلقت ايطاليا لتوسيع نفوذها بدءا من الساحل الشرقي لأفريقيا، فقامت بشراء ميناء عصب من الشركة الايطالية عام 1882، ولم تلبث أن أعلنت احتلالها له. ثم أتبعته بانتزاع ميناء مصوع عام 1885 م من النفوذ المصري التابع في ذلك الوقت للدولة العثمانية [4]. وساندتها بريطانيا في كل مراحل توسعها الاستعماري حيث كانت تسعى لتحقيق أهداف منها: أن تكون ايطاليا حليفتها في المسألة المصرية، وحتى تقف في وجه الأطماع الفرنسية التوسعية في شرق افريقيا .

وفي عام 1885 مهدت ايطاليا لاحتلال الصومال بإيجاد موطئ قدم لها قريبا من نهر جوبا، وبالأخص ميناء كسمايو واعتمدت في مشروعها الجديد أيضا على موافقة بريطانيا[5] .

ولم يأت عام 1889 م حتى أعلنت ايطاليا حمايتها على الصومال، ثم قامت بضم مقديشو وبركا وبراوة في نفس العام وذلك بعد الاتفاق مع شركة شرق افريقيا البريطانية عام 1889، ولم تلبث أن أسست لنفسها الشركة الايطالية لشرق افريقيا عام 1890 لتثبيت الحدود بينها وبين مناطق النفوذ البريطانية الصومالية[6].

وأعلنت ايطاليا في عام 1890 توحيد ممتلكاتها على ساحل البحر الأحمر في مستعمرة واحدة باسم ارتريا كل ذلك بتشجيع من بريطانيا الراغبة في كبح الأطماع الفرنسية هناك [7] .

لقد كانت العلاقات البريطانية الفرنسية سيئة بسبب الضغط الفرنسي على بريطانيا في أعالي النيل بهدف تسوية القضية المصرية ولذلك وقفت فرنسا مع الحبشة، في حين وقفت بريطانيا مع ايطاليا لأن النفوذ الايطالي في الحبشة سيوقف التوسع الفرنسي من الساحل الشرقي للصومال نحو السودان، كذلك للوقوف في وجه الحركة المهدية [8] .

وبرزت محاور استعمارية متنافسة، لم تلبث أن امتدت إلى منطقة الخليج العربي وعمان، ففي أعقاب مؤتمر بروكسل عام 1890 ؛ الذي أقر منع تجارة السلاح عن شرق أفريقيا، عمدت سفن الدول الأوربية إلى محاصرة السواحل الإفريقية ووضعتها تحت المراقبة لمنع وصول السلاح إليها،. وبسبب هذا الحظر شرعت الشركات المصدرة للسلاح و تجار السلاح في البحث عن أسواق بديلة. وهيأت لهم الحرب الأفغانية الثالثة 1879- 1880 وما تلاها[9]، الفرصة لانتشار تجارة السلاح في منطقة الخليج العربي [10]. وبعد مؤتمر بروكسل توسعت هذه التجارة في الخليج العربي حيث لا يشملها قرار حظر تجارة السلاح لوقوعها خارج خط العرض 20 بحوالي أربع درجات[11]، ونمت خاصة في مسقط بشكل واضح في الفترة من 1890- 1898 م.

واعتبر لوريمر أن عام 1890 كان بداية تحول لتصبح مسقط " أعظم سوق للسلاح في منطقة الشرق الأوسط" [12]. واعتبارا من عام 1898 تركزت تجارة السلاح بشكل كلي في مسقط ، المكان الأهم للاستيراد لأن التجارة كانت حرة بحسب المعاهدات التي وقعتها مسقط مع دول أوربا وأمريكا[13] . وكانت معظم هذه التجارة بيد الفرنسيين بالاشتراك مع البلجيكيين و الألمان والبريطانيين، أما ايطاليا فقد دخلت أسلحتها إلى السوق العمانية عام 1908 [14] .

تحملت فرنسا العبء الأكبر في مقاومة النفوذ البريطاني في عمان وخاصة في الفترة من 1891-1898 [15]. فقد كانت عمان بسبب موقعها الجغرافي نقطة ارتكاز لكل الدول المهتمة ببسط نفوذها السياسي أو العسكري أو الاقتصادي في الخليج، ولذلك سعت هذه الدول لتعيين ممثلين لها في مسقط لتأمين مصالحها من ناحية ومراقبة منافسيها من ناحية أخرى فبالإضافة إلى بريطانيا وفرنسا[16]، حاولت روسيا الاقتراب من عمان، وذكر لوريمر وجود جاسوس روسي يعمل سرا في مسقط وعمان[17].

بدايات التدخل الايطالي في شؤون عمان والخليج:

تعود بدايات التدخل الايطالي في قضية تجارة السلاح في الخليج وسواحل عمان إلى عام 1892،عندما اهمت ايطاليا مسقط بتصدير قسم من السلاح إلى الصومال. ويذكر الدكتور علي البسام أن: السلطنة صدرت كميات غير محدودة من الأسلحة إلى الأراضي الصومالية، وأن بعض هذه الأسلحة كان يصل زنجبار[18] مما دفع بالسلطان فيصل بن تركي لإصدار أمر في 2 أبريل من العام نفسه يقضي بمنع تصدير الأسلحة إلى افريقيا والجزر التي تقع تحت الحماية البريطانية، وكذلك " الممتلكات الإيطالية على الساحل الشرقي لأفريقيا"[19] ولكنه رفض منح حق تفتيش السفن والمراكب العمانية.

ومع اتساع تجارة الأسلحة عام 1897 بشكل كبير في فارس وعمان، لجأت فارس لعقد اتفاق مع كل من بريطانيا وعمان لقمع تلك التجارة[20] ثم اتخذت إجراءات صارمة عام 1898 لوقف تدفق السلاح وكذلك فعل سلطان عمان. وبعد القضاء على تجارة الأسلحة في بو شهر تم تكليف الزوارق البريطانية المسلحة للقيام بدوريات في مياه الخليج[21]

وفي عام 1902 جرى حظر على خروج الأسلحة والذخائر من مسقط، ولم يعد ممكنا إنزال هذه التجارة بشكل قانوني في أي من المناطق باستثناء قطر لعدم أهميتها [22] . كما أصدر السلطان فيصل بن تركي إخطارا بتاريخ 17 أكتوبر 1903 يقول فيه: " لقد خولت السفن الحربية البريطانية والإيطالية حق تفتيش السفن المسقطية في المياه الاقليمية أو في أعالي البحار إذا اشتبه في أنها تحمل أسلحة إلى الساحل الصومالي" [23] وباتت ايطاليا تتمتع بحق التفتيش مثلها مثل بريطانيا.

وفي عام 1905 كان الحضور الايطالي واضحا في محكمة لاهاي فيما عرف بقضية الأعلام الفرنسية التي كانت سفن صور ترفعها ، وكانت بريطانية قد أحالت هذه القضية إلى محكمة لاهاي بعد أن فشلت في اقناع فرنسا بعدم منح أعلامها للسفن العمانية مدعية أنها تستغلها في نقل السلاح[24]. وقد تأخر صدور حكم هذه المحكمة بسبب الفشل في التوصل إلى اختيار قاض يتولى التحكيم لذا تم التحول إلى ملك ايطاليا ليبت بالأمر بموجب البند رقم 1 من التسوية، وقد عين ملك ايطاليا لمنصب قاضي التحكيم الدكتور هنري لماش من النمسا[25] ونلاحظ هنا أن ايطاليا باتت تشغل مكانا مهما في الساحة الدولية

لم تكتف ايطاليا بالمشاركة في التفتيش، فقد زعمت استمرار تدفق السلاح إلى شرق افريقيا و طورت تدخلها في عمان مستغلة الاستعدادات الدولية الجارية لعقد مؤتمر جديد في بروكسل عام 1908[26] يكمل مهمة مؤتمر بروكسل الذي عقد عام 1890 بخصوص تجارة السلاح، حيث بات لدى مختلف القوى بما فيها بريطانيا رغبة في إعادة النظر بقرارات المؤتمر السابق بهدف توسيع نطاق الحظر لتشمل منطقة الخليج بعد أن انتشرت هذه التجارة هناك بشكل كبير لكن موقف فرنسا كان مغايرا وهذا ما سيرد لاحقا.

وفي هذه الأثناء كشفت ايطاليا في ديسمبر 1907 عن خطة تقضي بتعيين وكيل ايطالي في مسقط لجمع المعلومات عن حركة المرور البحرية. الأمر الذي أثار قلقا بريطانيا كبيرا [27]، وفي يناير عام 1908 كان هذا المقترح الإيطالي قد تطور إلى طلب أن يكون لها وكالة قنصلية رسمية، لكن بريطانيا رفضت هذه الخطة، وأبلغت الإيطاليين موقفها عن طريق القنصلية البريطانية . كما طلبت وزارة الخارجية البريطانية تأجيل البحث في كل المقترحات المتعلقة بمسقط إلى حين انعقاد المؤتمر الجديد عام 1908.

لكن ذلك لم يمنع ايطاليا من الاستمرار فيما اعتزمت عليه، فقامت في أبريل بتعيين وكيلها الذي تنوي ارساله إلى مسقط، عندها سارعت بريطانيا إلى التدخل وطلبت بشكل رسمي التعاون من الكافاليري فرنسيسكو كريسبي Cavaliere Francesco Crespi ؛المسؤول عن المستعمرات الملكية الايطالية. وأرسل كوكس Cox ؛ القنصل البريطاني في مسقط[28]، برقية إليه يقول فيها: أنه لن يكون مقبولا إثارة ردة فعل، فمسقط ليست مجال اهتمام ايطاليا، وليس هناك معاهدة تجارية معها. ومما قاله " كيف سيكون بمقدورنا اقناع السلطان برفض قبول قناصل من روسيا وألمانيا إذا نصحناه بالموافقة على وكيل ايطالي" [29]. ويبدو واضحا من كلامه أنه كانت هناك محاولات ألمانية وروسية لتعيين قناصل لهما في عمان وأن بريطانيا كانت تعيق ذلك عن طريق جعل السلطان فيصل يرفض وجودهما [30]. فإذا ما أقدمت ايطاليا على تعيين وكيل لها فهذا يعني عدم سكوت كل من ألمانيا وروسيا وإحراج موقف بريطانيا أمام السلطان فيصل.

لكن اصرار ايطاليا على وجود ممثل لها في عمان، جعل كوكس يقترح عليها أن تقوم بتعيين وكيل محلي، وأن هذا سيكون كافيا تماما، وبدوره سيقدم لها المعلومات التي تريدها يوميا حتى نهاية المؤتمر[31]. وأرسل هذا الاقتراح إلى ايطاليا، وفي يونيو طلب السيد ادوارد جري Edward Grey؛ وزير الخارجية البريطانية، شفهيا من الايطاليين عدم الضغط من أجل تعيين

وكيل، وأشار إلى أن معادات القناصل (والمقصود الروس والألمان) سيعقد موقف بريطانيا في الخليج وفي عمان. وقد وافقت ايطاليا على تأجيل طلبها بتعيين وكيل لها في انتظار ما سوف يسفر عنه مؤتمر بروكسل عام 1908 وتلقت بريطانيا هذا القرار بكثير من الامتنان[32].

لم يطل الأمر حتى انعقد مؤتمر بروكسل، وكانت ايطاليا حاضرة فيه ، وقد دعمت موقف وزارة الخارجية البريطانية التي قررت مسبقا أن إضافة مناطق أخرى للحظر أمر مرغوب فيه، إلا أن ذلك لا يعني سماحها؛ أي بريطانيا، لأحد بالتدخل في الخليج وذلك حسب التحذيرات التي وردتها من الخليج ومن مكتب الهند والتي أكدت أن الخليج اهتماما بريطانيا ، وأن وجود هيئات دولية قضائية أخرى أمر غير مرغوب فيه [33]. في إشارة إلى تأكيد النفوذ البريطاني فيه. وعلى هذا الأساس تمكن المندوب البريطاني إلى مؤتمر بروكسل عام 1908 السير آرثر هاردينج Arthur Hardinge ، أن يسقط مشروع ايطاليا في الخليج بتهديدها بأنها إذا تدخلت فيه، فإن منطقة حظر السلاح سيتم توسيعها لتصل إلى طرابلس [34].

وخلال جلسات المؤتمر في شهر يونيو انخرطت جميع القوى بالموافقة على العرض البريطاني بتوسيع مناطق الحظر لتشمل الخليج العربي ما عدا فرنسا[35]، وبات معروفا في المؤتمر أن فرنسا هي الوحيدة من بين القوى التي تمانع في اقفال قضية تجارة نقل السلاح في مسقط. وبما أن ايطاليا كانت من أوائل الدول التي عرضت مد الحظر إلى الخليج فإنها وجدت في المعارضة الفرنسية إحراجا لها وعبرت عن ذلك لباريس [36].

وبسبب عدم التوصل إلى نتيجة مع فرنسا[37]، تم تأجيل مؤتمر بروكسل أكثر من مرة مما جعل ايطاليا تعود ثانية إلى قضية تعيين وكيل لها في مسقط على أساس أن مؤتمر بروكسل تأجل بدون نتيجة، وفي أكتوبر من عام 1908 أعلمت ايطاليا بريطانيا أن لها أمنيات مؤجلة؛ في إشارة إلى قضية تعيين وكيل لها. وقد أكد وزير الشؤون الخارجية الإيطالي سان جوليانو San Giuliano إلى غري Grey أن مطلب ايطاليا لم يكن لأسباب سياسية ، ولكن فقط لرغبتها الصادقة في معرفة ما يجري عن حركة نقل السلاح، وكان هذا صحيحا نسبيا، لأن السفن الصومالية كانت تتاجر بالسلاح على الساحل العماني على الرغم من أن الأسلحة التي كانت تدخل الصومال مصدرها غالبا زنجبار.

ومرة ثانية أعادت بريطانيا تأكيدها أنه إذا أرسلت ايطاليا وكيلا نظاميا إلى مسقط فلن يكون وضعه نظاميا بدون معاهدة، وأنه في حال موافقة فيصل سيكون من الصعب عليه رفض طلب مماثل من ألمانيا على سبيل المثال. واقترحت بريطانيا وجود عميل سري لإيطاليا بدلا من

وكيل نظامي وأن هذا سيكون الحل الأمثل. ومرة ثانية وافقت ايطاليا [38]، ونزلت عند رغبة بريطانيا. وبادر الكافالييري كرسبي بإرسال عميل سري إلى عدن ومنها إلى عمان ليتولى امداد الايطاليين بالمعلومات التي يحتاجونها.

أومبرتو عمر :Umberto Omar العميل السري الإيطالي:

لم يكن اختيار ايطاليا لأمبرتو عمر مصادفة، فهو عربي يعود نسبه إلى قبائل " بني عامر" الإرتيرية [39]. وهو يعرف اللغة الإيطالية بشكل ممتاز ونستدل على ذلك من مراسلاته وما كتبه لاحقا عن عمان باللغة الإيطالية، حيث تكلم وكتب كالإيطاليين، إلى جانب ذلك كان متقنا للغة الانكليزية، أي أنه عميل مميز يستطيع التعامل مع العرب وفهمهم، كما يستطيع التعامل مع البريطانيين بلغتهم، وبمعنى آخر كان يستطيع نقل أخبار العرب والبريطانيين في آن واحد إلى الحكومة الإيطالية.

ويبدو من خلال مراسلاته العديدة مع وزارة الخارجية الايطالية وقنصليتها في عدن أنه قدم عام 1908 إلى عدن أولا بصفته مترجما للوثائق البريطانية في القنصلية الايطالية، لكنه لم يلبث أن أرسل إلى عمان وعلى الأرجح أنه بقي في الفترة من 1908 إلى 1909 متنقلا بين عدن وعمان إلى أن استقر في عمان عام 1909 وهي الفترة التي سنتعرف فيها على طبيعة الأعمال التي قام بها وحياته في عمان حتى أواخر عام 1911. ومما تشير إليه تلك المراسلات أيضا أنه كان مكلفا بمهمتين أحداهما علنية وهي كتابة التقارير عن حركة السفن العمانية التي كانت تحمل الأسلحة. أما المهمة الثانية غير المعلنة فهي دراسة الأوضاع في عمان و تقديم التقارير عنها.

ومنذ وصول أومبرتو عمر إلى عمان تولى البريطانيون أمره، وكان على الوكيل البريطاني تقديمه للسلطان فيصل، ومساعدته على الاستقرار بحيث يكون تحت الرقابة البريطانية خاضعا لأوامرها، ليتمكن من العمل مع السلطان فيصل من خلالها فقط.

ويبدو أن أومبرتو عمر كان مرتاحا بمهمته الجديدة كونه في السابق كان مجرد عميل سري صغير وهذه فرصة جيدة له ليثبت كفاءته. وفي بداية وجوده في عمان قام بمحاولة واحدة للاقتراب من فيصل مباشرة؛ أي دون إذن بريطانيا، ولكنه رفض من السلطان لأنه لم يكن له منصب رسمي[40]، . لكن هذه الصورة بدأت تتغير بالتدريج حيث نتابع أهم الأعمال والأمور التي تعرض لها أو قام بها من خلال رسائله المرسلة من مسقط وهي كالتالي:

- رسالة رقم 29 تاريخ 25/ 4/ 1910، مرسلة من أومبرتو عمر إلى السيد ر. بياجنتيني Piacentini R. نائب القنصل العام في عدن، وموضوعها عن السيد هولاند R.E. Holland[41] كتب ما يلي[42]:

" السيد نائب القنصل العام

يسعدني إبلاغكم بأن السيد هولاند الوكيل السياسي للسفارة البريطانية الذي التقيت به بمجرد وصولي لمسقط، قد تم نقله إلى راجبوتانا Rajputana في الهند بمستوى سكرتير أول للممثلية العامة.

ترك مسقط في 13 من الشهر الحالي وتم التعويض عنه بالسيد تريفور A.P. Trevor وهو برتبة ميجور في الجيش الهندي حيث كان في بوشهر من عدة سنوات كمساعد أول للميجور كوكس Cox المقيم العام في للخليج الفارسي.

خلال إقامة السيد هولاند في مسقط لم يكن سوى صديق محب في كل المهمات التي كنت أعمل بها وكنت ألجأ لمساعدته فأجد التعاون والترحيب من كل قلبه. وعندما وصلت السفينة الملكية الايطالية إلبا Elba إلى مسقط، خلال آخر رحلة بحرية لها في هذه البحار، تعرف السيد هولاند على قائدها وكان في غاية اللطف معه ومع كافة الرسميين العاملين بها، ولولاه لما استطاعت هذه السفينة متابعة طريقها بعد أن احتاجت للفحم الذي قدمه لها السيد هولاند بتدخله والموافقة على بيعه من مخازن حكومته مما وفر عليها المصاريف المكلفة والغير مقيدة.

أرجو أخيرا من سعادتكم الموقرة إبلاغ الحكومة الملكية بهذه الخدمات والمواقف حتى يمكن بشكل أو بآخر تقديم الشكر للسيد هولاند شخصيا.

وتقبل يا سيادة نائب القنصل العام عميق مشاعري واحترامي.

أومبرتو عمر"

يؤكد أومبرتو عمر من خلال رسالته السابقة التعاون الذي لقيه من المسؤولين البريطانيين في مسقط، والمساعدات التي تلقاها في المهمات التي كان يقوم بها، ويتوافق هذا مع ما سبق ذكره من رغبة بريطانية في إبقائه تحت رقابتها منعا لأية أهداف ايطالية أخرى. كما يمكن وضع

المساعدة البريطانية لأمبرتو عمر في إطار التعاون البريطاني الإيطالي في وجه المحور الفرنسي الروسي.

ومن اللافت للنظر دقة المعلومات التي كان ينقلها عن تحركات المسؤولين البريطانيين، بحيث يمكن القول أن مهمة أومبرتو عمر تتجاوز ما أعلنته ايطاليا عن اهتمامها فقط بقضية السلاح ونقله .

وما ذكره عن السفينة الإيطالية إلبا، فإنه يوضح مدى السيطرة البريطانية على الفحم في مسقط وتفردها به حتى أن السفينة لم تجد من يبيعها ولا تمكنت من الإبحار ثانية لولا تقديم البريطانيين الفحم لها. وبطبيعة الحال أسهمت هذه السيطرة البريطانية في ضبط حركة السفن في الموانئ العمانية وإخضاعها لإشرافها المباشر.

وفي رسالة أخرى لأمبرتو عمر أرسلها طلبا لتحسين وضعه المادي وزيادة مرتبه، يورد معلومات هامة عن الحياة في مسقط عام 1910، جاء فيها:

- رسالة بدون رقم بتاريخ شهر 5/ 1910 مرسلة من المخبر أومبرتو عمر في مسقط إلى بياجنتيني نائب القنصل العام للحكومة الايطالية في عدن بعنوان " زيادة الراتب"[43] :

" السيد نائب القنصل، منذ شهر ديسمبر عام 1908 حيث منحتني الوزارة الملكية شرف التكليف في المهمة التي لا أزال أشغلها فإني أود أن أناقش مع السيد المبجل المدير المركزي لشؤون المستعمرات حول قلة الرواتب التي تم تحديدها لي.

والسيد المبجل المدير المركزي كان قد تفضل بالإصغاء لتحسين وضعي، لكن لضيق الأحوال وقلة مصادر الميزانية التي كانت آنذاك، لم يتمكن من تقديم الزيادة التي كان قد وعد بها.

وبالمقابل فإن لطفه جعلني آمل؛ خاصة بعد التدريب الإضافي، أن يكون التعامل مطابق للتطلعات التي كنت أريدها وقد وثقت بتشجيعه وغادرت روما دون أي إلحاح.

وعندما وصلت مسقط سرعان ما أدركت كم هي الحياة غالية هنا، وخشية من أن يقال أني لم أحسن التصرف أو تعرضت للخداع كما يحصل لكل جديد قادم إلى الشرق، أو

أن يقال أني أطلقت رأي عابر غير حقيقي فقد استمريت لمدة 15 شهرا في ضيق مزعج جدا ومحبط أحيانا محاولا إثبات أني صاحب إرادة جيدة.

واليوم يا صاحب السعادة مدفوعا بالحاجة أناشد تعطف واهتمام معاليكم لتقوموا بلفت نظر الوزارة الملكية بعدم كفاية وضعي المادي الذي يتطلب زيادة تسمح لي بحياة أفضل.

مسقط كما كنت قد استوعبت وكتبت لمعاليكم في ظروف مختلفة، هي بلد محروم من أي مكان للاستحمام أو الراحة. والناس في عدن ومومبي يستطيعون الحصول على ما يريدون بسعر معقول، أما هنا فصعوبة النقل وغياب الرقابة التي قد تمنع الجشع الذي أصاب محلات البيع الثلاثة لبعض الهنود الذين سيطروا على السوق فقد وصلت الأسعار إلى ارتفاعات مبالغة. عموما إن البيوت التجارية وكذلك الحكومات توافقوا على أن تكون رواتب الموظفين المقيمين بمسقط منسجمة مع هذا الغلاء.

وعلى سبيل المثال سأذكر فيما يلي الرواتب التي يحصل عليها بعض الموظفين الأقل درجة: الأول: ناسخ يعمل في القنصلية البريطانية (هندي من البنغال) راتبه 325 روبية شهريا.

الثاني: ناسخ يعمل في القنصلية البريطانية (هندي من جوبا) راتبه 275 روبية شهريا.

الثالث: صف ضابط برتبة (سرجنت) تم إلحاقه بموقع مراقب الكربون في البحرية العسكرية الفرنسية وهو جزائري راتبه 615 لير ايطالي بالشهر.

والكثير من عمال التجارة لا يستلم أي منهم أقل من 250 روبية شهريا، وكلهم منحوا فوق ذلك أماكن للسكن، وليس هذا فحسب بل لهم تعويض لاستقدام الخدم يتغير بتغير الدرجة.

أترك بعد هذا لمعاليكم تقدير الصعوبة التي يجب تحملها للعيش بمبلغ 180 روبية فقط شهريا.

وأنا متأكد مما تحفظه لي الوزارة الملكية وتعرفه عن موقعي الحساس وللثقة التي توليتها في هذه المهمة آملا أن تأخذوا بالاعتبار قضيتي وثقتي بتقدير معاليكم لما ذكرت .

وتقبلوا شكري واحترامي العميق لكم.

أومبرتو عمر"

ويفهم مما تضمنته الرسالة السابقة أنه جرى تكليف أومبرتو عمر بمهمته إلى مسقط في ديسمبر 1908 ، والرسالة مرسلة في شهر مايو 1910، و ذكر أنه قد أمضى خمسة عشر شهرا قبل إرسالها، فهو عمليا كان في مسقط في بداية سنة 1909، لهذا فإن الفترة منذ وصوله إلى مسقط وحتى الرسالة التي سبقت لابد أن أومبرتو عمر كان خلالها يراسل ايطاليا وينقل لها المعلومات وهذا ما أشار إليه بقوله: " مسقط كما كنت قد استوعبت وكتبت لمعاليكم في ظروف مختلفة " أي أنه أرسل في السابق معلومات عن مسقط، لكن هذه المراسلات لم أتمكن من العثور عليها، لهذا ستتركز معلوماتنا على ما أرسله من الرسالة قبل السابقة والمؤرخة في 1910 /4/25 وحتى تركه مسقط.

كذلك أشار إلى صعوبة الحياة في مسقط فهي محرومة من مكان للاستحمام والراحة، وأغلب الظن أنه يقصد الأماكن العامة والمقاهي حيث يجد الغرباء ما يخفف عنهم عناء الغربة. ولفت النظر إلى قضية غلاء المعيشة في مسقط حتى أن الأسعار في عدن ومومبي أقل، فهو قد انتظر 15 عشر شهرا في حالة من الضنك نتيجة ارتفاع الأسعار قبل أن يطالب بتحسين راتبه. كما نسب أسباب الغلاء إلى صعوبة النقل، وغياب الرقابة الحكومية على الأسعار، وجشع أصحاب المحلات. وأشار إلى هيمنة الهنود على سوق مسقط حيث تتحكم ثلاث محلات تجارية لهم بالأسعار وترفعها بشكل كبير[44].

و حتى يوضح وضعه، قارن بين راتبه ورواتب غيره من الموظفين التابعين للشركات التجارية والحكومات؛ ويقصد غير العمانية، وأنهم حصلوا على رواتب تتناسب مع هذا الغلاء و منحوا سكنا. والأغرب أنه كان لديهم تعويض لاستقدام الخدم بحسب درجاتهم، أي أن ظاهرة استقدام الخدم كانت مستمرة ومعترف بها من هذه الحكومات. كما أشار إلى قيمة راتبه وهي 180 روبية شهريا وهي أقل من رواتب من هم أقل منه درجة يعملون لدى القنصلية البريطانية، والجزائري الذي يعمل في البحرية الفرنسية مراقبا للكربون كان يحصل على ضعف راتبه[45]. ونلاحظ هنا اعتماد الدول الاستعمارية على أبناء الشعوب العربية لتسخيرهم في مجالات مختلفة ومنها نقل المعلومات إليهم.

ووفقا لمطالبة أومبرتو عمر بزيادة راتبه تم تحويل طلبه من القنصلية الايطالية في عدن إلى وزارة الخارجية الايطالية في روما. حيث أوضح نائب القنصل رأيه في طلب أومبرتو وأشار إلى مسببات رأيه وهي كالتالي:

- رسالة رقم 522/136 No/= تاريخ 30/7/ 1910 مرسلة من القنصل بعدن إلى وزارة الخارجية الإيطالية بعنوان " طلب زيادة راتب أومبرتو عمر" [46].

" السيد الوزير

يشرفني أن أرسل لكم النسخة المرفقة من الرسالة التي وصلتني من أومبرتو عمر مخبرنا في مسقط.

وأعتقد أن مبلغ 300 لير ايطالي شهريا (180 روبية) هو مبلغ غير كاف لاحتياجات الحياة في تلك المدينة.

ومن المناسب ملاحظة أن عمر يحصل شهريا أيضا على 333 لير بخصوص الاحتياجات المتعلقة بالمعلومات والاحتياجات المكتبية إلخ...

على كل حال يجب أن يؤخذ بالاعتبار أن عمر على الرغم من كونه تمكن من أن يكسب محبة الكثيرين سواء السلطان أو القنصل الانجليزي وشخصيات أخرى في مسقط. (وهذا سبب يقوده ليعيش حياة غير مترفة) فإنني أسمح لنفسي أن أقترح أن يكون راتبه 400 لير شهريا بدلا من 300 لير.

مع فائق الاحترام

نائب القنصل العام آر. بياجينتيني "

ويبدو من رسالة بياجنتيني أنه كان مطلعا على أحوال المعيشة في مسقط ومدى الغلاء فيها لذلك دعم طلب رفع راتب امبرتو عمر إلى 400 لير بدلا من 300 لير التي كانت تعادل(180 روبية). وتظهر الرسالة دور أمبرتو عمر في تزويد الإيطاليين بالمعلومات من خلال دفعهم له مبلغ 333 لير لقاء تلك المعلومات.

ولكن تتعارض إشارة بياجنتيني إلى كسب أمبرتو عمر محبة السلطان فيصل والقنصل البريطاني وعدم انزوائه مع ما جاء في كتاب Britain & The Persian Gulf الذي ذكر أن أومبرتو عمر كان خاضعا كليا للبريطانيين وأنه لم يكن لديه شيئا ليفعله[47]، فهو قد أثبت وجوده وأسس لعلاقة متينة مع العمانيين ومع البريطانيين الموجودين في عمان ودليل ذلك

المعلومات الوافية التي كان يرسلها إلى ايطاليا عن عمان. ومن المؤكد أن ايطاليا استفادت كثيرا من تلك المعلومات و من وجود أومبرتو عمر في مسقط لذلك طلب بياجنتيني زيادة راتبه الشهري.

خلال الفترة من 1910 /7/30 إلى 1911/1/7 تطورت الأحداث في موضوع تجارة السلاح حيث شهدت تراجعا كبيرا بسبب تراجع استعمال الأعلام الفرنسية اعتبارا من تحكيم لاهاي عام 1905 ، وبسبب مصادرة السفن البريطانية للأسلحة الخارجة من مسقط[48]، كما يبدو أن بريطانيا نجحت في إلهاء طموحات ايطاليا في الوجود الدبلوماسي لها في الخليج عندما أقنعتها بالتخلي عن فكرة وجود ممثلية رسمية لها في مسقط[49]، مما أدى إلى إعادة النظر في عمل أومبرتو عمر في مسقط، بعد أن ماطلت الخارجية الإيطالية في الرد على طلب زيادة راتبه حتى الشهر الأول من عام 1911 ، وأرسلت تطلب من قنصليتها في عدن تقييم حالته. وجاء الرد من بياجنتيني مغايرا لما ورد في رسالته السابقة عن رغبته في رفع راتب أومبرتو عمر إلى 400 لير بدل 300 لير، فقدم في رسالته عرضا لمهمة الأخير في مسقط وانتهى إلى أن الحاجة لأمبرتو عمر في مسقط لم تعد قائمة. وفيما يلي نص الرسالة:

- رسالة رقم 210 /No 926 بتاريخ 7/ 1/ 1911 مرسلة من القنصلية الملكية العامة في عدن إلى سعادة وزير الخارجية في روما وموضوعها " أومبرتو عمر" [50]:

" السيد الوزير

أخذت علما برغبتكم من خلال برقيتكم رقم 102 في 8/12 باطلاعكم حول راتب مخبرنا في مسقط أومبرتو عمر.

منذ عامين تقريبا أرسل عمر إلى مسقط ومن خلال تقاريره استطاع أن يزودنا بمعلومات موسعة حول حركة السلاح والذخائر التي تصل إلى الخليج الفارسي.

وحيث أن عمل هذا المخبر كان محصورا في دراسة الأوضاع وتزويدنا بما كان يهمنا معرفته من تجارة السلاح والذخائر مع ملاحظة الحركة غير الشرعية التي تسلكها هذه المراكب الشراعية(السنبوق)[51] التي يمكن أن تسعى لرفع العلم الايطالي. فإنه يبدو لي أن هذا العمل وصل إلى نهايته وبالتالي انتهت مهمة أومبرتو عمر في مسقط

بالإضافة إلى المعطيات التي حصلنا عليها، فإن حركة المراكب الشراعية التي ترفع أعلامنا الإيطالية انخفضت إلى حد كبير جدا، ولم تعد هناك حاجة لوجود قوات ردع لسلطة المستعمرات.

ونظرا لهذا الوضع إضافة إلى ميزانية هذه المهمة التي تكلف شهريا حوالي 650 لير، أود أن أقترح على سعادتكم إزاحة أومبرتو عمر عن موقعه في مسقط وإرساله إلى حاكم الصومال الإيطالية، حيث يستطيع تأمين عمل لعمر عبر المكتب الحكومي (الإدارة المالية) براتب قدره 250 لير إيطالي شهريا.

وفي انتظار ردكم الكريم على اقتراحي ، وقبل أن أعطي كلمة لصاحب العلاقة أرجو من سعادتكم قبول عميق احترامي

نائب القنصل العام

آر. بياجنتيني "

يتضح مما سبق أن أمبرتو عمر أرسل منذ عام 1909 إلى عمان في مهمة أساسية تتعلق بجمع المعلومات عن تجارة السلاح والذخيرة في الخليج وإرسالها إلى ايطاليا، وقد نجح في مهمته وأرسل معلومات قيمة بما في ذلك المعلومات المتعلقة بحركة مراكب السنبوق التي وصفها بياجنتيني بالغير شرعية لأنه يصعب مراقبتها، لكن اللافت للنظر أنه أشار إلى المخاوف التي كانت لدى ايطاليا من إمكان رفع هذه المراكب العلم الإيطالي، وهذا أمر غير معروف من قبل، فلم تكن الأعلام الإيطالية تذكر في قضية السفن التي تنقل السلاح في سواحل عمان أو الخليج، ومع هذا يؤكد بياجنتيني أن المعلومات التي توفرت لديه تشير إلى أن: " حركة المراكب الشراعية التي ترفع أعلامنا الإيطالية انخفضت إلى حد كبير جدا" أي أن هناك رفع للأعلام الإيطالية فعلا على السفن التي تنقل السلاح، لكن المرجح هنا أن هذه المراكب لم تكن عمانية، وربما كانت صومالية تابعة للصومال الإيطالي.

وأشار بياجنتيني في آخر رسالته إلى أنه طالما أن الغاية من وجود أومبرتو عمر في مسقط قد انتهت، إضافة إلى ما كان يكلف الحكومة الإيطالية من مصاريف فإنه من الأفضل انهاء مهمته وإرساله للصومال حيث لا يتعدى راتبه هناك 250 لير وفي هذا توفير في المصاريف.

لكن أمرا ما استدعى بقاء أومبرتو عمر لفترة أطول في عمان ففي برقية مشفرة من بياجنتيني في عدن مرسلة إلى روما تحمل رقم 1064 تاريخ 1911/3/9 جاء ما يلي [52]:

- ***رسالة مشفرة: " 34. بالإشارة إلى إفادتكم 15 ، الإدارة المركزية لشؤون المستعمرات. إن أومبرتو عمر (العميل في مسقط) يتوقع نفقات ب 5 آلاف لير نظير انتهاء مهمته في أبريل أو يقترح تأجيلها إلى سبتمبر بعد أشهر الصيف مع احتمال تحسين ظروف انهاء عمله. أرجو اعلامي بشكل برقي.***

بياجنتيني"

ومن المؤكد أن المكافأة المرتفعة التي طلبها أومبرتو عمر لم تكن نظير مهمته الأساسية التي ذهب بها إلى مسقط فقد كلف بمهمة أخرى تفسرها الرسائل التالية: في 5/2/ 1911 وصلت لوزارة الخارجية في روما رسالة من المفوضية الإيطالية في كوبنهايغن في الدانمرك هذا مفادها:

- رسالة رقم No 178/91 بتاريخ 1911/5/2 موجهة من المفوضية الملكية الايطالية في كوبنهايجن Copenaghen إلى وزير الشؤون الخارجية الإيطالي المركيز سان جوليانو في روما وموضوعها " اطلاق مشروع رحلات استكشافية علمية دانماركية في الخليج الفارسي"[53]:

" السيد الوزير

اتخذت الجمعية الملكية الجغرافية الدانماركية مبادرة لإطلاق سلسلة رحلات علمية استكشافية جغرافية، وشكلت لهذا الهدف لجنة تنظيمية برئاسة الأميرال ريشيليو (Richelieu) (ويلاحظ أن قنصلنا السيد V. Gluckstadt يشكل جزءا من هذه اللجنة) . وأول رحلة علمية تم تنظيمها ستغادر بمجرد أن يؤمنوا الوسائل الضرورية. وهي ممولة بالقسم الأعظم منها من الاشتراكات الخاصة.

الهدف الرئيسي للرحلة سيكون استكشاف الجزء الجنوبي الشرقي للجزيرة العربية. وبشكل خاص داخل الأقاليم العمانية و حضرموت، مستكملين بذلك أسلوب الاستكشافات

الدانمركية في الجزيرة العربية، من خلال الرحالة الذين نذكرهم نيبور (Niebuhr) في النصف الثاني من القرن الثامن عشر.

الأعضاء الرئيسيين لهذه الحملة هما اثنان فقط، لديهما خبرة ظهرت من تطبيقاتهما العملية في رحلاتهما القليلة في مناطق مختلفة. مثل تلك التي تهتم لها الجمعية الجغرافية. هما السادة :

الملازم في المدفعية م. ديفيد M. Davidsen و رنكجار بركلي Barclay Raunkjar وهما مساحان جغرافيان وخبيران في الملابس واللغة العربية".

إلى سعادة المركيز سان جوليانو

وزير الشؤون الخارجية– روما "

حسب ما ورد في الرسالة السابقة فإن الدنمارك كانت تستعد لبدء مرحلة جديدة من الكشوف الجغرافية وغيرها في جنوب شرق الجزيرة العربية وعلى وجه التحديد في المناطق الداخلية لعمان وفي حضرموت، ولما كانت الرحلة نفسها غير متضمنة لأحد من الإيطاليين فإن ايطاليا أرادت أن تستفيد من وجود أومبرتو عمر في عمان وتكلفه بعمل تقرير مفصل عن كل ما يتعلق بعمان بحيث يكون وسيلة لإيطاليا للتعرف عليها. والأمر لن يكون صعبا طالما أن أومبرتو عمر يتكلم العربية. ولهذا بدأ العمل، وحسب ما توقع في الرسالة المشفرة رقم 1064 التي سبق ذكرها فإن جمع المعلومات عن عمان استغرقه وقتا أطول ثم غادر مسقط في شهر أبريل وقبل أن يصل إلى مقديشو أمضى شهرين في عدن ثم غادرها فكان وصوله إلى مقديشو في شهر جون من عام 1911 . ثم غادر بعد فترة إلى إيطاليا.

وقد جاء في كتاب Britain and the Persian Gulf أن خروج أومبرتو عمر من مسقط في ذلك العام كان " نهاية الحضور الإيطالي في عمان"[54]، وأن خروجه من عمان كان في شهر فبراير، لكن هذا ليس صحيحا بحسب ما ستورده الرسائل اللاحقة. ومنها الرسالة التالية :

- **رسالة رقم 2322 من الموقع 111/ 2 تاريخ 12/ 9/ 1911 صادرة من الصومال الايطالية، مقديشو، المكتب الحكومي، مرسلة إلى وزير الشؤون الخارجية، الإدارة العامة لشؤون المستعمرات، رسالة جوابية موضوعها " عودة الموظف غير العادي أومبرتو عمر" [55]:**

" الموظف غير العادي أومبرتو عمر وبمجرد وصوله للمستعمرة (المقصود مقديشو) في شهر جون، اشتكى من المبلغ الذي حدد له بـــ 250 لير في الشهر. كما هي العادة في تحديد هذا المبلغ في بداية الفترة لكل الموظفين الذين تم التعاقد معهم.

لا أجد لدى هذا الموظف أية إمكانية أو رغبة في البقاء في هذا العمل، لذلك لم أقتنع بإعطائه أي وعد بزيادة الراتب، بل قبلت بدون تردد طلبه بالعودة إلى ايطاليا و ترك كل الخدمات التي يقوم بها في هذه المستعمرة بشكل نهائي.

سيغادر مع السفينة " Po" في 14 من الشهر الجاري. وقد تقبل مبلغ 250 لير عن شهر سبتمبر الحالي، كما تم تزويده بتذكرة من الدرجة الثانية على الباخرة المذكورة، و دفع له سلفا سعر تذكرة أيضا بالدرجة الثانية على القطار المسافر من نابولي إلى روما".

إلى سعادة المركيز سان جوليانو

وزير الشؤون الخارجية– روما "

لم يبق أومبرتو عمر في مقديشو على ما يبدو لأسباب مختلفة، منها شعوره بأن العمل الجديد الذي أوكل إليه لا يتناسب مع ما وصل إليه من مكانة عندما كان في مسقط، إضافة إلى الراتب الصغير الذي فرض له في مقديشو بعد أن كان يحصل على 400 لير كما مر سابقا حيث تمت وقتها الموافقة على الزيادة له، بالإضافة إلى أنه كان يأمل من ذهابه إلى روما اقناع المسؤولين هناك بتحسين وضعه. وخلال وجوده فيها أوكلت الإدارة العامة للمستعمرات في وزارة الخارجية الإيطالية إليه عدة أعمال وطلبت له صرف مكافأة وذلك حسب ما جاء في رسالة مرسلة إلى وزير الخارجية جاء فيها:

- رسالة بدون رقم، تاريخ 1911/12/13 مرسلة من المدير العام لشؤون المستعمرات إلى وزير الخارجية الإيطالية [56]:

" السيد الوزير

إن السيد أومبرتو عمر الذي كان في مهمة في مسقط ومقديشو، قد تابع مختلف الأعمال لحساب هذه الإدارة المركزية خلال شهري نوفمبر و أكتوبر، وبشكل أدق كان يترجم القوانين السودانية ووثائق أخرى بالإضافة إلى دراسة لم تنته بعد عن سلطنة مسقط.

وحتى نكافئ السيد أومبرتو عمر على هذه الأعمال التي تستحق التقدير أرجو قبول اقتراحي بأن يتم تحويل مبلغ 150 لير لحسابه على أن يحمل هذا المبلغ على البند رقم 62 من ميزانية هذه الوزارة " .

التوقيع

المدير العام لشؤون المستعمرات "

تم التعليق على نفس الرسالة بخط اليد " تحويل مبلغ 150 لير حسب البند 62 " بتاريخ 12/21/ 1911 . وأغلب الظن أنه تعليق من قسم العلاقات في الوزارة.

لكن اللافت للنظر اهتمام ايطاليا بالسودان وترجمة قوانينها خاصة بعد احتلالها ليبيا عام 1911، كذلك الإشارة إلى الدراسة التي كان يقوم بها أومبرتو عمر عن سلطنة عمان والتي لم تكن قد انتهت بعد، وعلى الأرجح أنه كان قد أحضر المعلومات التي جمعها عن عمان قبل مغادرته لها، ثم عكف في ايطاليا على كتابتها. واستغرقه الأمر بعد ذلك حتى نهاية يناير عام 1912 .

- وجاء في رسالة من دون رقم، تاريخ 1912/2/12 صادرة عن وزارة الشؤون الخارجية، الإدارة العامة لشؤون المستعمرات، وموجهة إلى وزير الخارجية الإيطالي ما يفيد انتهاء أومبرتو عمر من إعداد هذه الدراسة[57] :

" السيد الوزير

قام السيد أومبرتو عمر خلال شهر يناير بإنجاز أعمال عديدة لحساب هذا المكتب ومن بينها الانتهاء من تأليف موضوع خاص بسلطنة مسقط كان قد كلف به.

أما التعويض على الأعمال المنجزة فالمقترح أن يمنح السيد عمر 150 لير ايطالي، وبحالة اعتماده من قبل سعادتكم، سيتم تحميله على البند رقم 62 من ميزانية هذه الوزارة

المدير العام لشؤون المستعمرات التوقيع"

وقد تم التعليق على هذه الرسالة بالتالي:

" تم الارتباط بمبلغ 150 لير

قسم المحاسبة جدول رقم 71 تاريخ 13/ 2/ 1912

رئيس المكتب الثالث ميزانية واحصاء التوقيع "

لابد أن وجود أومبرتو عمر في وزارة المستعمرات الإيطالية سمح له بالاطلاع على الكثير من المعلومات إذا أخذنا بالاعتبار عمله كمترجم في قسم الإدارة العامة، وبعد انتهائه من الأعمال التي كلف بها صدر قرار نقله مجددا إلى عدن حيث لازالت ايطاليا بحاجة لخدماته هناك. وجاء هذا التكليف في الرسالة التالية:

- رسالة بدون رقم، بتاريخ 3/25/ 1912 ، مرسلة من وزارة الشؤون الخارجية، الإدارة العامة لشؤون المستعمرات، إلى وزير الخارجية الإيطالي وموقع في أعلاها من قبل رئيس مكتب الميزانيات والمحاسبة، وعليها ختم هام جدا [58]:

" السيد الوزير

إن السيد أومبرتو عمر الذي كان يعمل من نحو ستة أشهر لهذه الإدارة الخاصة بشؤون المستعمرات، حيث كان يقوم بعمل خاص يتعلق بالترجمة، سيترك الآن هذا المكتب لأنه أرسل ليقدم خدماته للقنصلية العامة الملكية بعدن.

وقدم السيد اومبرتو عمر أيضا موضوعا هاما يتعلق بسلطنة عمان، وسيكون هذا الموضوع مشمولا في سلسلة التقارير ذات الموضوع الواحد والخاص بالمستعمرات.

وتحت مسمى مكافأة لهذا العمل وتعويضا لنهاية خدماته أقترح على معاليكم تحويل مبلغ للسيد أومبرتو مقداره 400 لير ، ويمكن لسعادتكم الاستناد إلى الفصل 62 من الميزانية الخاصة بهذه الوزارة.

وقد قام السيد أومبرتو عمر أيضا وبشكل يومي ومنذ ثلاثة أشهر بالاهتمام والاعتناء بترجمة المطبوعات الانجليزية.

وفي النهاية من الانصاف أن يقدم له مثل هذا المبلغ المقترح بالنظر إلى أن السيد عمر سيتم توجيهه للذهاب إلى عدن بصفة مترجم متميز لهذه القنصلية الملكية العامة بدون أن يعد له أي حق بأي تعويض. مرفوعة من العلاقات لمعالي الوزير"

تؤكد هذه الرسالة بقاء أومبرتو عمر في ايطاليا خلال النصف الأول من عام 1912، حيث عمل مترجما لدى وزارة المستعمرات، لكن عند نهاية مهمته فيها قرر وزير الخارجية الاستمرار في الاستفادة من خبرات أومبرتو عمر وخاصة اللغة الانكليزية والايطالية وإعادة توجيهه مجددا إلى عدن ليعمل في القنصلية الايطالية هناك بصفة مترجم متميز وتجدر الإشارة هنا إلى أن عدن كانت خاضعة للاحتلال البريطاني.

وقبل إيفاد أومبرتو عمر مجددا إلى عدن، طلبت وزارة الخارجية الإيطالية من الإدارة العامة لشؤون المستعمرات معلومات كاملة عنه. وجاء الرد موضحا لكل تحركاته وهي كالتالي:

- رسالة مؤرخة بتاريخ 18/ 6/ 1912، مرسلة من وزارة الشؤون الخارجية، الإدارة العامة لشؤون المستعمرات إلى وزير الخارجية موضوعها: " أومبرتو عمر" وموقعة في أعلاها من قسم الميزانيات والمحاسبة برقم 1 وتاريخ 18 /1912/7 [59].

" السيد الوزير

قام السيد أومبرتو عمر بخدمة هذه الوزارة في مهام خاصة في افريقيا والجزيرة العربية منذ أبريل 1908.

ومنذ هذا التاريخ كان وبشكل متتالي في بنادر[60] (Benadir) وأيضا في ايطاليا تحت تصرف هذه الوزارة، ثم في مسقط في الخليج الفارسي حيث مكث من مارس 1908 إلى أبريل 1911، ثم مجددا إلى بنادر ، وأخيرا من جديد تحت تصرف الوزارة من أكتوبر 1911 إلى مارس 1912.

وبهذا التاريخ تم توجيه السيد عمر بصفته مترجما فوق العادة إلى القنصلية الملكية بعدن، وبهذه المناسبة تم مكافأته بتعويض قدره 400 لير، وبدفعة مقدمة قدرها 300 لير عن رواتبه المقبلة ليتدبر أموره واحتياجاته. ولأسباب تتعلق بأمور خارجة عن رغبة السيد عمر، لم تتم مغادرته إلى عدن وبقي تحت تصرف هذه الوزارة خلال شهري أبريل ومايو.

مرفوعة من العلاقات إلى معالي الوزير "

يلاحظ من الرسالة السابقة أن أومبرتو عمر قد تم نقله بين مناطق عربية عدة منها الصومال وعدن والخليج العربي ومسقط على وجه الخصوص. وأن وظيفته المعلنة ركزت على عمله كمترجم لدى وزارة المستعمرات، كما أن ايطاليا كانت إحدى محطات عمله، وقد اختلفت طبيعة عمله في مسقط عنها في باقي المناطق، ففيها اكتسب صفة عميل سري لأنه كان مكلفا بمتابعة تجارة السلاح وحركة السفن التي تنقله من وإلى مسقط. وتفسر العلاوات التي كان يحصل عليها أهمية العمل الذي كلفته ايطاليا به في مسقط، بل إن توجيه إدارة المستعمرات له ثانية إلى عدن يؤكد نجاح أومبرتو عمر بالمهمات التي كلف بها.

الخاتمة:

تناولت هذه الدراسة الوثائقية التنافس الاستعماري في منطقة الخليج العربي وسلطنة عمان ودخول ايطاليا على خط هذا التنافس من خلال أحد عملائها المميزين، وقد خلصت إلى عدد من النتائج يمكن إجمالها بما يلي:

-أن التنافس الاستعماري على سلطنة عمان جذب إليها حتى الدول الموحدة حديثا مثل ايطاليا التي ادعت قيام مسقط بتصدير السلاح إلى مستعمرتها في الصومال ليكون لها دور في الخليج ومسقط.

-وأن ايطاليا التي أسست لنفوذها الاستعماري في شرق افريقيا بدعم من بريطانيا لم تلبث أن تطلعت لمنطقة الخليج العربي وعمان وسعت لنفوذ دبلوماسي لها في مسقط مستغلة انعقاد مؤتمر بروكسل عام 1908 لمكافحة تجارة السلاح في الخليج. لكن حرص بريطانيا على الانفراد بنفوذها على عمان جعلها تحول دون أية تطلعات لإيطاليا على الرغم من كونها حليفتها في وجه المنافسة الفرنسية.

-تنوعت أشكال التدخل في سلطنة عمان وكان من أحد وجوهها العملاء السريين، وقد اضطرت ايطاليا إلى اللجوء لإرسال عميل سري لها من أصل عربي بدل التمثيل القنصلي وذلك بناء على طلب بريطاني.

-أن العميل السري الإيطالي أومبرتو عمر أرسل إلى مسقط عام 1908 وبقي فيها حتى عام 1911، وكانت مهمته المعلنة تزويد ايطاليا بمعلومات عن تجارة السلاح وطرق نقلها. لكنه كان يجمع المعلومات عن عمان ويرسلها في تقارير لإيطاليا عبر القنصلية الإيطالية في عدن.

-قدم أومبرتو عمر في تقاريره معلومات هامة جديدة منها، وجود مخاوف من رفع الأعلام الإيطالية على القوارب التي تنقل السلاح، بل أشارت بعض التقارير إلى استخدام فعلي للأعلام الإيطالية.

-كما تضمنت تقاريره معلومات عن الحياة في عمان وصعوبتها وارتفاع الأسعار فيها.

وأخيرا لابد من القول أن التقارير المفصلة التي قدمها أومبرتو عمر عن تجارة السلاح والذخائر وحركة السفن لم يكشف عنها بعد ولا تزال بحاجة للبحث والتقصي.

الـــملاحـــــــق

- **الملحق الأول: رسالة من القنصلية الملكية الإيطالية في عدن إلى سعادة وزير الخارجية في روما، موضوعها أومبرتو عمر**
- **الملحق الثاني: رسالة من المكتب الحكومي للصومال الإيطالية مرسلة إلى وزير الخارجية الإيطالية موضوعها: عودة الموظف غير الاعتيادي أومبرتو عمر**
- **الملحق الثالث: رسالة من نائب القنصل الإيطالي في عدن بياجنتيني مرسلة إلى وزير الخارجية الإيطالية موضوعها أومبرتو عمر**
-

مصدر الملاحق كلها: الأرشيف التاريخي لوزارة الخارجية الإيطالية(ASME)

الملف:

Ministero dell Africa Italiana, Ufficio Storico, Africa 1
Posizione 92/2, Numero 2, periodo 1899-1912, Macalla e Mascate 1899-1912

R. Consolato Generale d'Italia

ADEN.

—:o:—

11 Dicembre 1911

MINISTERO DEGLI AFFARI ESTERI
001285 - 7 - GEN. 1911

No. di prot. 926 / 210

—:o:—

Risposta al foglio No.

addì

Oggetto

UMBERTO OMAR.-

Allegati

A Sua Eccellenza

il MINISTRO DEGLI AFFARI

ESTERI

R O M A

Signor Ministro,

Ho preso nota di quanto L'E. V. ha voluto significarmi col dispaccio 12 Agosto u.s. N. 102 circa lo stipendio del nostro informatore a Mascate Umberto Omar.-

Da due anni circa che L'Omar fu mandato a Mascate egli ha potuto fornire, con i suoi rapporti, copiose ed ampie notizie sul traffico delle armi e delle munizioni che si pratica nel golfo Persico.-

Poiche' il compito di questo informatore doveva limitarsi a studiare e riferire tutto cio' che ci poteva interessare di conoscere in materia di commercio di armi e munizioni, e sorvegliare, nello stesso tempo, il traffico illecito che potessero intraprendere i sambuchi battenti bandiera italiana, questo compito mi sembra sia stato raggiunto e di conseguenza terminata la missione affidata all'Umberto Omar a Mascate, tanto piu' che dai dati assunti sul posto, il traffico dei velieri che

% % %

35 Omar

battono la nostra bandiera si riduce ad ~~un numero~~ essere assai esiguo e non ha dato luogo a nessuna misura di repressione per parte delle autorita ' Co-loniali .-

Per ragione di opportunita' e di bilancio , poiche' la missione di detto ,informatore importa una spesa/tutto compreso/ di circa £ 650 mensili , mi permetto di proporre all' E. V. di togliere l'Omar Umberto da Mascate e destinarlo in un posto della Somalia Italiana dove, con minore spesa , egli potra' continuare a prestare utile servizio.-

A tal riguardo avendo io conferito con Sua Eccellenza il Governatore della Somalia Italiana ne ebbi affidamento che all'Omar si potra' dare un posto presso l'Ufficio di Governo (Direz. Finanza) con un assegno di £ 250 mensili.

In attesa di un favorevole riscontro a questa mia proposta , e prima di tenerne parola all'interessato, prego l'E. V. di gradire i sensi del mio profondo ossequio.-

IL REGGENTE

R Piacentini

SOMALIA ITALIANA

UFFICIO DI GOVERNO

Prot. N. generale 2322 speciale Gabinetto di posizione III/2

Risposta alla lettera

OGGETTO

Rimpatrio dell'impiegato straordinario Omar Umberto -

Allegati

R. MINISTERO degli AFFARI ESTERI
Direzione Centrale degli Affari Coloniali

R O M A

E. CALZONE — ROMA

Mogadiscio, 12 Settembre 1911

MINISTERO DEGLI AFFARI ESTERI
N. 072760 - 6 - OTT. 1911

L'impiegato straordinario Omar Umberto, appena giunse in Colonia nel Giugno u. s., fece delle rimostranze sull'ammontare dell'assegno stabilitogli in L. 250 mensili, come in generale è stato sempre fissato per un primo periodo, a tutti gl'impiegati assunti per contratto.

Non avendo il detto impiegato dimostrato alcuna attitudine nè desiderio di attendere al lavoro, non solo non ho creduto di dargli alcuna promessa di aumento di stipendio ma ho aderito senz'altro alla sua domanda di tornare in Itália e di lasciare definitivamente ogni servizio presso questa Colonia.

Partirà col piroscafo "Po" del 14 corr.-

E' stato soddisfatto dell'assegno di L. 250 a tutto il corrente mese di Settembre: è stato provveduto di un biglietto di passaggio di 2ª Classe sul detto piroscafo; gli è stato anticipato il prezzo del biglietto ferroviario di 2ª Classe Napoli-Roma in

الهوامش :

1 – ويلسون، ت، أرنولد،(2001)، تاريخ الخليج، ترجمة محمد أمين عبد الله، دار الحكمة، لندن، ط1، ص 180.

2 – ويلسون، المرجع السابق، ص 183

3 – حميدي، جعفر عباس، (2002)، تاريخ افريقيا الحديث والمعاصر، دار الفكر، عمان، ط1، ص 85

4 – الجمل، شوقي،(1980)، تاريخ كشف افريقيا واستعمارها، مكتبة الانجلو المصرية، ط2، ص360

5 – حميدي، مصدر سابق، ص 87

6 – حميدي، مصدر سابق، ص 87. وانظر الجمل ، مصدر سابق، ص 377.

7 – الجمل، مرجع سابق، ص 362

8 – سليم، محمد السيد، (2002)، تطور السياسة الدولية في القرنين التاسع عشر والعشرين، دار الفجر، القاهرة، ط1، ص 212، وانظر الجمل، مرجع سابق، ص 374– 375

9 – البسام، علي بن حسين بن عبد الله، (1997)، الملاحة في سلطنة مسقط وتجارتها الخارجية 1872– 1914، رسالة ماجستير، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، السعودية، ص196.

10 – عبد الوهاب عبد الرحمن،(1997)، الخليج العربي والمحرمات البريطانية الثلاث 1778– 1914، دار القلم، الإمارات العربية المتحدة، ط1: ص 139

11– قاسم، جمال زكريا، (1997)، تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر تطور النفوذ البريطاني في إمارات الخليج العربية والمنافسات الإقليمية والدولية 1840– 1914، دار الفكر العربي، القاهرة، ص 453.

12 – عبد الوهاب، مرجع سابق، ص 144

13 – لوريمر، ج.ج،(1995)، السجل التاريخي للخليج وعمان وأواسط الجزيرة العربية، ج1، م2.، دار غارنت للنشر، انجلترا، طبع في لبنان، ترجمة جامعة السلطان قابوس، ص 126.

14 – البسام، الملاحة في سلطنة مسقط، مرجع سابق، ص204. من أنواع الأسلحة الايطالية التي وصلت مسقط البندقية أرماتا رومانا.

15 – لوريمر، ج1، م2 ، مصدر سابق، ص 296

16 – حول التنافس البريطاني الفرنسي في مسقط يمكن العودة إلى الداؤد، محمود علي،(1977)، الخليج العربي والعلاقات الدولية، ج1، 1890– 1914، دار المعرفة، القاهرة، ص 85– 110 .

17 – لوريمر، ج1، م2، مصدر سابق، ص 297. وانظر حول التمدد الروسي في الخليج العربي إلى ابراهيم، عبد العزيز عبد الغني،(1981)، السلام البريطاني في الخليج العربي 1899–1947، دار المريخ، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، ص77– ص 109 .

18 – البسام ، الملاحة في سلطنة مسقط، مرجع سابق، ص 208. :كما أن البسام عرض خارطة توضح طرق نقل السفن ومنها طريق إلى الصومال، ص 207.

19 – ويلسون، مصدر سابق، ص 209

20 – ويلسون، المصدر السابق، ص208

21 – ويلسون، المصدر السابق، ص209

22 – لوريمر، ج1، م2 ، مصدر سابق، ص 126

23 – بدويل، د،ر.(1980)، الاتفاقيات الدولية مع سلطنة عمان، حصاد ندوة الدراسات العمانية، م8، مطابع سجل العرب، ص 223. وانظر لوريمر، ج1، م10 ، مصدر سابق، ص 105، ص 117.

24 – حول قضية الأعلام الفرنسية انظر جمال زكريا قاسم، مرجع سابق، ص 440– 448. وانظر الداؤد، مرجع سابق، ص 105 .

25 – الوسمي، خالد ناصر،(1993)، عمان بين الاستقلال و الاحتلال دراسة في التاريخ العماني الحديث وعلاقاته الإقليمية والدولية، مؤسسة الشراع العربي، الكويت، ط1، ص 26

26 – عقد مؤتمر بروكسل بناء على دعوة من بريطانيا

27 – Busch, B, C,(1967), Britain and the Persian Gulf 1894- 1914, U,S.A, university of California, press , p 279

28 – تم تعيين كوكس قنصلا ووكيلا لبريطانيا في مسقط عام 1899 وله الفضل في تقوية النفوذ البريطاني في مسقط على حساب النفوذ الفرنسي. حول ذلك انظر جمال زكريا قاسم، مرجع سابق ص 438.

29 – Busch,op.cit , p 279

30 – حول المخاوف التي أثارتها بريطانيا من التمدد الروسي في الخليج يمكن العودة إلى الداؤد، مرجع سابق، ص 108.

31 – Busch, op.cit. , p 279

32 – Busch, Ibid , p 280

33 – Busch, Ibid , p 280 كانت بريطانيا تؤكد دائما حرصها على الانفراد في الهيمنة السياسية على الخليج العربي وهذا ما ذكره كيرزون عام 1901 في خطابه للندن من أن النفوذ البريطاني في جنوب فارس وفي الخليج العربي يجب أن يبقى طاغيا: " إننا لا نحب أن تنافسنا القوى الأخرى هناك". وكذلك قال الورد لامنجتون Lammington عضو مجلس الشيوخ البريطاني عام 1903 " إن موقفنا في الخليج العربي اكتسبناه ببذل المال الذي يصل إلى الملايين بسخاء، و لم نبخل بالأرواح ، إن الإدارة في الهند ترى أن أمن الخليج العربي هو مسألة أساسية في شأن الدفاع عن الإمبراطورية الهندية". حول مواقف بريطانيا في الخليج العربي يمكن العودة إلى: ابراهيم، مرجع سابق، ص90، ص102 وغيرها.

34 - Busch, op.cit , p 281

35 - قاسم، مرجع سابق، ص 454 .

36 - Busch, op.cit p 282

37 - يذكر كتابBusch , ص282 أنه " كان واضحا من البداية أن فرنسا لا تريد مالا، فالفرنسيون كانوا على استعداد لتسليم مسقط لنا بالطريقة نفسها التي سلمنا لهم بها تونس ومدغشقر، ويريدون بالمقابل، المستعمرة البريطانية في غامبيا Gambia....وأن فرنسا ستبقى تضغط على مسألة غامبيا- عمان.

38 - Busch, op.cit , p 284

39 - Busch, Ibid , p 284، وقبيلة بني عامر قبيلة من أصول عربية، هاجرت من الجزيرة العربية إلى شرق افريقيا و تمكنت في القرن الحادي عشر الميلادي من إنشاء مملكة لها عرفت باسم "مملكة البني عامر" وتتألف من أربع وعشرين قبيلة". امتد نفوذها من مصوع في ارتيريا إلى حلايب، حول ذلك انظر عبد الله ادربس، إضاءات في التاريخ والانثروبولوجيا ، الأصول التاريخية لسكان ارتيريا- الجزء الخامس، تاريخ التصفح 2014/2/19.

40 - Busch, op.cit , p 284

41 - السير هولاند بقي في مسقط من نوفمبر 1908 إلى أبريل 1910 ، حول ذلك انظر البسام، علي بن حسين بن عبد الله، (2009)، الأوضاع السياسية والاقتصادية في سلطنة مسقط وأثرها على الملاحة والتجارة في عهد السلطان تركي بن سعيد وابنه فيصل 1873- 1914 ، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ط1، ص 366

42 - ASMAI, Ministero dell Africa Italiana, Ufficio Storico, Africa 1.Pposizione 92/2, Numero 2, periodo 1899-1912, Macalla e Mascate 1899- 1912, (No 29, 25 Aprile 1910)(Una Lettera da Umberto Omar al Signore Reggente in Aden,(Mascate.

43 - ASMAI, op.cit,(5/1910, Una Lettera spedita dall` informatore Sig. Umberto Omar in Mascae all Regio Consolato Generale d` Italia in Aden, Oggrtto: Aumento assegni) Fto. U. Omar .

44 - حصل الهنود بعد عام 1873 على اعتبار حكومة الهند البريطانية لهم رعاياها، وأصبحوا تحت حماية ومسؤولية القنصلية البريطانية في مسقط، وقد أسهم التجار الهنود الذين امتلكوا معظم تجارة الأسلحة والذخائر في الضغط على السلطان فيصل، حول ذلك انظر: البسام، الأوضاع السياسية.... مرجع سايق، ص 258- 259.

45 - كانت قيمة 180 روبية تعادل 300 لير ايطالي.

46 - ASMAI, op.cit , (No 522/136. 30/7/1910. Oggetto: Umberto Omar, domanda un aumento di assegno. Una Lettera dall` Consolato d` Italia, Aden, al Ministero degli Affari Estri.

47 - Busch, op.cit , p 284

48 - الزدجالي، اسماعيل، تجارة عمان الخارجية في عهد السلطان فيصل بن تركي البوسعيدي 1888- 1913، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التاريخ، جامعة السلطان قابوس، 2006، ص 73

49 - Busch, op.cit p 281

50 - ASMAI,op.cit, (No 926/ 210, 7/1/1911, Oggetto: Umberto Omar, Una Lettera dall` Consolato d` Italia, Aden, al Ministero degli Affari Estri.

51 - لم تكن مراكب السنبوق وحدها التي تنقل الأسلحة بل كذلك مراكب (الداود، والبغلة) حول ذلك انظر البسام، الملاحة في سلطنة مسقط، مرجع سابق، ص206.

52 - ASMAI,op.cit, (No 1064, 9 marzo 1911, Telegramma in Arrivo, da Piacentini ,Aden, a Roma).

53 - ASMAI,op.cit,, (No 178/91. 2 maggio 1911, Oggetto: Un progettata spedizione scientifica danese nel Golfo Persico. Una Lettera dal Regia Legazione d`Italia a Copenaghen all Ministero dell Affari Esteri il Marchese di San Giuliano.

54 - Busch, op.cit , p 284

55 - ASMAI,op.cit.(No 2322, Gabinetto III/2 , Settembre 1911. Oggetto: Rimpatrio dell` impiegato straordinario Omar Umberto. Una Lettera dalla Somalia Italiana Ufficio di Governo, all Ministero degli Affari Coloniali.

56 - ASMAI,op.cit , (3 dicembre1912,Una Lettera dal Direzione Generale degli Affari Coloniale al Ministero

57 - al Ministero) ASMAI,op.cit ,(12 dicembre 1912. Una Lettera dal Direzione central degli Affari Coloniali)

-58 ASMAI,op.cit , (25 Marzo 1912, Roma, Una Lettera dal Direzione Cenerale degli Affare Coloniali al Ministero.Roma.

59 - ASMAI,op.cit, (18/ 6/1912, Oggetto: Umberto Omar, Una lettera dal Direzione Centrale degli Affari Coloniali al Ministero

60 - بنادر: هي محافظة في جنوب شرق الصومال، سكانها عرب مسلمون..

من صور التعليم الفرنسي بالجزائر:

دار المعلّمين ببوزريعة (1865ـ1954م)

د/ سعيدي مزيان
المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة

إنّ أبرز قول مشهود صوّر صورة التّعليم الفرنسي بالجزائر قول المؤرّخ العصامي أحمد توفيق المدني في معرض حديثه عن الموضوع قائلا: "أرأيت الشجرة الكبيرة وقد ذبلت أغصانها وتناثرت أوراقها من شدة الضمأ واشتاقت قطرة الماء التي هي أملها الوحيد في الحياة وهي الواقية لها من الموت ؟ تلك هي أمة الجزائر وذلك هو اشتياقها للتعليم وذلك هو المثال الذي يصور لك شدة تعطشها إليه ، وناهيك عن أمة تبلغ درجة الأمية فيها نحو 95 % من مجموع أفرادها " (1) .

لقد ربطت فرنسا سياسة التعليم الفرنسي بسياستها الاستعمارية وبمشاريعها الكولونيالية في الجزائر . وفي اطار دمج والحاق الفئة الجزائرية الموالية لهم ثقافيا وسياسيا ،شرع جول فيري Jules Ferry و كومب Combes وجانميير Jeanmaire وجونار Jonnart ،وغيرهم من الشخصيات الفرنسية في بسط سياسة تعليمية فرنسية تخدم المشروع الفرنسي بالجزائر . فجول فيري كان يتصور بأنّ الجزائر مستعمرة خاصة ، فيجب أن تكون لها مدرسة خاصة وكان تصوّره لهذه المدرسة مغايرا للمدرسة التي كانت موجودة في فرنسا ، بل حصر مهمتها أساسا في تكوين طبقة من المتعاملين مع الإدارة الفرنسية والذين لا يكون لهم مستقبلا أي تأثير لا على الأفراد أو الجماعات الجزائرية (الأهلية) ، وذلك على عكس العناصر التي تتخرج من المدرسة التقليدية الجزائرية [2] التي كانت في نظره لا تنتج إلا عناصر مشاغبة ومناهضة للاستعمار في الجزائر ، ومن ثمّ حصر هذه السياسة التعليمية في تكوين **ممرّنين** يساعدون المعلّم الأساسي الذّي يكون غالبا فرنسيا في نشر التعليم الفرنسي في البلاد وفي تكوين **أعوان للأطباء** وليس أطباء ، وتكوين **أعوان للادارة الفرنسية** من كتاب وأعوان لسلك القضاء والغابات وغيرها ليكونوا همزة وصل بينها وبين الأهالي الجزائريين. [3] ولقد جسّد تصريح الفريد رامبو

Alfred Rambaut هذا المنحى بقوله : " تمّ الاستعمار الأوّل في الجزائر بالسلاح وانتهى في 1871 بتزعه من منطقة القبائل والاستعمار الثاني تمثل في قبول السكان للحياة والادارة والقضاء الفرنسي والاستعمار الثالث سيتم من خلال المدرسة التّي ستضمن هيمنة لغتنا وتبرز دور فرنسا في العالم " [4] .

ومهما يكن من أمر فإنμ السياسة التعليمية الفرنسية قد أوجدت في الجزائر لإعطاء التعليم الجاد والنافع لأبناء المستوطنين الأروبيين ، ومن ثم فإنّ المدرسة الفرنسية كانت موجودة فعلا في فرنسا وفروعها في الجزائر وهي مخصّصة للفرنسيين في كلّ من فرنسا والجزائر وهو ما عرف عندهم بالتعليم الأوّل أ (A) ، أمّا التعليم الثاني أ ي ب (B) ، فهو خاص بالرعايا وأغراضه وبرامجه ليست كأغراض وبرامج التعليم الأول[5] .

تبعا لجملة المعطيات هذه وأخر لا يتسع المجال لذكرها، أنجزنا الدراسة المذكور عنوانها أعلاه والتّي حاولت الاجابة على اشكالية نخالها هامة تمثلت أساسا في : ماهي المكانة التّي حظيت بها مدرسة دار المعلمين ببوزريعة في سياق السياسة التعليمية الفرنسية بالجزائر علما أنها تمثّل جوهر السياسة الثقافية الفرنسية المنتهجة بها على امتداد تاريخ الاحتلال الفرنسي للجزائر ؟

1 – السياق التاريخي لتأسيس دار المعلمين ببوزريعة وتطوراته :

تأسست دار المعلمين تبعا لمرسوم إمبراطوري صدر في 1865/03/04 وقرار وزاري في 1865/08/03 باقتراح من ماكماهون Mac Mahon (الحاكم العام للجزائر). وقد حدّد عدد طلابها بواحد من الجزائريين مقابل اثنين من الأوروبيين أي 10 جزائريين من مجموع 30 طالب ستظمهم المدرسة (6) .

ظهرت أوّل توصية بإنشاء مدرسة لترشيح المعلمين (النورمال) في تقرير لجنة الجنرال بيدو Bideau سنة 1849، وهي اللجنة التي درست موضوع التعليم بتوسع، سيما المتعلق منه بالتعليم الموجه إلى الجزائريين. فقد جاء في تقرير هذه اللجنة: "نقترح إنشاء مدرسة لترشيح المعلمين (نورمالية) ابتدائية تكون فيها اللغة العربية (الدارجة) ذات مكانة بارزة وإجبارية " . والمقصود أن يكون على المعلّم المتخرّج من هذه المدرسة سواء كان أوروبيا أو جزائريا، عارف باللغة العربية، لأنّه سيدرّس لأطفال يوجدون على أرض الجزائر.سواء كان آباؤهم جزائريين

أو أوروبيين. ولذلك درست اللّجنة المذكورة سلفاً أيضا إمكانية توظيف المعلّمين الجزائريين الذين يحسنون قدرا من الفرنسية في المدارس الفرنسية–الفرنسية (7) . وكان إنشاؤها تلبية لحاجة المدرسة الابتدائية الفرنسية إلى المعلمين الأكفاء. فقد كثرت المدارس وازداد التلاميذ الفرنسيون تبعًا لازدياد عدد المستوطنين.

و من دواعي ظهورها أيضًا تثبيت المدرسة الابتدائية الموجّهة للجزائريين والتّي سمّيت بالمدرسة العربية– الفرنسية. وهي التي ظهر منها سنة 1850 ست مدارس، ثم ازدادت حتّ وصلت إلى حوالي 34 سنة 1870 م (8) .

افتتحت المدرسة بتعداد 30 طالب، ورغم أنّ المرسوم نص على قبول 10 من الأهالي الجزائريين، إلاّ أن عددهم في الدّفعة الأولى سنة1865 لم يتعد 3 طلاب ثم طالب واحد سنة1866 و نفس العدد سنة1867 وسنة 1868 ليصبح عددهم طالبين إثنين سنة 1869. وهذا يدّل على أن المدارس العربية – الفرنسية كانت غير قادرة على تكوين التلاميذ المترشحين لمدارس المعلّمين (9) .

إضافة إلى ذلك تأسّست منذ 1883 أقسام المعلمين خاصة بالجزائريين تابعة لمدارس المعلمين (مدارس النورمال) écoles Normales . وكانت مدّة الدراسة سنتين ثم أصبحت ثلاث سنوات بعد 1892 وبإمكان الطلاب إتمام السنة الرابعة في حالة عدم توظيفهم عند التخرج، وكان مرسوم 1892 قد أمر بتأسيس من 60 إلى 80 قسم جديد كل سنة خاص بتعليم الجزائريين لتوظيف خريجي مدارس المعلمين، إلا أن الإدارة الفرنسية لم تستطع تأسيس أكثر من 22 قسم كلّ سنة خاصة بتعليم الجزائريين. وبالمقابل ظلّ عدد المدرسين الأوروبيين قليلا وناقصا، لأنّهم كانوا يرفضون العمل في المناطق النائية والبعيدة (10) .

ويلتحق بقسم المعلّمين تلاميذ المدارس الجزائرية الذين يحملون شهادة الدراسات الابتدائية C.E.P بعد إجرائهم مسابقة، وتبلغ مدّة الدراسة في قسم المعلّمين ثلاث سنوات. ففي السنتين الأوليتين يحضّر الطلاب الشهادة الابتدائية(Brevet élémentaire)، أما السنة الثالثة فهي مخصصّة للتربية المهنية والأعمال كمساعدين أو نائبين أهالي (Adjoints-indigénes)، أمّا الذين يرسبون في هذه الشهادة، فيعيّنون كممرنين(Moniteurs) في

المدارس الابتدائية (مع اختلاف في رواتب الطرفين)، أما طلاب السنة الثالثة والأخيرة فيتقدمون لامتحانات الشهادة العالية (Brevet supérieur).

وتأسست من جانب آخر الشعبة الخاصة (Section spécial) بمرسوم (1891/10/20) لتكوين مدرسيين للعمل في المدارس الجزائرية وكان طلاب هذا القسم يقدمون من الميتروبول (الوطن الأم) خاصة ، ومن التلاميذ الأوروبيين المتخرجين من مدارس المعلمين والحاملين للشهادة العليا. وكانت هذه الشعبة هي الأخرى قد عرفت نفس مصير قسم المعلمين الجزائريين من حيث التذبذب والتغيّر في عدد الملتحقين بها وفي سيرها الطبيعي، ذلك لأن مصدرها كان من خارج الجزائر. والمعلّم الجزائري لا يمكنه أن يترسّم في سلك التعليم إلا إذا تجنس بالجنسية الفرنسية وفقا للمادة 39 من مرسوم1892. كذلك لا يحق له أن يواصل دراسته والتقدّم إلى الشهادة العليا حتى لا يتساوي مع المدرس الفرنسي ويبقى دائما تحت إشرافه وسلطته (11) .

من جانب آخر على المترشحين الجزائريين أن يتقدموا بطلب إلى مدير التّعليم وأن يكون سنهم بين16 و22سنة وأن يكون لهم شهادة تثبت تاريخ ميلادهم ومكان نشأتهم، ثم شهادة طبية، أمّا المستوى فتثبته شهادة من إحدى المدارس الشرعية الفرنسية الثلاث بالإضافة إلى كتابة إلتزام يتعهد المترشح بمقتضاه ممارسة مهنة التعليم عشر سنوات بعد التخرّج، ثم يختم ملف الشروط شهادة حسن السيرة والسلوك، إمّا من مدير المدرسة التي درس بها المترشح، وإمّا من ڤايد النّاحية التي يسكنها (12) .

2 ــ الفئات المدرّسة بدار المعلّمين:

إن "الانتماء الاجتماعي" أو الطبقي ، إن صحّ التعبير، لهؤلاء التلاميذ الملتحقين بقسم المعلمين والذين يمثلون النخبة المثقفة التي صنعتها المدرسة الفرنسية، يبرز بوضوح سياسة التمييز والتمايز الاجتماعي التي تبنتها السلطات الفرنسية حيال الجزائريين. وإذا كانت الفروع الأخرى للتعليم تستقبل أبناء الأسر الغنية وأبناء الجماهير الواسعة على حد سواء، فالظاهرة هذه منعدمة أو تكاد تنعدم في أقسام ومدارس المعلمين كانعدامها في التعليم الثانوي والعالي. فأبناء الجزائريين لا يحق لهم إطلاقا متابعة دراستهم إلى ما بعد التعليم الابتدائي الأولي البسيط، ويبقى هذا المجال مفتوحا فقط للأسر التي تربطها علاقات مصلحية مع الإدارة الفرنسية. وترى

ف.كولونة Colonna أن وجود هؤلاء التلاميذ في أقسام المعلمين يعبّر عن اختيار هؤلاء وانتقائهم. فبعض الإشارات تبيّن أن فئة قسم المعلمين ليست مختارة أو لم تختر من حيث أصلها الاجتماعي أو انطلاقا منه، مثل الفروع الأخرى للجزائريين، ولكن أكثر من ذلك فهي تختلف عن هذه الأخيرة بحالتين: أوّلها أن هذه «الفئة» لها تقارب موضوعي مع المجتمع المسيطر وبطبيعة وجودها كذلك، فهي بعيدة عن المجتمع المسيطر عليه. أو بمعنى آخر للوصول إلى هذا القسم يجب أن تتوفر في المترشح بعض المزايا الاقتصادية والاجتماعية التي توجد بشكل غير عادل عند السكان الجزائريين، بحيث أن نسبة 30% من هؤلاء التلاميذ ينتمون إلى عائلات غنية و24.3% من عائلات تتمتع ببعض النفوذ و27% آباؤهم موظفون في القطاع العام، أي يتمتعون برواتب محدّدة وضمانات نسبية في الشغل. فالتعليم في هذه المدارس كان يتوجّه- بخلاف الفروع الأخرى- إلى جماعات أوضاعها جيدة نسبيا. وترجع أصول هذه الفئة حسب النسب العالية المقدمة وبحكم وجودها في المدن إلى **أصول مدنية حضرية** (**Urbaine**) **وهذا لا شك يرجع إلى التعليم الأكثر انتشارا نسبيا في المدن منه في الأرياف (13)** .

مهما يكن من أمر، فلا بدّ أن تلاحظ خصوصية التعليم الفرنسي الذي وجد أساسا لتعليم أبناء طبقة معينة: القياد، الباشغوات، (الإقطاعيين)، التجار الكبار، الموظفين في الإدارة الفرنسية والمتعاملين معها. وعدا ذلك فالتعليم الفرنسي في الجزائر لم يمس الطبقات الشعبية إلاّ نادرا، وفي حالات خاصة (14) .

3 ــ برامجها التعليمية:

تتطابق البرامج التّي خصصت لتلاميذ دار المعلمين مع طبيعة مهنتهم المستقبلية في المؤسسة الاستعمارية في الجزائر، ويمكن إجمال هذه المواد التعليمية التي تدرس في أقسام المعلمين فيما يلي:

01- التربية الأخلاقية.

02- اللغة الفرنسية.

03- مبادئ في تاريخ فرنسا والجزائر.

04- مبادئ في التنظيم الإداري والتشريع والتنظيم الاقتصادي للجزائر.

05- مبادئ في الجغرافية العامة وجغرافية فرنسا والجزائر.
06- اللغة العربية.
07- مبادئ في الرياضيات وتطبيقاتها.
08- مبادئ أولية في التجارة والمحاسبة.
09- معلومات شائعة ومألوفة.
10- الرسم ورسم الفنون الأهلية.
11- العمل اليدوي.
12- الفلاحة.
13- التربية المهنية (15) .

وتكمن وظيفة ومهمة قسم المعلمين في إعطاء الجزائريين تكوينا وعادات فرنسية لتحضيرهم لأن يكونوا خدّاما للإدارة الاستعمارية في الجزائر. فالقيمة الأخلاقية (مصطلح لكولونة) إذا للتلميذ الجزائري، هي حجر الزاوية في تكوينه بمدرسة المعلمين، لأنه موجّه لأن يكون في النهاية ناشر الغزو الثقافي والفكري الفرنسيين في المستقبل لدى الأجيال الصاعدة. وقد أوضح أحد التلاميذ خريجي الشعبة الخاصة في مدرسة المعلمين ببوزريعة في سنة 1895 أهمية هذه البرامج الفرنسية التي تجعل من دارسيها شبه فرنسيين «...عندما يتكلم الأهالي لغتنا يصبحون نصف فرنسيين». فالمدرسة الفرنسية بهذا الشكل كانت مركزًا لتحويل الجزائريين عن دينهم أو بعبارة أخرى فرنستهم لإدماجهم في الكيان الفرنسي. وكان هدفها هو تكوين وسطاء ثقافيين لنشر الثقافة الفرنسية والغزو الغربي. فقد قال أحد المثقفين الجزائريين زمن دعاة الإدماج السيد فاسي مؤسس جريدة صوت المتواضعين (La voix des humbles) يصف مهمة المثقفين بأنهم : «...يمثلون أحسن الوسطاء بين فرنسا والشعب المسلم...» [16] .

4 ــ الأهداف الرئيسية من السّياسة التعليمية الفرنسية بدار المعلّمين :

إنّ الأمر الذي لا يختلف فيه اثنان هو كون الهدف من سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر والتي مثلتها دار المعلمين ببوزريعة محاولة صبغ الجزائر بصبغة فرنسية خالصة في كل صغيرة وكبيرة، حتى تنقطع جميع الروابط التي تربط الجزائر ماضيا وحاضرا ومستقبلا بثقافتها ولغتها

الوطنية، وتاريخها الإسلامي وانتمائها الحضاري إلى الأمة العربية حتى تنشأ الأجيال الجزائرية في ظل هذه السياسة المرسومة نشأة ممسوخة في كل شيء، ومقطوعة عن جذورها الأصلية لأنه لا يوجد شيء في الحياة العامة بالجزائر يذكر بماضي الأسلاف والوطن وبذلك تصبح أسهل انقيادا للسياسة الفرنسية وأكثر قابلية لنتائجها وعواقبها الوخيمة على الشخصية الوطنية الجزائرية (17) .

كانت فلسفة المدرسة العربيةـــ الفرنسية (الابتدائية) في الجزائر تقوم على أن التعليم فيها هو نسخة من التعليم الفرنسي. والفارق الوحيد هو وجود اللغة العربية (الدّارجة) في برامجها. وقد كتب الحاكم العام الماريشال ماكماهون في 9 يناير1865 قائلاً : " إنّ البرنامج كان موضوعًا على أساس برنامج المدرسة الابتدائية الفرنسية، ومع ترك مكان لتعليم اللغة العربية " . وعبر مدير التعليم (الريكتور) أيضًا على نفس الرأي مع الإلحاح على توحيد البرنامج وترويج اللغة الفرنسية، رغم أن التعليم موجه إلى الجزائريين (18) .

وتماشيًا مع هذه الروح وضمانًا لإيجاد الإطار المناسب من المعلمين في المدارس الابتدائية العربية–الفرنسية أنشئت مدارس ابتدائية لترشيح المعلمين في مدينة الجزائر بمرسوم إمبراطوري، في مارس–أبريل1865 م . وجاء في تبرير إنشائها أن الجزائريين بدأوا يقبلون بإرسال أبنائهم إلى المدرسة الابتدائية–الفرنسية، وهذا يعني ضرورة إتقان التعليم فيها والبحث عن المعلمين الأكفاء للتأثير على الجيل الناشئ من الأهالي، عن طريق مدرسة ترشيح المعلمين. إنّ الهدف من فتح المدارس العربية–الفرنسية هو نشر اللغة والأفكار الفرنسية بين الأطفال الجزائريين بسرعة، وهذا لن يتحقق إلا إذا وضعوا بين أيدي معلمين يعرفون اللغة العربية الدارجة والعادات والتقاليد والتأقلم مع التقاليد الثقافية للأهالي. وإذا لم يُعد المعلّمون إعدادًا خاصًا بذلك فإنهم سيبقون غرباء عن هذه البيئة، ولن يتحقق الهدف من المدارس العربية–الفرنسية، ولكن إعداد المعلمين ليس خاصًا بمدارس أبناء الجزائريين بل هو شامل أيضًا للمدارس الفرنسية–الفرنسية (19) .

إجمالاً يمكن جمع الأهداف العامة لسياسة فرنسا في إنشاء دار المعلمين والتمكين لسياستها التعليمية بالجزائر في النقاط الجوهرية التالية:

1) محاربة اللّغة العربية محاربة عنيفة وفرنسة التعليم الابتدائي، نظرا لخطورة اللغة في بناء الشخصية الوطنية باعتبارها "روح الأمة" وعرقها النابض بحيث يكون القضاء عليها بمثابة القضاء على ذاتية الأمة لأن الشخصية في مجموعها نتاج ثقافي (20) .

و لا تخلو مسألة تدريس اللغة العربية للمترشحين الجزائريين من فلسفة عند البعض، فبول برنار Paul Bernard ، مدير دار المعلمين ، صرح بنفسه سنة 1897 أن تعليم اللغة العربية جاء استجابة للمطالب المتجددة من الجزائريين ، ثمّ أنّ العربية هي لغة التجارة في نظره، ولكنه أكد أنه يعني اللهجة الدارجة فقط، فهل طالب الجزائريون بالعربية الدارجة أو بالمكتوبة؟ إن العرائض كانت تطالب باللغة العربية المكتوبة، لغة التعليم والقراءة والكتابة والعلم والبحث. أما الدارجة فلا تقيد إلا المستشرقين والتجار الفرنسيين، وقد انتقد بعض علماء الفرنسيين أنفسهم تعليم الدارجة إذ لا طائل من ورائها، وذلك أن اللغة المكتوبة هي لغة التراث و القرآن والتجارة أيضًا– وهم يقصدون بالتجارة الاتصال بالبلاد العربية والإسلامية عن طريقها. ولكن أيديولوجية القضاء على اللغة العربية لتعيش الفرنسية هي التي كانت تملي اختيار اللغة الدارجة التي رفضها الجزائريون من التعليم على كلّ حال (21) .

أمّا من ناحية فرنسة التّعلم والتّعليم فقد اعتبرت الفرنسية حاملة للأفكار التي تعرف بالحضارة الفرنسية بشكل تنغرس في عقول الأهالي وتسيطر عليهم وتجعلهم يتقبلون فرنسا بطرق سلمية. فاللغة الفرنسية من شأنها أن تحدث القطيعة وتحمل حضارة أخرى وتحل محلّ الأولى (اللغة الأم). يقول جول فيري في هذا الشأن: "

يكفي أن تتحكم في الطفل الجزائري المسلم حتى سن الرابعة عشر فقط، دون أن نعلمهم كل البرامج التعليمية وأن نركز فقط على اللغة الفرنسية" وعليه فعلى المعلمين أن يخاطبوا التلاميذ مباشرة ، ويعلموهم التكلم والتفكير باللغة الفرنسية " (22) .

2) محاولة تشويه تاريخ الجزائر في ظل العروبة والإسلام بقصد إلقاء ضلال من الشك على انتماء الجزائر العربي الإسلامي. ومن هنا انحصر اهتمام علماء التاريخ والآثار الفرنسيون في البحث عن تاريخ الجزائر تحت الحكم الروماني. وفي عهد الاستعمار الفرنسي فقط ضاربين صفحا عن تاريخها الطويل في ظل العروبة والاسلام. وكان الغرض من ذلك واضحا وهو محاولة اقناع الجزائريين بأن بلادهم فرنسية في حاضرها ومستقبلها ورومانية في ماضيها ولا شيء غير ذلك (23) .

فلقد كان المترشحون الجزائريون لدار المعلمين وكذا عامة المتعلمين الجزائريين يدّرسون على أن بلادهم كانت قديما تسمى غالة la Gaule وأن أجدادهم يسمّون الغاليون Les

Gaulois كما أن مقررات مادة التاريخ في التعليم الفرنسي كانت تهتم بتدريس تاريخ فرنسا في كل العصور، بينما تجاهلت تاريخ الجزائر بجميع عصوره وأزمنته حتى الساعات المخصصة لدراسة تاريخ الجزائر كانت قليلة جدا، وأكثر من ذلك مشوهة Histoire Mensongère، وأدى الأمر بالفرنسيين كذلك إلى التدخل حتى في المدارس العربية الحرة والكتاتيب القرآنية لمنع أصحابها من تدريس التاريخ العربي الإسلامي.

لقد كان الجزائريون يتعلمون تاريخ البلد الأم، فرنسا الجمهورية الديمقراطية، مع تمجيد عظمة فرنسا وإنسانيتها وحضارتها، وكذا الثورة الفرنسية، وانتصارهم في فالمي على البروسيين، والتعريف بنابليون وروسو ومونتسكيو وديكارت وفولتير.

فضلا على القول بأن الأمة الجزائرية غير موجودة في التاريخ، مع عدم التركيز على ماضي الجزائر، بل التركيز على تاريخ فرنسا فقط (24) .

كما أورد آجرون بعض المسائل المدروسة في مادة التاريخ، فذكر منها : المسيحية في بلاد البربر، أصول الأمة الفرنسية والعرب ومحمد واحتلال بلاد البربر وإسبانيا وشارل مارتل والخلافة والحضارة العربية وانحطاطها، شارلمان وعنفوان سلطته، الأتراك، احتلال الجزائر .

ولعل موقف ابن شنب (خريج مدرسة المعلمين) بالتخلي عن تدريس مادة التاريخ"نظرا للتعليقات الخاطئة التي تولدت عن ذلك التدريس، وبصفة أخص عندما يتعلق الأمر بالجزائر يبرز بجلاء خطورة المسألة مثال ذلك ورود عبارات الأمير عبد القادر الطاغي ، نفاق المرابطين، العرب الذين يذّبحون الفرنسيين ، الاستبداد العثماني وغيرها . وردا على أسئلة بعض المستوطنين حول تشجيع المعلمين على إبراز الجوانب الوطنية في التاريخ رد مدير دار المعلمين(Paul Bernard) سنة1897 في نشرية Bulletin de l'enseignant indigène قائلا: "الحقيقة هي أنه ينبغي أن نستعمل التاريخ من أجل إعطاء دروس في الوطنية، ومواعظ لائكية مثيرة تمجيدًا لفرنسا" (25) .

ولما كانت مادة الجغرافية تلعب دوراً لا يقل أهمية عن دور التاريخ في تكوين الشخصية الوطنية للطفل عند الدراسة، و إنطلاقا من أن التاريخ يحافظ على شخصية أمة أو شعب من الضياع والنسيان، فالجغرافية هي المكان والإطار الذي يحدّد وجود هذا الشعب أو هذه الأمة

ونظرا لأهمية الجغرافية وخطورتها اعتمدت السلطات الفرنسية في برامجها التعليمية على إهمال جغرافية الجزائر و لم تخصص لها إلا ساعات قليلة من مجموع برامجها التي استأثرت بها اللغة الفرنسية بشكل صارخ. وحتى هذه الساعات القليلة كانت تهدف إلى محاولة غرس فكرة خطيرة في أذهان الأطفال الجزائريين مفادها أن الجزائر تعتبر جزء من فرنسا وأنها تمثل ثلاث مقاطعات فرنسية فيما وراء المتوسط، وأن المتوسط يقطع فرنسا والجزائر مثلما يقطع نهر السين باريس، وأن فرنسا تمتد من مدينة دانكارك في أقصى شمال فرنسا إلى مدينة تمنراست في أقصى جنوب الجزائر، إلى غيرها من الأكاذيب التي تفطن لها الشعب الجزائري. وكان القانون الفرنسي قد اعتبر الجزائر رسميا قطعة من فرنسا الأم (مرسوم 22 جويلية 1834م) ، ثم أصبحت كذلك وفق سياسة الإدماج التي طالبت بها السلطات الفرنسية وتحمّس لها الجمهوريون خاصة بتطبيقها ميدانيا دون السكان الذين اعتبروا دائما وحتى سنة 1962 رعايا فرنسيين وليس مواطنين فرنسيين حسب مفهوم ومنطق الإدماج نفسه (26)

وكان التركيز فيها على تدريس جغرافية فرنسا (الوطن الأمّ) بذكر طبيعتها وخيراتها وثرواتها دون إشارة لجغرافية الجزائر المتنوعة محاولة بذلك إفراز القوة المادية التّي تلعب هي بدورها دورا تربويا وتهذيبيا (27)

فالقوة الكبرى في العالم ليست الصين أو الولايات المتحدة، بل فرنسا، وأنّ أوّل مدينة في العالم ليست لندن أو الصين، بل باريس... .إنّ هذا كلّه يستهدف خلق إنسان جزائري جديد يعبر عن ولائه وحبّه لفرنسا ويمجد إنتصاراتها وقوتها وينكر ذاتيته ويحتقرها (28) .

3) خلق تمايز بين المعلّمين الفرنسيين والمعلمين الجزائريين، فمسابقة الدخول كانت خاصة والدروس كانت خاصة و القانون الداخلي كان خاصا ومدة الدراسة خاصة والرتب خاصة وقد استمر الوضع كذلك حتى توحّدت المسابقة حوالي سنة 1924، ولكن الدّروس لم تندمج إلاّ في 1928 م ، عشية الاحتفال بمائة سنة على الاحتلال (29) .

وبناء على ذلك ، فالمعلمون الفرنسيون كانوا مقسّمين هكذا:

1) معلمون مساعدون متربصون موزعون على أربع طبقات. 2) معلمون مساعدون مرسّمون موزعون على خمس طبقات. 3) مديرون يجري اختيارهم من بين المعلمين المرسمين. أما المعلمون الجزائريون فأصنافهم:

1- متدربون (متمرنون) لا يقلون عن 16 سنة ويكونون حاملين على الأقل لشهادة الدراسة الابتدائية.

2- مساعدون موزعون في طبقات على نفس النمط الذي عليه المتربصون الفرنسيون (4طبقات) وهم يتقاضون نفس الراتب وعليهم أن يكونوا حاملين لنفس الشهادة (الأهلية العالية أو المتوسطة Brevet superieur ou Moyen). ولكن هناك ميزة أساسية هنا أيضًا، وهي أن المساعد الأهلي لن يكون معلماً مرسماً إلا إذا أحرز على حق المواطنة (الجنسية) الفرنسية عن طريق التجنسNaturalisation وما دام الجزائريون قد فضلوا البقاء على حالة الرعية (إلا القليل منهم) فقد اعتبر المعلم الأهلي موظفًا خاصًا ومكلفًا بعمل خاص، وعليه أن يتكون تكوينًا خاصًا، كما يقول مارسيه Marçais . وهذه الخصوصيات جميعًا هي من اختراعات السلطة الفرنسية، وهي لا تحتاج إلى كل هذه التبريرات لتحرم الجزائري من حقه في العمل والتعلم والرّقي المنشود (30)

ومن الناحية الإحصائية ها هو توزيع المعلمين سنة 1905 م :

1-معلّمون فرنسيون: 369 (من بينهم 83 معلمة).

2-معلّمون جزائريون: 183 (من بينهم المرنون).

وبناء على إحصاء سنة 1907 م فإن عدد المعلمين هو:

1-فرنسيون: 393 (من بينهم100معلمة).

2-جزائريون: 198(بين مساعد وممرّن).

ومن جهته أورد بولار جدولا إحصائيا ذكر فيه عدد الممرّنين والمساعدين الجزائريين فكان كالتالي (31) :

السنة	عدد المساعدين	عدد المرنين
1896	**40**	**60**
1897	**50**	**64**
1898	**75**	**65**
1901	**72**	**50**
1904	**80**	**60**
1905	**98**	**52**
1907	**135**	**53**
1909	**170**	**51**

كما يذكر آجرون أنه في أكتوبر 1908 تم تقليص الدراسة في مدرسة بوزريعة من أربع سنوات إلى ثلاثة في حين تم تعيين 18 معلم جزائري سنة 1907، ثم13 معلم سنة 1908 و13 معلم سنة 1908. (32)

وحتى سنة 1910 كان لكلّ طرف قسم المعلمين والشعبة الخاصة مديره الخاص، ويعيش كل منهما في عزلة من الآخر، وكان مدير مدرسة المعلمين ببوزريعة (الذي أضحى مديرا للفرعين معا) قد أوضح هذا التباعد بين الطرفين في تقرير رفعه إلى عميد أكاديمية الجزائر سنة 1910 م بقوله :" قد يتخرج أحد أعضاء الشعبة الخاصة دون أن يكون قد وجّه كلمة ولو مرة واحدة لتلميذ أهلي" (33) .

وكان التلاميذ الجزائريون في قسم المعلمين(Cour Normal) خاضعين لنظام صارم، فقد كتب أحد خريجي دفعة 1922-1925 يقول:" إن أسوأ ذكرى عندي عن قسم المعلمين تتمثل في قاعة الطعام والتسيير القائم بين التلاميذ الفرنسيين والجزائريين. كنا على جانب ونأكل في صحون من معدن. في حين كان زملاؤنا الفرنسيون يأكلون في صحون من خزف. كنا نجلس على مقاعد من خشب لكل أربعة أفراد. على أنّ الفرنسيين كانوا يجلس كل واحد منهم على كرسيه . " (35) .

ولعل الجدول التالي أبرز دليل على صحة ما نقول وبخاصة من جانب الرواتب (36) :

المدرّسون الأوروبيون	المدرّسون الجزائريون
المستوى5 1500، ف	--
المستوى 4 1700 ف	المستوى 4،1200 ف
المستوى3 1900 ف	المستوى 3،1300 ف
المستوى2 2200 ف	المستوى 2،1400 ف
المستوى1 2500 ف	المستوى 1،1500 ف

كما نورد في هذا الصدد أن متوسط مرتبات المعلمين الأوروبيين حوالي 2000 ف في حين كانت 900 عند المعلمين الجزائريين الذين كانوا يحملون نفس المؤهلات العلمية (37) .

ولم يشمل التمييز بين المدرسين الأوربيين والجزائريين مسألة المرتبات فقط ، فقد كان التمايز في جميع الميادين من مسكن وملبس ومأكل وكل ما يخصّ الترسيم وهذا الاختلاف شمل أيضا فرش مكتب كل من الطرفين الذي كانت تقدمه البلديات ويقدر كالآتي (وفق تقدير 1896):

1) المدرس (مدير) 421 ف.

2) المدرس (نائب فرنسي) 206 ف.

3) المعلم الجزائري (نائب أو ممرن) 167 ف. (38)

يضاف إلى ذلك كله الخلاف في حصيلة ميزانية 1892 والسنوات الموالية لها و الخاصة بمرتبات ومكافآت الاطار المدرس للمدارس الابتدائية في الجزائر عند كلا الطرفين (39) :

السنة	الأوروبيون	الجزائريون
1892	**400،623،2**	**900،448**
1893	**400،698،2**	**900،598**
1894	**400،698،2**	**900،598**
1895	**400،698،2**	**900،598**
1896	**400،698،2**	**900،618**
1897	**400،883،2**	**900،686**

كما ذكر مدير التربية Jean maire في تقريره أنه أمام اشتداد معارضة المستوطنين لتعليم الأهالي الجزائريين تم إلغاء القسم الملحق لمدرسة المعلمين بقسنطينة وأبقي على قسم بوزريعة الخاص بالأهالي حيث خفّض العدد إلى 10 تلاميذ لكلّ دفعة جديدة لانعدام المناصب الكافية لاستقبال هؤلاء المعلمين (40) .

4)- تكوين وسطاء ثقافيين لنشر الثقافة الفرنسية والغزو الغربي. فقد ذكر أحد المثقفين الجزائريين ومن دعاة الإدماج السيد فاسي ، مؤسس جريدة صوت المتواضعين (la voix des humbles) يصف مهمة المثقفين بأنهم: يمثلون أحسن الوسطاء بين فرنسا والشعب المسلم (41) .

فقد أوكلت للنخبة المتوسطة التعليم مهمة الدعاية للنفوذ الفرنسي وتدعيمه بالجزائر والنخبة المتوسطة التعليم هذه، تتكون أساسا من الجزائريين الملتحقين بقسم المعلمين بمدرسة

بوزريعة. وأكثر من ذلك أراد الجمهوريون أن يكون المدرّس من هؤلاء قدوة ونموذجا يقتدى به من خلال مهمته التعليمية والتربوية أولا وكذلك من خلال أسلوب حياته لإظهار الحضارة الفرنسية وتعظيمها أمام أعين التلاميذ. لقد كان القصد من ذلك كله تكوين مبشرين علمانيين إضافة إلى المبشرين الدينيين الذين غزوا الجزائر خاصة مع قدوم لافيجري (42) .

ولا عجب إذا أن يؤسس الاستعمار الفرنسي مدرسة لهؤلاء المعلمين المدرسين و تتكفل بتربيتهم وتنشئتهم وتعليمهم وتخريجهم لمهام التنصير والتهذيب والتربية الاستعمارية تحت إشراف استعماريين جاءوا من المتربول خصيصا لهذا الغرض (43) .

ولقد طبق الفرنسيون سياسة الدمج وسلخ الجزائري عن هويته في عدة أمثلة، ومنها حمل التلاميذ إلى فرنسا والتأثير عليهم ليرجعوا بأفكار جديدة إلى ذويهم وينقلبوا ناقمين على مجتمعهم. وهذه التجربة قديمة ترجع إلى عهد كلوزيل Clauzel وبوجو Beaugeaud ، ولكننا وجدناها أيضًا مطبقة في عهد كامبون Cambon ومع طلبة المدرسة النورمالية بالذات. ففي سنة 1896 كتبت جريدة المبشر الرسمية أن تسعة عشر معلمًا(تلميذا) نبغوا في المدرسة ببوزريعة، فكوفئوا بالذهاب إلى باريس ومقابلة وزير التعليم، وكان يرافقهم مفتش المدارس العربية في الجزائر. ولاحظت الجريدة أنّ معظم المعلمين الشبان كانوا من منطقة زواوة (44)

وكانوا يحملون الشهادة الابتدائية، ويتكلمون الفرنسية بطلاقة، وقد عبروا عن إعجابهم بما شاهدوه في فرنسا من مظاهر التمدن، وقالت: " ولا شك أنهم لّما يعودون إلى مقرهم يبقى ما رأوه أثناء سفرهم في الوطن (فرنسا) الذي كأنه وطنهم، منقوشاً في صفحات قلوبهم" . وبذلك يكونون في رأيها قادرين على "بث تمدننا في وطنهم الأصلي". وأثناء هذا الحفل الاستقبالي وبعد خطاب الوزير، عبر أحد التلاميذ بكلمات مناسبة، وكان هذا التلميذ ممّن سبق لهم العمل في الجيش الفرنسي بمدغشقر بصفته مترجما، كما عمل وشارك في المعارك.ومن الواضح أن المدرسة النورمالية كانت في ذهن الفرنسيين مشتلة للاندماج الحضاري والدعاية، رغم أنها كانت قائمة على التفريق العنصري في برامجها واختيار تلاميذها (45)

وفي سنة 1937 كان بدار المعلمين ببوزريعة 120 تلميذا معلما جزائري من بين308 وكان معظم التلاميذ فيها من منطقة زواوة ولذلك حكم ماسنيون Massinion بأن التجربة الإندماجية كانت ناجحة (46) .

الواقع أن ظاهرة "جماعة النخبة " في الجزائر ليست قاصرة عليها وحدها ولكنها تكاد تكون ظاهرة عامة في كل بلد نكب بالاحتلال العسكري، مصحوبا بالغزو الثقافي -خصوصا

في المستعمرات الفرنسية - وهو ما يعرف في السياسة الدولية باسم «الاستعمار الثقافي» الذي يعمد إلى إفساد العقل، والرّوح، وتشويه الشخصية الإنسانية للأفراد، والجماعات. ولذلك يصعب كثيرًا التخلص منه إلا بعد وقت طويل وجهود شاقة (47) .

ونلمس ذلك من خلال عمل الادارة الاستعمارية الفرنسية على إنشاء فرع من المعلمين بدار المعلمين ببوزريعة موجّهة للتدريس في مستعمرات فرنسا في إفريقيا الغربية L'Afrique Occidentale Française.

(أنظر ذلك في الملحق المدرج في الدراسة).

و فوق ذلك فقد كانت سياسة التعليم في دار المعلمين، على غرار باقي المدارس الفرنسية، تعمل على نشر عوامل الفرقة والشقاق بين فئات الشعب الجزائري وإثارة النعرات التي قضى عليها الإسلام منذ أربعة عشر قرنا، وقد تجلى هذا العمل في السياسة البربرية التي أرادت فرنسا من ورائها تقسيم الشعب الجزائري إلى مجموعتين متنافرتين من السكان: إحداهما مجموعة عربية اعتبرتها مجموعة مستعمرة والأخرى مجموعة بربرية اعتبرتها مجموعة مستعمرة (بفتح الميم) من طرف الأولى قصد ضرب إحداهما بالأخرى تما شيا مع سياسة «فرق تسد» (48) .

إنّه وجب التذكير بأن 89% من تلاميذ دار المعلمين من أصل ريفي يشكلون منطقة القبائل و471 ريفي من مجموع 526 ينتمون إلى مقاطعتين : تيزي وزو405 تلميذ وبجاية66 تلميذ.

وفي دراسة تحليلية جغرافية أخذت بعين الاعتبار ليس المقاطعة وإنّما الدّوار أو القرية التي ينتمي إليها التلاميذ أفرزت تمركزا جغرافيا أكبر، فقد تبين أن تلاميذ دار المعلمين الجزائريين أصلهم من منطقة بني يني وخاصة تاوريرت ميمون وتيزي راشد وجماعة صهاريج (بني فراوسن) وقبيلة بني وغليس من القبائل الصغرى(49).

في آخر المطاف تمكّن تلاميذ دار المعلمين من الجزائريين من تحصيل علم ينتفع به من خلال إدراكهم لمعارف جديدة وامتلاكهم خاصية اللغة الفرنسية ممّا جعل مدير الشؤون الأهلية لوسيانيLuciani يرمي بالملائمة على المعلمين المسلمين الذين ليسوا متحررين فحسب ولكنهم يعتبرون أنفسهم محرّرين أيضا وينظرون إلى أنفسهم، في معظم الأحيان نظرة استعلاء ويظهرون مشاعر يخشى خطرها إذا ما انتشرت في الأوساط الأهلية وقد قاسمه الرأي في ذلك إميل صاباتي Emile Sabatien ، المعروف بدعمه للسياسة القبائلية (50) .

أصبح المعلمون الأعالي يتحدثون بطلاقة أكبر عن المطالب وعن الاستقلال بدل الحديث عن الطاعة والاحترام فوضعوا جميعا في خانة الشبان الأتراك وصار المستوطنون يمقتونهم. فقد طالب هؤلاء المعلمون سنة1910 م بتشكيل **ودادية وطنية للمعلمين الأهالي**، فرفض لهم ذلك من طرف الإدارة غير أن الوداديات الجهوية كان مسموحا بتأسيسها حيث بادرت بحملة للمطالبة بتحسين الأجور وطالبت، بصفة أخص، بتحقيق المساواة مع المعلمين الفرنسيين، غير أن الرسائل المشتركة، الصادرة من ودادية وهران، برئاسة بن معبد والتي كانت تنشر في صحيفة L'islam، كانت تزداد حدة كل يوم أكثر. "هل ترانا نظل أتباعا إلى الأبد؟ "ذلك هو التساؤل الذي طرحه" بعض الأعوان الأهالي" من الحائزين على شهادة الكفاءة الابتدائية وشهادة الكفاءة المهنية كزملائهم المعلمين الفرنسيين بل منهم من كان حائزًا على شهادة الكفاءة العليا (51) .

لقد ساهمت دار المعلمين، في تكوين نخبة لمع صيتها وأعلت كلمتها وخُلدت بكتاباتها فبرز منهم، فاسي، ريابي، سطور، قوادري، كتام، برانكي، قندوز، حداد، طهرات، جبالي، محاد، مكاسي، لوعلالن، بوليفة، مقيدش، مولود فرعون وآخرون ، منهم من ترك التعليم لأسباب عدّة وأكمل مشواره في ميدان آخر، فبرز بهلول.(أستاذ كرسي في كلية العلوم) بن شنب (أستاذ في الأدب)، جباير (دكتور في الطب)، نهليل محامي، الإخوة معمري (أحدهما نائب رئيس البروتوكول بالمغرب الأقصى والآخر فنان رسام (52) .

إننا لا نجاور الحقيقة إذا أدلينا بالقول أنّ دار المعلمين ببوزريعة قد أنشأها الإدارة الاستعمارية الفرنسية لتحقيق أهدافها وفق نظام تعليمي مضبوط ومدروس ، وفّرت له الهياكل والموارد البشرية اللازمة وكذا الميزانيات الضخمة سعيا وراء تدمير النظام التعليمي التقليدي القائم في الجزائر المستعمرة وإيجاد نوع من التعليم يخدم المستوطنين ، ويتماشى مع روح الاستعمار وكنهه فقد صاحب ذلك تمييز مقيت وإختيار لفئة إجتماعية معينة تقبل برسالة فرنسا الحضارية بالجزائر وتعمل على نشرها عن طريق فئة من المعلمين الذين شكلوا حجر الزاوية في نمط من التعليم الفرنسي الموجه للجزائريين .

الملاحق : وثائق أرشيفية عن دار المعلمين ببوزريعة

(AOM , CARTON 17S1)

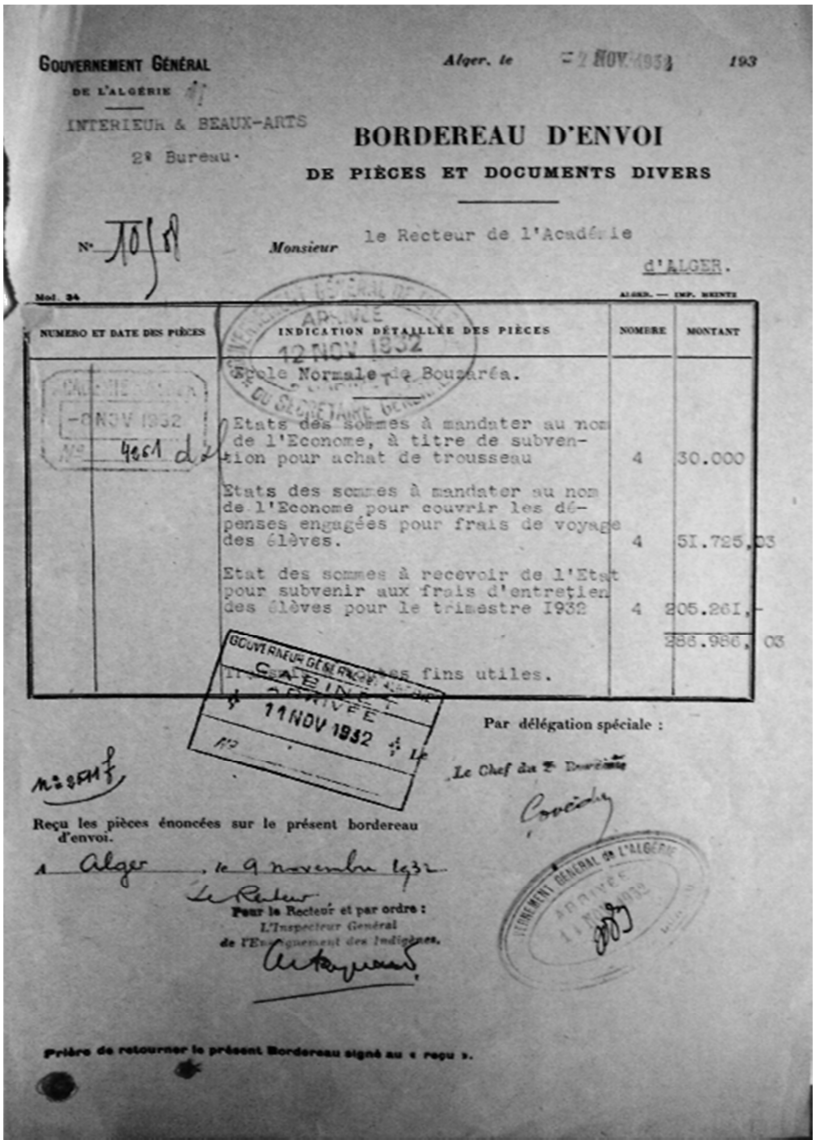

GOUVERNEMENT GÉNÉRAL
DE L'ALGÉRIE
INTERIEUR & BEAUX-ARTS
2e Bureau.

Alger. le 12 NOV 1932 193

BORDEREAU D'ENVOI
DE PIÈCES ET DOCUMENTS DIVERS

N° 10518

Monsieur le Recteur de l'Académie d'ALGER.

Mod. 24 — ALGER. — IMP. MINTE

NUMERO ET DATE DES PIÈCES	INDICATION DÉTAILLÉE DES PIÈCES	NOMBRE	MONTANT
	École Normale de Bouzaréa.		
	Etats des sommes à mandater au nom de l'Econome, à titre de subvention pour achat de trousseau	4	30.000
	Etats des sommes à mandater au nom de l'Econome pour couvrir les dépenses engagées pour frais de voyage des élèves.	4	51.725,03
	Etat des sommes à recevoir de l'Etat pour subvenir aux frais d'entretien des élèves pour le trimestre 1932	4	205.261,-
			286.986,03

ARRIVÉE 12 NOV 1932 — GOUVERNEMENT GÉNÉRAL DE L'ALGÉRIE — CABINET — ARRIVÉE 11 NOV 1932

...es fins utiles.

Par délégation spéciale :
Le Chef du 2e Bureau

Reçu les pièces énoncées sur le présent bordereau d'envoi.
A Alger, le 9 novembre 1932
Le Recteur
Pour le Recteur et par ordre :
L'Inspecteur Général
de l'Enseignement des Indigènes.

GOUVERNEMENT GÉNÉRAL DE L'ALGÉRIE — ARRIVÉE 1932

Prière de retourner le présent Bordereau signé au « reçu ».

ACADÉMIE D'ALGER

RÉPUBLIQUE FRANÇAISE

N° 1432 /d

CABINET GOUV.G. -7 JUIL 38-M

OBJET :
A.s.du jeune Ascione

Alger. le 4 Juillet 193 8

Le Recteur de l'Académie d'Alger

à Monsieur le Gouverneur Général de l'Algérie

(Direction de l'Intérieur - 2me Bureau)

GOUVERNEUR GÉNÉRAL DE L'ALGÉRIE
CABINET
ARRIVÉE
-7 JUIL 1938

J'ai l'honneur de vous adresser ci-dessous les résultats obtenus par le jeune Ascione Roger au concours d'admission à l'Ecole Normale de Bouzaréa :

A

1°) Epreuves écrites :

ARRIVÉE 8 JUIL 1938 N° 4893 GOUVERNEUR GÉNÉRAL DE L'ALGÉRIE 2e BUREAU

Composition française	25	I/2 / 40
Histoire et géographie	I8	/ 40
Mathématiques	29	/ 40
Sciences	I4	/ 40
Dictée	20	/ 20
Questions	4	I/2 / 20
Ecriture	I4	/ 20
Total	I25	/ 240

2°) Epreuves orales :

Lecture expliquée	I8	/ 40
Mathématiques	32	/ 40
Morale & instruction civique	24	/ 40
Histoire et géographie	26	/ 40
Sciences	22	/ 40
Dessin	3	/ 20
Chant	I7	/ 20
Gymnastique	I3	/ 20
Total	I55	/ 260

Total général : 280 / 500

B

Le candidat a été ajourné./.

Recteur

ACADÉMIE D'ALGER

ÉTAT FRANÇAIS

Tut

N° 2210

OBJET :

Alger, le 15 septembre 19 42

Le Recteur de l'Académie d'Alger

à Monsieur le Gouverneur Général de l'Algérie

(Direction Intérieur et jeunesse 2ème Bureau)

GOUVERNEMENT GÉNÉRAL DE L'ALGÉRIE ARRIVÉE 18 SEP 1942 SECRÉTARIAT

GOUVERNEMENT GÉNÉRAL DE L'ALGÉRIE 6 SEP 1942 ARRIVÉE N° CABINET

Objet: Création à la Section d'adaptation de la Bouzaréa d'une section destinée à l'enseignement en A.O.F.

Réf. n°3769 I J/2 et dépêche du 22 août 1942 du Chef du Gouvernement - ci-jointe, en retour.

J'ai l'honneur de vous faire connaître que la question posée par M. le Chef du Gouvernement ne soulève aucune objection de ma part. La réalisation du projet qui nous est soumis, tout en servant l'intérêt général consacrera la place prépondérante que l'Algérie occupe parmi nos possessions d'Outre-Mer . Je donne donc un avis très favorable à la demande qui nous est présentée.

GOUVERNEMENT GÉNÉRAL DE L'ALGÉRIE 6 SEP 1942 ARRIVÉE N° CABINET

L'installation matérielle des 10 sectionnaires que nous aurons à prendre en supplément se fera dans les locaux de Bouzaréa, sans que nous ayons à engager la moindre dépense.

Tous les frais occasionnés par les voyages, la pension et les études des sectionnaires de l'A.O.F. seront supportés par le budget de l'A.O.F. On peut les évaluer comme suit:

Pour chaque sectionnaire:

1°/ Voyages - France Algérie et Retour en 2e cl.		2.400 f
Voyage de la section à travers une région algérienne, en fin d'année		1.000
2°/ Traitement annuel moyen		32.125
		35.525

Pour 10 sectionnaires: 35.525 x 10 = 355.525 frs.

Pour le Recteur et par ordre
L'Inspecteur Général

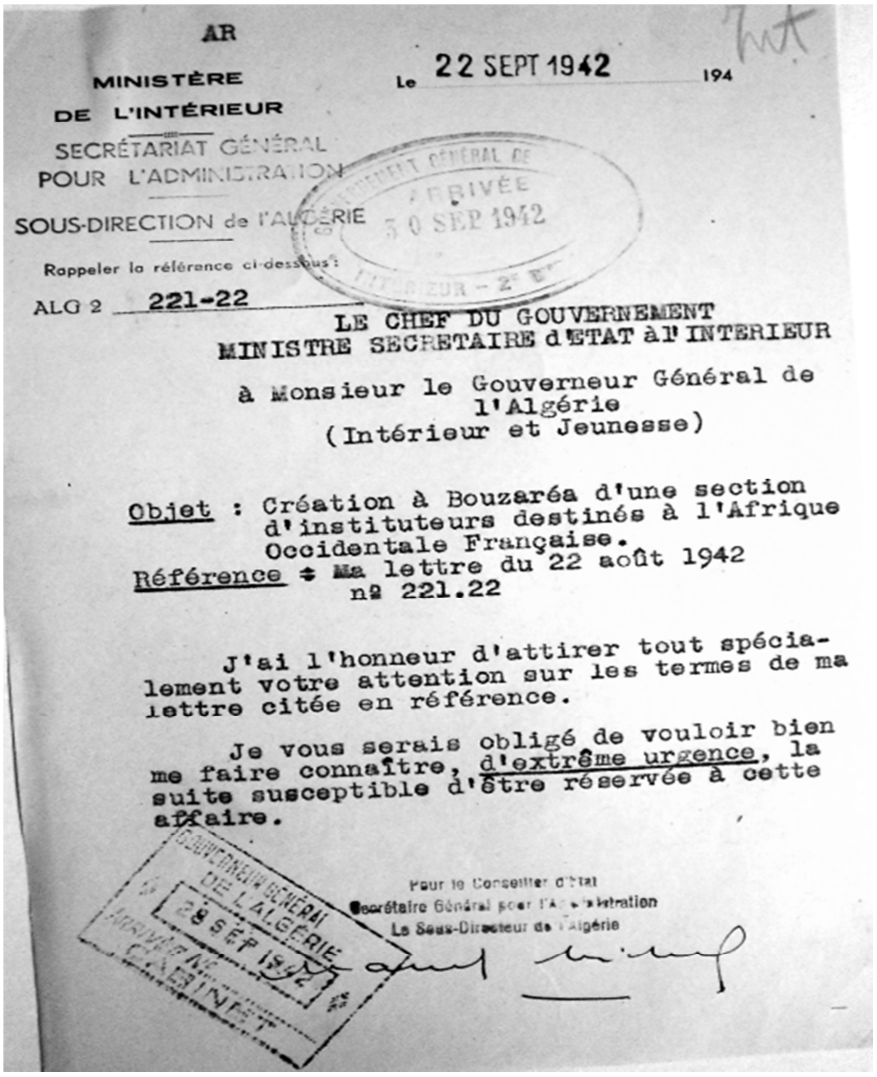

AR

MINISTÈRE
DE L'INTÉRIEUR
SECRÉTARIAT GÉNÉRAL
POUR L'ADMINISTRATION
SOUS-DIRECTION de l'ALGÉRIE

Le 22 SEPT 1942 194

GOUVERNEMENT GÉNÉRAL DE L'ALGÉRIE
ARRIVÉE
30 SEP 1942
INTÉRIEUR - 2e B.

Rappeler la référence ci-dessous :
ALG 2 221-22

LE CHEF DU GOUVERNEMENT
MINISTRE SECRETAIRE d'ETAT à l'INTERIEUR

à Monsieur le Gouverneur Général de
l'Algérie
(Intérieur et Jeunesse)

Objet : Création à Bouzaréa d'une section d'instituteurs destinés à l'Afrique Occidentale Française.

Référence : Ma lettre du 22 août 1942 nº 221.22

J'ai l'honneur d'attirer tout spécialement votre attention sur les termes de ma lettre citée en référence.

Je vous serais obligé de vouloir bien me faire connaître, d'extrême urgence, la suite susceptible d'être réservée à cette affaire.

GOUVERNEMENT GÉNÉRAL DE L'ALGÉRIE
28 SEP 1942
CABINET

Pour le Conseiller d'Etat
Secrétaire Général pour l'Administration
Le Sous-Directeur de l'Algérie

الهوامش :

(1) أحمد توفيق المدني ، **كتاب الجزائر** ، المؤسسة الوطنية للكتاب ،الجزائر ،1984 ، ص 293

(2) يقصد بذلك التعليم العربي الإسلامي ، أنظر تفاصيل الموضوع عند :

-أبو القاسم سعد الله ،**تاريخ الجزائر الثقافي** ،**ج 3** ،دار الغرب الإسلامي ،لبنان ، 1998 ،ط 1 ،ص 21

(3) عمار هلال ، **أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر المعاصرة (1830– 1962)** ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1995 ، ص ص 104–106

(4) Fanny COLONNA, **Les Institeurs Algeriens 1883- 1939**, OPU, Alger, 1975, p. 40

(5)عمار هلال ،نفسه ، ص 107

(6)**Bulletin officiel** n° 865 p.179

Maurice POULARD**, L'enseignement Pour Les Indigenes En Algerie**, Imp Administrative Gojosso , Alger, 1910 , p. 93

– نشير أن السلطات الفرنسية أسست مدرسة لتخريج المعلمات .بمليانة سنة 1874 و أخرى للممرنين الأعالي بقسنطينة سنة 1878 ثم تلتها اخرى بوهران سنة 1933 أنظر : . CIT . P 105 Poulard, OP

(7) سعد االله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج3. ص ص 413–414

(8) للمزيد من التوسع في الأمر أنظر : سعد الله ، نفسه ص ص413 – 415 .

(9)Aime DUPUY, ,**Histoire Illustrée Des Ecoles Normales d'Instituteurs d'Alger. Bouzareah,** Fontana, Alger ,1937,p.. 11

(10) عبد القادر حلوش، **سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر** ، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع ،الجزائر ، الطبعة الأولى ، 1999 ص182.

ـــ للعلم أن مقر المدرسة كان بمصطفى الأعلى بمكان يدعى Parc de Gelland (بالقرب من مستشفى مصطفى باشا حاليًا) وقد افتتحت السنة الدراسية في 16 جانفي1866 بعد أن عين مديرها السيد لودوك LEDUC (مدير سابق لمدرسة المعلمين ب (Basses-Pyrennées). وفي سنة1888، وبعد حدوث إنزلاق للتربة وانتشار لوباء التفوئيد، حولت المدرسة في كنف هذا الاضطراب إلى المباني الغير مكتملة والشاغرة والتي أعدت سلفا كمركز للمختلين عقليا ببوزريعة Asiles d'aliénés de Bouzaréah.وبسرعة أطلق عليها الطلبة المتربصون إسم مدينة المجانين Maboul-ville ورغم الصعوبات المستعصية منذ الإقامة الأولية (بناءات غير صحيحة ، تعرض المدرسة لرياح قوية شرقية وغربية، بعدها عن الأماكن الحضرية..) إلا أنّ المدرسة سرعان ما تطورت بإنشاء هياكل جديدة (حجرات دراسية واسعة، ورشات، مخابر، مكتبة، توسيع للمطابع ، إنشاء لبساتين).

1888: ضمت 23 هكتار (البنايات والأحواش)

1891: 4 هكتارات من الكروم. 3هكتارات من التبن. 3 هكتارات بساتين لإنتاج الخضر والفواكه. 2 هكتار، خصصت كحقول تجارب زراعية.

1914: زوّد بالكهرباء

أنظر تفاصيل ذلك عند : DUPUY,Op cit , p 13

(11) AMICALE DES ANCIENS INSTITUTEURS INSTITUTRICES DE L'ALGERIE ET LE CERCLE ALGERIANISTE **, 1830- 1962 : Des Enseignants D'Algerie Se Souviennent De Ce Que Fut L'Enseignement Primaire** ,Ed Privat ,Paris , 2001 , pp 183-184 .

(12) أ نظر : سعد الله،المرجع السابق ،ص416

P OULARD ,opcit, p. 103

(13) حلوش ، المرجع السابق ، ص ص 187–188

COLONNA, op cit ; pp100-103

(14) هلال، المرجع السابق ، ص117

(15) . POULARD , op cit ; pp -234-235

(16)حلوش ، ص 189 نقلا عن COLONNA , op.cit ; p 169

(17)تركي رابح، **التعليم القومي والشخصية الجزائرية** ،المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، الطبعة الثانية ، 1981 ص107.

(18) سعد الله، المرجع السابق ، ص415

(19) نفسه .

(20) رابح تركي، ص126

(21) سعد الله، ص ص 428–429

ـــ يضيف آجرون Ageron في هذا الصدد:

سخر الناس مدة طويلة من تعليم اللغة العربية "الدارجة" وقالJeanmaire في ذلك: "لم يكن قصدنا بالطبع أن نعلمهم اللغة العربية بالدارجة أي لغة أمهاتهم ولكن سوف نقدم لهم خدمة كبيرة إذا علمناهم القراءة والكتابة باللغة العربية". الواقع أن العربية الدارجة لم يكن من الممكن كتابتها لاستحالة الاتفاق على رسم حروفها ونحوها وإن ما ندعوه العربية المستعملة المكتوبة هو في الحقيقة لغة عربية أدبية تتفاوت صحتها، أما

بخصوص العربية المستعملة فهي وسط بين اللغة المنطوقة والمكتوبة حيث يراد اعتباره مساسا باللغة العربية الكلاسيكية فهي في الواقع اعتبارات عملية.

غير أن مرسوم سنة1833 أدرج اللغة العربية كمادة إجبارية بالنسبة للأهالي المرشحين لشهادة التعليم الابتدائي (المادة31) وقرر أن يكون التعليم في بلديات الأهالي بالفرنسية وبالعربية (المادة42) ويجب على المدير أن يكون حاصلاً على منحة اللغة العربية (المادة45). إلا أن البرامج قد ظلت صامتة بخصوص هذا التعليم. وفي سنة 1897 رد مدير مدرسة تكوين المعلمين بالجزائر على انتقادات الأوروبيين قائلا: "لقد تم تدريس اللغة العربية لأنها لغة المبادلات والدين" و لم ينقطع الأهالي من المطالبة بتعليمها".أنظر :

شارل روبير آجرون ، **المسلمون الجزائريون وفرنسا (1871– 1914)** ، **ج2** ، دار الرائد للكتاب ،الجزائر، 2007 ، ص ص 548–549

(22) يوسف حميطوش ، " المدرسة الفرنسية بالجزائر ودورها في تكوين النخب " ،**المصادر**، عدد 16 ، السداسي الثاني 2007 ، ص ص 170–171

(23) تركي رابح ، ص 107–108

(24) للمزيد من التوسع في المسألة أنظر:

ـــ عبد القادر حلوش، "أهمية التاريخ والجغرافية في البرامج التعليمية الفرنسية في الجزائر" **الرؤية**، العدد الثاني ، ماي – جوان 1996 ص ص 17–23

ـــ حميطوش، المرجع السابق ، ص ص 171–172

(25) أنظر آجرون، المرجع السابق ، ص580

(26) حلوش ، المقال السابق ، ص19 .

(27) COLONNA , op cit ; P60

(28) حميطوش، نفسه ، ص172.

(29) أنظر في هذا الشأن : COLONNA ; P . 127

(30) سعد الله.ص420.

(31) سعد الله ، ص421

أنظر كذلك : POULARD, OP CIT , P. 237

(32) أنظر آجرون،ص552.

(33) COLONNA ; p132

(34)Ibid

(35) راجع كذلك ما أورده لويس رين Louis Rinn عضو المجلس الإداري لدار المعلمين حول مسألة إيواء الجزائريين في غرف جماعية والأوربيين في غرف مستقلة.

Extrait du registre des délibérations du conseil d'administration et cité dans :

Aimé DUPUY ,**Bouzareah,histoire illustrée des écoles normales d'instituteurs d'Alger.Bouzareah**,Alger,Foutana,1937,p.35 .

(36) حلوش ، ص 185

(37)) راجع لذلك: - POULARD p342 آجرون ص ص 540-541

(38) **A.O.M,CARTON 14H4**

وكذا الملحق المدرج **A.O.M , CARTON 17S1**

(39) حلوش ، ص 186

(40 تولى جينمير رئاسة أكاديمية الجزائر من 1899 حتى 1908 أنظر :

JEANMAIRE **, Rapportsur L'enseignement Des Indigenes A La Fin De L' Annee Scolaire (1898-1898)** , Topgraphie Adolphe Jordan ,Alger , 1900 p.12

(41) COLONNA ; p169

ـــ نشير هنا أن جريدة صوت المتواضعين أسسها فاسي (مدرس جزائري) ، أمين فرع القطاع الوهراني لرابطة حقوق الانسان رفقة طاهر من قسنطينة ومحند لشاني من الجزائر شعارها : بعيدا عن العقائد ، بعيدا عن الأحزاب Loin Des Dogmes , Loin Des Partis وهي متواجدة بالمكتبة الوطنية بالحامة على شكل ميكروفيلم ،تمكننا من تصفحها .

(42) حلوش ، ص ص 255-260،

وعن لافيجري أنظر دراستنا في هذا الشأن :

ـــ سعيدي مزيان ، **النشاط التنصيري للكاردينال لافيجري في الجزائر واساليب المجابهة الجزائرية له (1867م– 1892م)** دار سنجاق الدين ، الجزائر ، 2013 م .

(43) حلوش ، ،ص255.

(44) نذكر في هذا الصدد أن المدرسة الوحيدة في تاوريرْت ميمون برعاية المعلم فردي Verdy

(l'instituteur du bled) والذي قضى 23 سنة من حياته فيها أرسل بين 1883و1906م وتحديدا 56 من متعلميه إلى دار المعلمين ببوزريعة....راجع:

Pierre GOINARD, **Algerie Oeuvre française**, Ed, Rober Lafont, Paris, 1984, p247 .

(45) سعد الله،ص ص 421-422.

(46) نفسه ، ص419.

(47) تركي رابح، ص121

(48) نفسه ، ص128

(49). COLONNA ,p106

ـــ إن أوّل مشروع للجمهوريين في إطار سياستهم التعليمية كان موجها لمنطقة القبائل دون غيرها:- للمزيد من التوسع أنظر:

AGERON, (Charles Robert) , "la France a-t-elle eu une politique Kabyle?" **Revue Historique** , avril-juin 1960, PP .341-349.

- بناء على تقرير تقدم به ماسكاريMasqueray (أحد المتحمسين للساسة التعليمية في منطقة القبائل) بعد زيارته للمنطقة سنة1881 على الوزارة المختصة، رأى جول فيري (وزير التربية والتعليم آنذاك) أن منطقة القبائل هي أكثر مناطق الجزائر تقبلا لفكرة الإدماج، نظرا لعادات وتقاليد سكانها المختلفة عن تقاليد العرب".

وفقا لهذه الرؤية الاستعمارية تم وضع برنامج يهدف إلى إنشاء 8 مدارس ابتدائية عمومية تكون تحت إشراف الحكومة.(لم تؤسس إلاّ 4 مدارس اشتهرت بالمدارس الوزارية Ecoles Ministerielles راجع لذلك :

COLONNA ,p108

-راجع كذلك حلوش،ص ص 84-85

(50). AGERON , op cit , p 551

(51) يتقدم أفضل المعلمين الأهالي من الفرع الأهلي في نهاية السنة الثالثة (بعد الأهلية الابتدائية) إلى (الفرع الأوروبي) للحصص التكوينية المهنية حيث يحضر للأهلية العليا، لكن منذ 1898 لم يكن يرخص للمسلمين غير المتجنسين في المساهمة في مسابقات الدخول إلاّ في بعض الحالات الاستثنائية...من جملة أوائل المسلمين الحائزين على الأهلية العليا تؤخذ أسماء لامعة.بن بسيط، صوالح (كان هذا الأخير أول من تحصل على التبريز في اللغة العربية)

أنظر : AGERON , op cit , p .563

(52)_Association « Les Amis De Max Marchand , De Mouloud Feraoun Et De Leurs Compagnants » **L'Ecole En Algerie : 1830-1962, De La Regence Aux Centres Sociaux Educatifs** , Publisud,Paris 2001 , PP 39-42

- المعلمين كونت بين 1866 – 1937 أكثر من 4000 معلم ، 933 ممعلم اهلي و 1205 من نشير أن دار الشعبة الخاصة Sectionnaires : راجع ذلك عند GOINARD , op cit, P. 247

مكانة العمل العسكري في استراتيجية الثورة الجزائرية
قراءة في بيان أول نوفمبر

أ/ بيتور علال
جامعة الجزائر 2- أبو القاسم سعد الله

مقدمة:

استغرق الصراع الدائر بين "جبهة التحرير الوطني" التي تقود الثورة الجزائرية من جهة ، وبين الدولة الفرنسية من جهة ثانية ،مدة زمنية طويلة ،سقط فيها مئات الآلاف من الضحايا والمفقودين والملايين من المشردين والنازحين ،فضلا عن مختلف الخسائر الأخرى ،التي تركت آثارا اجتماعية ونفسية هائلة ،مازالت بادية للعيان حتى هذه الساعة ،رغم المحاولات الحثيثة من الضفتين لتجاوزها...! أو على الأقل قلب صفحتها.

إن محاولة فهم مختلف أحداث الثورة التحريرية الجزائرية 1962/1954، ينبغي أن يمر أولا من خلال إعادة قراءة "بيان أول نوفمبر " و الوقوف على مدلولات ألفاظه، وفك أسراره ورموزه، لأنه الوثيقة الأولى المعبرة عن حقيقة الأحداث الدائرة في فلك الصراع القائم. ينبغي فهم الأهداف المحددة فيه والغايات التي يرمي إليها والوسائل المعتمدة من جانب الذين تولوا صياغته ونشره ،فهو بطاقة تعريفهم ،فيه يعرفون عن أنفسهم ، ويوضحون أهدافهم ويحددون غاياتهم ،ويدعون إلى مؤازرتهم والانضمام إليهم تماشيا مع قناعاتهم الثورية.

1- الخيارات الاستراتيجية للحركة الوطنية:

إن الحركة الوطنية الجزائرية التي ظهرت مباشرة بعد تغييب الدولة الجزائرية، والمتمثلة في مختلف المقاومات العسكرية والسياسية و الثقافية[1] وظلت متواصلة بلا كَلَل، فلما ضعفت المقاومة العسكرية فسحت المجال للمقاومة السياسية من خلال العرائض[2] ومختلف الوفود. تطور هذا النشاط إلى أن أصبح تمثله أحزابا سياسية معتمدة تنشط في العلن، وتشارك في مختلف المواعيد الانتخابية[3].

كان الخلاف بين مختلف التشكيلات السياسية قائما على سقف المطالب المرفوعة، والتي كانت: الحصول على الحقوق في إطار الدولة الفرنسية، أو الحصول على الاستقلال التام. أمَا الوسيلة فكانت واحدة بين كل التشكيلات والتيارات وهي " العمل السياسي ".

كان هذا الخلاف يتعمق شيئا فشيئا بين السياسيين ،حتى جاءت اللحظة الفارقة ليتوسع هذا الخلاف ويتعمق بعد "مجازر الثامن ماي 1945 " التي على الرغم من أن نتائجها كانت مؤلمة ،إلا أنها جعلت من فكرة الاستقلال مطلبا أساسيا من مطالب الحركة الوطنية ، وهي فكرة ما فتئت تتعمق منذ سنة 1939 خاصة بعد التطور الذي عرفته التيارات السياسية المعتدلة[4] اخذت سياسة " القانون الفرنسي " تفقد أنصارها ،و لم يعد يتمسك بها سوى بعض الأعيان وبعض أعوان الإدارة[5].

بعد هذه المجازر الرهيبة تقوى التيار الاستقلالي وأنشأ جناحه العسكري[6] من أجل التحضير للثورة، ومن هنا ظهر الانقسام جليا في صفوف الحركة الوطنية:

- فصيل تقوم استراتيجيته على الخيار السياسي وأداته الانتخابات.
- وفصيل تقوم استراتيجيته على الخيار الثوري وأداته السلاح.

بيد أن الفصيل الذي يؤمن بالعمل المسلح بدأت تدب إلى صفوفه الخلافات، وبدأت قيادته تنجذب إلى العملية الانتخابية أكثر[7] برغم تزوير الادارة الفاضح في مختلف المواعيد[8] . وتقوى هذا الاتجاه داخل قيادة الحزب خاصة بعد انكشاف المنظمة الخاصة (L'os) ومطاردة عناصرها، الذين أبعدوا من قبل إدارة الحزب خوفا على الحزب من بطش الادارة الاستعمارية، ثم حلت المنظمة نهائيا.

2 – الاتجاه الثوري يقرر الانتقال إلى العمل:

في أفريل 1953 عقد حزب الشعب من خلال واجهته السياسية (الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية) مؤتمره الثاني الذي أفرز صراعا محتدما بين رئيس الحزب (الحاج مصالي) من جهة واللجنة المركزية من جهة ثانية، عجزت معه كل اللقاءات و محاولات الصلح، واتفل الطرفان إلى سحب الثقة وتجميد الأموال والطعن والتجريح. "في هذا الجو المشحون واضطراب القواعد النضالية في كل قسمات الحزب على مستوى القطر، وخوفا من انفلات الأمر، قام عدد من الاطارات بتأسيس" اللجنة الثورية للوحدة والعمل (C.R.U.A) "[9]

لم تستطع هذه المنظمة –حديثة النشأة – أن تضع حدا للخلاف، وتعيد جمع الصفوف ورسها من جديد، بل العكس من ذلك، فقد كان أنصار رئيس الحزب يعتبرونها في صف المركزيين، ومن أجل ذلك تعرض أحد مؤسسيها " محمد بوضياف " إلى اعتداء من قبل أتباع مصالي[10]

يقول محمد بوضياف:« لما بلغت هذه الشوائع[11] أسماع عديد من المناضلين أحدثت قلقا كان ينبغي أن نتداركه في الحين، عقدت مع (بن بوالعيد) و (ديدوش) اجتماعا لدراسة الوضعية الجديدة وقررنا على إثرها استدعاء قدماء أطر المنظمة الخاصة؛ من جهة من اجل توضيح مواقفنا بالنسبة للمركزيين، ومن جهة أخري لطرح مشاكل العمل الذي ينبغي القيام به والهيكلة التي يجب أن نعطيها له[12] ».

كان من الطبيعي أن يلجأ بوضياف إلى من نشطوا تحت قيادته، وبرهنوا على قدراتهم في الميدان[13]. يوضح أحمد محساس فيقول:« لذلك كان أغلب المدعوين لاجتماع المدنية من منطقة قسنطينة التي أشرف على قيادتها أيان المنظمة الخاصة، وقد شارك في ذلك المؤتمر المصغر 22 عضو ناقشوا كل المسائل المتعلقة بالانتقال بسرعة إلى العمل المسلح، وما يتبع ذلك من تحضيرات بشرية ومادية[14]».

«كانت العمليات العسكرية المبرمجة تهدف أول الأمر إلى إحداث المفاجأة في صفوف الشعب والمناضلين، ووضع حد للركود السياسي السائد، ونبذ الصراعات العقيمة بين التشكيلات السياسية، وفتح سبيل جديدة للخلاص[15]».

3 – تفجير الثورة وبيان أول نوفمبر 1954 :

إن الذين تولوا صياغة البيان، هم الذين فجروا الكفاح المسلح، وقادوا انطلاقته الأولى:« كان سي الطيب[16] يصوغ أفكارا مستوحاة من برنامج "الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية " الذي أعد أثناء مؤتمر أفريل 1953، وكان العيشاوي[17] يحاول أن يركبها في جمل مفيدة، وعندما تمت كتابة الوثيقتين[18]، اجتمع بوضياف بمجموعة الستة مرتين وتلاهما على مسامعهم، ووافق عليها الستة[19]».

1.3 –الأفكار التي تضمنها البيان:

جاء البيان متضمنا لمجموعة من الأفكار نوجزها كما يلي:

- تحديد المخاطب بالإعلان (البيان) [20]
- الغرض من نشر البيان.
- وصول الحركة الوطنية إلى مرحلة التنفيذ.
- تقدم الحركة الوطنية في المغرب وتونس.
- خطورة الموقف بشأن الحركة الثورية في الجزائر.

- التصميم على إخراج الحركة الوطنية من المأزق.
- استقلال أصحاب البيان عن طرفي النزاع.
- توجيه الحركة ضد الاستعمار وحده.
- تسمية الحركة الجديدة (جبهة التحرير الوطني).
- فتح الحركة لجميع الجزائريين.
- برنامج الجبهة السياسي: (الأهداف الداخلية، الأهداف الخارجية، وسائل الكفاح)
- مهمة الجبهة في الداخل والخارج.
- مشروع وثيقة للتفاوض مع السلطات الفرنسية.
- نداء لانضمام الجزائريين لجبهة التحرير الوطني.
- العزم والتضحية.

2.3 – المفردات الدالة على العمل العسكري في البيان:

لم يأت في البيان ذكر كلمة " العمل العسكري " بهذا الوضوح، إنما جاء ذكرها مقصورا على كلمة "العمل" دون إضافة كلمة "العسكري"، وقد ذكرت العبارة بهذا اللفظ أربع مرات في البيان:

- المرة الأولى: في الفقرة الأولى –السطر الثالث: «...الأسباب العميقة التي دفعتنا إلى العمل »[21]

« …Les raisons profondes qui nous ont poussée à agir »

- المرة الثانية: في الفقرة الثانية ـــــ السطر الثالث: «...فإننا نعتبر أن الشعب الجزائري، في أوضاعه الداخلية، متحد حول قضية الاستقلال و العمل».

«…Nous estimons que, sous ses aspects internes, le peuple est uni derrière le mot d'ordre d'indépendance et d'action»

- المرة الثالثة: في الفقرة الثالثة – السطر الثاني:« ومما يلاحظ في هذا الميدان أننا كنا، منذ أمد بعيد، أول الداعين إلى الوحدة في العمل».

« A noter dans ce domaine que nous avons depuis forts longtemps étés les précurseurs de l'unité dans l'action»

- المرة الرابعة: في الفقرة الثانية من وسائل الكفاح بإضافة كلمة " المحض "

«...أولا: العمل الداخلي سواء في الميدان السياسي أو في ميدان العمل المحض».

«...:Une action intérieure tant sur le plan politique que sur le plan de l'action propre,»

4 –موقف الحكومة الفرنسية من بيان أول نوفمبر:

لقد وصل البيان إلى الهيئات الإدارية المختلفة صبيحة أول نوفمبر 1954 من خلال وضعه – من قبل الثوار – في صناديق البريد الخاصة بمختلف الأشخاص[22]، إلا أن الحكومة الفرنسية تجاهلته، و لم تعلق عليه في بياناتها أو تدخلات ممثليها مع الصحافة؛ كما انخرطت الصحافة الكولونيا لية والفرنسية – عموما – في هذا التعتيم، فلم تشر إلى البيان[23].

إنما انصبت اهتمامات الإدارة الفرنسية و صحافتها على العمليات العسكرية التي وقعت ليلة الفاتح من نوفمبر و ما تلاها، و نسبت هذه الأحداث إلى متمردين و إرهابيين و خارجين عن القانون قاموا بأعمال إجرامية[24].

إن المتمردين و الإرهابيين و المجرمين، هي نعوت و أوصاف وصف بها الفاعلون في كل التصريحات الفرنسية؛ أما مصدر العمليات و المخطط لها فهو خارج الجزائر، مرة في مصر و الجامعة العربية[25]، و مرة أخرى الشيوعية العالمية[26].

لم تشر الإدارة الفرنسية و صحافتها – لا من قريب و لا من بعيد– إلى بيان أول نوفمبر، و لا إلى المنظمة السياسية التي وزعته (جبهة التحرير الوطني) المذكورة بالاسم في البيان التي طالها التعتيم أيضا. فالمتتبع للصحافة بعد 1954/11/01 لا يجد ذكر جبهة التحرير أو البيان – ولو بالتعريض –، وكأن أوامر صارمة قد أعطيت في هذا المجال!!!

بعد مرور ثمانية أشهر تقريبا، تكتب الصحافة عن اسم (C.R.U.A) كمنظمة تقف خلف الأحداث التي تهز القطر الجزائري[27] جاء ذلك في معرض الحديث عن اعتقال المناضل "ياسف سعدي" القادم من فرنسا، والذي يكون - بحسب الجريدة - قد أعطى مثل هذه المعلومات.

لقد أبعد الجانب الفرنسي الغطاء السياسي عن الثوار، والمتمثل في "جبهة التحرير الوطني "، ومارس التعتيم المطبق على بيانها الأول الصادر صبيحة الأحداث، ليتم بعد ذلك التعامل مع الثوار كـــ: (خارجين عن القانون) "..Hors la loi" أو (متمردون عن الشرعية)

" Des Rebelles.. "، ومحاربتهم تكتسي طابعا قانونيا خاصا هو: " عمليات استرجاع النظام " Les opérations de maintien de l'ordre "(28) التي تعني أن القضية فرنسية داخلية تتعلق بحفظ النظام، ولا يحق لأي أحد أن يتدخل.

5 – استراتيجية الثورة الجزائرية من خلال بيان أول نوفمبر:

إذا كانت الاستراتيجية هي التخطيط المحكم و تحديد الوسائل الممكنة التي من خلالها يمكن تحقيق الأهداف المسطرة، فإن جبهة التحرير الوطني لم تحدد في البيان الخطط الاستراتيجية – كما قد يتبادر إلى الذهن – إنما يمكن لنا أن نستنبط من خلال البيان بعض عناصر هذه الاستراتيجية(29).

1.5 – الهدف الاستراتيجي: تهدف جبهة التحرير الوطني إلى "الاستقلال الوطني" بواسطة:« إعادة بناء الدولة الجزائرية ذات السيادة» La restauration de l'Etat « Algérien souverain إن الترجمة للعبارة تعني: إرجاع الشيء إلى ما كان عليه، أو إعادته، أو إعادة بنائه(30) « إن واضعي البيان عندما استعملوا عبارة " إعادة بناء الدولة الجزائرية ذات السيادة " كانوا يقصدون موقفا سياسيا يتضمن جوابا صريحا للذين كانوا يزعمون أن الظلم و التهميش الاجتماعي وراء اللجوء إلى العنف(31)».

«لقد كان الشعب الجزائري ينعم بحريته واستقلاله عندما فاجأه الاحتلال الفرنسي، الذي غيبهما بحد السلاح، ولم يترك حيلة إلا واستعملها للقضاء على مختلف عناصر الشخصية الوطنية(32)».

وقد جاءت عبارات أخرى في البيان تؤكد هذا الهدف الاستراتيجي هي:

- تصفية النظام الاستعماري.
- الاعتراف بالسيادة الجزائرية وحدة لا تتجزأ.
- وهكذا نتخلص من جميع التنازلات المحتملة.

2.5 – الخطة الاستراتيجية: يبدوا من خلال نص بيان أول نوفمبر أن الخطة المعول عليها من قبل القيادة لتحقيق الهدف هي: تجميع كل الطاقات الحية في الجزائر خلف جبهة التحرير الوطني و تعبئتها و تنظيمها، لتشكل قوة شعبية ثائرة تتمكن من تقويض أركان الاستعمار.« إن بقاء الجماهير سلبية أو تتمتع بإيجابية انفعالية عفوية، تندفع مع المد العاطفي،

دون إعداد أو تعبئة أو تنظيم، يفقد هذه القوة معظم معناها، و يجعل منها قوة مهملة لا تدخل في الخطة الاستراتيجية[33]

جاء في البيان حول هذه الخطة الاستراتيجية:

- و نتيح لجميع المواطنين الجزائريين من جميع الطبقات الاجتماعية و جميع الأحزاب والحركات الجزائرية الفرصة أن تنظم إلى الكفاح التحريري دون أدنى اعتبار آخر.
- تجميع و تنظيم جميع الطاقات السليمة لدى الشعب الجزائري لتصفية النظام الاستعماري.
- إن هذه مهمة شاقة، ثقيلة العبء، تتطلب كل القوى، و تعبئة كل الموارد الوطنية.
- أيها الجزائري: إننا ندعوك لتبارك هذه الوثيقة، وواجبك هو أن تنظم إليها لإنقاذ بلادنا و العمل على أن نسترجع له حريته.
- إن جبهة التحرير الوطني هي جبهتك، و انتصارها هو انتصارك.

3 .5 – الوسائل الاستراتيجية:

لقد حدد البيان أن الكفاح سيكون بجميع الوسائل حتى تتحقق الأهداف، طبقا للمبادئ الثورية، و اعتبارا للأوضاع الداخلية و الخارجية. جاء في البيان:" ولذلك و طبقا للمبادئ الثورية، فهي موجهة فقط ضد الاستعمار الذي هو العدو الوحيد العنيد الأعمى، الذي ظل دائما يرفض منح أدنى الحريات بوسائل الكفاح السلمي".

" و سيكون على جبهة التحرير الوطني، لكي تحقق هدفها، أن تنجز مهمتين أساسيتين في وقت واحد وهما:

- العمل الداخلي سواء في الميدان السياسي أو في ميدان العمل المحض.
- العمل في الخارج لجعل القضية الجزائرية حقيقة واقعة في العالم كله، و ذلك بمساندة كل حلفائنا الطبيعيين"

خاتمة:

مما تقدم يمكن القول أن الذين تولوا صياغة بيان أول نوفمبر كانوا ملتزمين بأيديولوجية الحركة الوطنية الممثلة في حزب الشعب الجزائري وواجهته السياسية "الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية " سليلة نجم شمال إفريقيا. لقد كانت هذه الأيديولوجية مختصرة في فكرة

الاستقلال التام و المفاصلة بين الدولة الجزائرية التي تعرضت لاعتداء غربي فرنسي أفقدها سيادتها – و بين الدولة الفرنسية المحتلة.

وقد بين واضعوا البيان أن عدوهم الوحيد الموجهة ضده كل الجهود هو الاستعمار الفرنسي الذي ظل دائما يرفض منح أدنى الحريات بوسائل الكفاح السلمي. فالكفاح السلمي كان هو القاعدة الاساسية التي بنت عليها الحركة الوطنية الجزائرية نضالها، و لم تنتقل إلى الكفاح المسلح إلا بعد إصرار العدو العنيد الأعمى – خاصة بعد مجازر الثامن ماي 1945.

ومع ذلك فإن بيان أول نوفمبر لا يجعل من العمل العسكري إلا وسيلة استثنائية لإجبار الطرف الآخر للجلوس على طاولة المفاوضات، كان هذا من أول يوم تفجرت فيه الثورة. يقول البيان:« و في الأخير، و تحاشيا لكل التأويلات الخاطئة، و للتدليل على رغبتنا الحقيقية في السلم، و للحد من الخسائر البشرية و إراقة الدماء، فإننا نعرض على السلطات الفرنسية وثيقة مشرفة للمناقشة..!

إلا أنه بالمقابل فقد مارست السلطات الفرنسية كل التعتيم على بيان أول نوفمبر، و رفضت أن تعترف بالواجهة السياسية للحركة الثورية، بل ظلت تلصق كل نعوت الاجرام بالثوار، و تنفي عنهم وطنيتهم والتفاف الشعب حولهم، فكانت تنسبهم تارة للجامعة العربية و تارة أخرى للشيوعية العالمية...!

إن المؤرخين اليوم ملزمون بتسليط الضوء على التعتيم الفرنسي الذي طال البيان كوثيقة ولدت من رحم الأحداث، و تبنت العمل الثوري، ومدت يد التفاوض للطرف الآخر الذي بقي مصرا على العنف و إراقة الدماء.

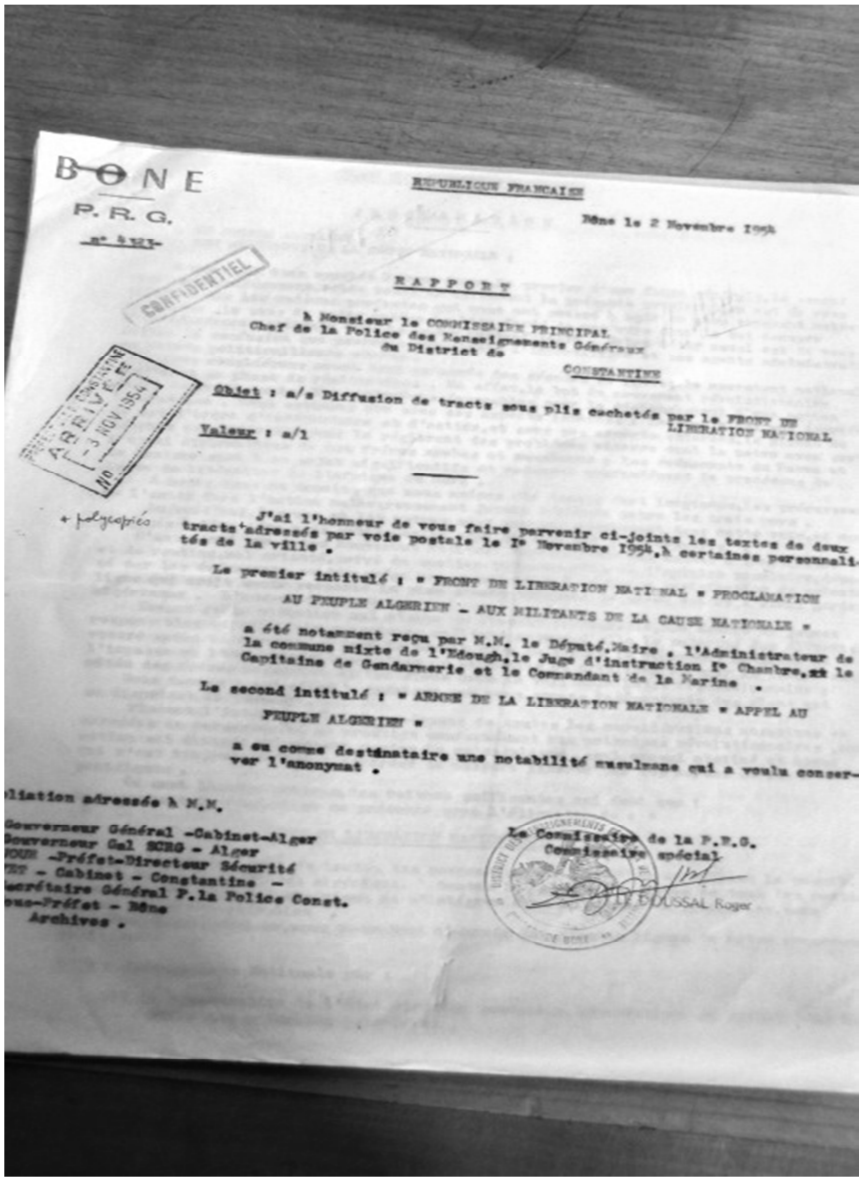

BONE

P.R.G.

n° 4423

CONFIDENTIEL

RÉPUBLIQUE FRANÇAISE

Bône le 2 Novembre 1954

RAPPORT

à Monsieur le COMMISSAIRE PRINCIPAL
Chef de la Police des Renseignements Généraux
du District de
CONSTANTINE

Objet : a/s Diffusion de tracts sous plis cachetés par le FRONT DE LIBERATION NATIONAL

Valeur : a/1

ARRIVÉE 3 NOV 1954 N°

+ polycopiés

J'ai l'honneur de vous faire parvenir ci-joints les textes de deux tracts adressés par voie postale le 1er Novembre 1954, à certaines personnalités de la ville.

Le premier intitulé : « FRONT DE LIBERATION NATIONAL » PROCLAMATION AU PEUPLE ALGERIEN - AUX MILITANTS DE LA CAUSE NATIONALE »

a été notamment reçu par M.M. le Député, Maire, l'Administrateur de la commune mixte de l'Edough, le Juge d'instruction 1e Chambre, et le Capitaine de Gendarmerie et le Commandant de la Marine.

Le second intitulé : « ARMEE DE LA LIBERATION NATIONALE » APPEL AU PEUPLE ALGERIEN »

a eu comme destinataire une notabilité musulmane qui a voulu conserver l'anonymat.

...liation adressée à M.M.

...Gouverneur Général -Cabinet-Alger
...Gouverneur Gal SCRG - Alger
...-Préfet-Directeur Sécurité
...- Cabinet - Constantine -
...crétaire Général P.la Police Const.
...-Préfet - Bône
Archives.

Le Commissaire de la P.J.S.
Commissaire spécial

BOUSSAL Roger

- الهوامش:

(1) محمد العربي الزبيري ،**تاريخ الجزائر المعاصر** ،طبعة خاصة بوزارة الثقافة ، الجزائر 2007 ، ج3 ص 23.

(2) أهم العرائض كانت عريضة الشيخين (الدكتور محمد بن العربي الشرشالي) و(الشيخ محمد برحال) التي رفعاها سنة 1891 باسم الشعب الجزائري إلى الحكومة الفرنسية في باريس ،وهي أعمق و أشمل من عريضة الأمير خالد التي رفعها بعد إصلاحات فيفري 1919 ،إلا أن المؤرخين الفرنسيين لا يركزون إلا على هذه الأخيرة. أنظر: الزبيري ،المرجع السابق.

(3) أبو القاسم سعدالله ،**الحركة الوطنية الجزائرية** ،عالم المعرفة ،الجزائر 2011 ، ج2 ص 288.

(4) المقصود به تيار فرحات عباس الذي دعا في خضم الحرب العالمية إلى " أحباب البيان ".

(5) أحمد محساس ،**الحركة الوطنية الثورية في الجزائر** ،ترجمة الحاج مسعود مسعود ومحمد عباس ،منشورات الذكرى الأربعين للاستقلال ،الجزائر 2002 ص 255.

(6) أنشأ حزب الشعب الجزائري جناحه العسكري (L'os) في مؤتمر فيفري 1947.

(7) في اللجنة المركزية للحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية على وجه الخصوص.

(8) الانتخابات التشريعية لسنة 1946، ثم الانتخابات البلدية، وبعدها انتخابات الجمعية الجزائرية التي تقررت في إطار "قانون الجزائر 1947 " الذي يسمى تجاوزا "دستور الجزائر1947" أسس بموجبه جمعية جزائرية من 120 عضو 60 منهم أوربيون و60 من الأهالي.

(9) الزبيري، المرجع السابق، ج 1، ص 191.

(10) عيسى كشيدة، **مهندسو الثورة**، ترجمة موسى أشرشور، منشورات الشهاب، الجزائر 2003، ص 77.

(11) يقصد الشائعات التي تدعي أن اللجنة الثورية للوحدة والعمل في طرف المركزيين.

(12) محمد بوضياف، **التحضير لأول نوفمبر**، دار النعمان، الجزائر 2011، ط 2، ص 46.

(13) كشيدة، المرجع السابق، ص 71.

(14) محساس، المرجع السابق، ص 373.

(15) نفسه، ص 376.

(16) الاسم الثوري لمحمد بوضياف.

(17) صحفي، مناضل في حزب الشعب الجزائري، اختاره بوضياف ليتولى صياغة البيان.

(18) الوثيقة الأولى هي بيان أول نوفمبر، والوثيقة الثانية هي نداء من جيش التحرير الوطني موجه للشعب الجزائري.

(19) كشيدة، المرجع السابق، ص 105.

(20) الترجمة الحرفية لكلمة Proclamation تعني اعلان، ومن خلال المحتوى الذي جاء فيه، تصح الترجمة بـــ: بيان، أنظر: **قراءة متأنية في بيان أول نوفمبر**، الزبيري، المرجع السابق، ج 3، ص 21 وما بعدها.

(21) اعتمدت على ترجمة وزارة المجاهدين المنشورة، واستأنست بالترجمة المقترحة من قبل الأستاذ: محمد العربي الزبيري في كتابه ـــــ تاريخ الجزائر المعاصر، ج 3، المرجع السابق.

(22) أنظر: الملحق الذي يشير إلى أن البيان وجد في صناديق البريد الخاصة بـــ: رئيس بلدية أيدوغ بعنابة، والنائب والقاضي ونقيب الجندرمة وقائد القوات البحرية لعنابة.

(23) أنظر الصحافة الفرنسية الصادرة يوم 02 نوفمبر 1954 وما بعده.

(24) صدى الجزائر، الصادرة يوم 1954/11/02.

(25) le Figaro الصادرة يوم 1954/11/05.

(26) صدى الجزائر، الصادرة يوم 1954/11/03.

(27) برقية قسنطينة والشرق الجزائري، الصادرة يوم 1954/06/25.

(28) ظلت هذه التسمية هي الرسمية منذ 1954/11/02 إلى غاية 1999 أين تم تغيير هذه العبارة بعبارة " حرب الجزائر " أنظر: الجريدة الرسمية الفرنسية الصادرة يوم 1999/10/20، ص 15647. وهذا لا يعني أبدا أننا ننساق وراء الفرنسيين في هذه تسمية، إننا نعتبر أن ما حدث من صبيحة 1954/11/01 إلى 1962/03/19 هو ثورة شعبية قامت لتحرير وطن تم احتلاله و إلحاقه بدولة أجنبية عنه قرابة قرن و نيف من الزمن.

(29) للإحاطة بالمعاني و الأبعاد الواردة في بيان أول نوفمبر، يرجى مراجعة: محمد لحسن زغيدي، **بيان أول نوفمبر 1954 و أبعاده**، مجلة الدراسات التاريخية، العدد 14، السنة 2012، ص 271.

(30) يوسف محمد رضا، الكامل الوسيط ـــــ قاموس فرنسي عربي، مكتبة لبنان 2009، مادة: REStـ .

(31) الزبيري، المرجع السابق، ج 3، ص 53.

(32) نفسه.

(33) أحسن بومالة، **استراتيجية الثورة الجزائرية في مرحلتها الأولى 1954/1962**، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر بدون سنة، ص 63.

المصدر: AOM, carton n: 5Q227.

الإعلام الثوري في فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر

(1954ـ1962م)

أ/ جهاد الغرام
جامعة الدكتور يحي فارس - المدية

مقدمة:

يعتبر الإعلام أحد أهم دعامات الثورات وتوجيه الأزمات الدولية من نزعات وحروب، وأنعكس ذلك على كل الفرد نظرا للتغييرات المستحدثة فى آلياته ونمط حياة الإنسان مقارنة مع ما كانت عليه في الحقب التاريخية السابقة ، فقد أدركت الثورة الجزائرية منذ اللحظات الأولى من اندلاعها بان الإعلام هو احد الأسلحة المهمة والفاعلة في نضالها ضد المستعمر الفرنسي ، يقف في خندق واحد إلى جانب السلاح في مواجهة الخصم لربح المعركة، هذا الإدراك القوي بأهمية الكلمة وتوظيفها جاء نتيجة المعاناة التي افرزها الصراع الطويل والمرير الذي خاضه الشعب الجزائري عبر أجيال وأجيال في كفاحه ضد المستعمر، والمعبر عنها من خلال المقاومات المسلحة والانتفاضات الشعبية ونضاله السياسي، مما جعل قادة الثورة ورجالاتها يولون اهتماما كبير للإعلام من أول يوم بدأت فيه الثورة والذي كان واضحا في هدفها للسعي وراء تعبئة الرأي العام الداخلي والخارجي للوقوف بجانبها ومساندتها للوصول إلى الاستقلال والحرية ومحاربة الاستعمار الفرنسي الغاشم، وفي المقابل كانت تدرك فرنسا مدى هذه الأهمية للإعلام فجنّدت كل وسائلها وإمكانياتها لمحاربة الثورة والتقليل من شأنها وتشويه صورتها لدى الرأي العام، وعليه ستعالج إشكالية الدراسة الإعلام والإعلام المضاد إبان الاحتلال الفرنسي للجزائر خلال الفترة 1954-1962، وكيفية استخدام الاحتلال الفرنسي للإعلام في مواجهة الثورة الجزائرية ، والوسائل الإعلامية التي اعتمدتها الثورة الجزائرية لكسب الحرب الإعلامية ضد الاستعمار الفرنسي.

- أولا: الإعلام كبعد رئيسي ومهم في إدارة الأزمات الدولية

أحدث الإعلام تأثير كبير في كل مجال الحياة وسلوكيات أفراد المجتمع، شملت الأعراف والقواعد والقيم الاجتماعية، هذا فضلا عن ما تعرضه وسائله المتعددة من أحداث دولية بعدما جعلت من العالم قرية صغيرة، وقد نجحت السياسة بكل مقوماتها وأساليبها فى توجيه دفة الإعلام نحو أهدافها الإستراتيجية المرسومة رغم تناقض أقوالها مع أفعالها، وتعريض البشرية لحروب وأزمات مفتعلة تارة ، وحقيقية تارة أخرى، جعل من الإعلام ووسائله الدور المؤثر، وفي بعض الأحيان العامل الحاسم في هذه الأزمات.

إن الأزمات جزء رئيس في واقع الحياة البشرية والمؤسسية، وهذا يدفع إلى التفكير بصورة جدية في كيفية مواجهتها والتعامل معها بشكل فعال يؤدي إلى الحد من النتائج السلبية لها، والاستفادة إن أمكن من نتائجها الإيجابية، فهي حالة توتر ونقطة تحول تتطلب قراراً ينتج عنه مواقف جديدة سلبية كانت أو إيجابية تؤثر على مختلف الكيانات ذات العلاقة [1]، وتشكل هذه الأزمات تحدياً للإنسان الذي يكون بالأساس محور الأزمة فهو بالضرورة يكون سبباً في نشوء الأزمة وتصاعدها والتعامل معها ومعالجتها، وهذه الأزمات بطبيعة الحال تتفاوت في طبيعتها وحجمها وتشعبها وخطورتها ومدى تأثيرها على حياة الإنسان ولأننا نعيش اليوم عصر الإعلام, ذلك العصر الذي أصبح فيه الإعلام يمثل عصب الحياة وأصبحت وسائل الإعلام على تنوعها، عاملاً مؤثراً في الأحداث التي يشهدها العالم كل يوم, بل ومحركاً لها، فقد أصبح من الضروري أن تتعامل وسائل الإعلام مع أزمات المجتمع المختلفة، باعتبارها العنصر الأساسي والأول لوسائل الإعلام ، هذا العنصر على قدر كبير من التعقيد ، ذلك لان الجمهور متنوع وينتمي إلى طبقات متعددة ومتصل ببعضه البعض بطرق عديدة [2]، وهنا يظهر الدور الإعلامي الذي تحدثه الرسالة الموجهة من شخص أو مجموعة أشخاص ، وهو ما يؤدي بدوره إلى إحداث تأثير مطلوب أو غير مطلوب، ويحقق الهدف أو لا يحققه ، وذلك على مستوى ضعيف أو قوي، وهذا يفرض على تلك الوسائل أن تتعامل مع الأزمة بحكمة وحرفية حتى يتم تجاوزها [3].

قد يكون الإعلام في كثير من الأحيان الأداة الرئيسية لإدارة الأزمة، وربما يكون النجاح في تجاوز الأزمة, والخروج منها بأقل الخسائر, نتيجة لنجاح أجندة الأزمات الدولية إلا أن لها دوراً مؤثراً في تحديد كيفية معالجة هذه الأزمات ، نظراً لحساسية وخطورة تأثير الأزمة

الدولية على متغيرات العلاقات بين الدول والسلم والأمن الدوليين ، وتصاعد حدة التوتر بين الأطراف المختلفة وبروز احتمالات السيناريوهات الأسوأ ، تعمل العديد من الوسائل الإعلامية في هذه الحالة على جذب اهتمام الجماهير والتأثير فيها ، وهى لا تؤدى هذا الدور بمعزل عن باقي أدوات إدارة الأزمة ، وإنما تؤديه من خلال إدراك واضـــح لعلاقات متداخلة وأدوار متكاملة في لحظة حرجة ، ليأتي الأداء متناغماً فى وعى ، ساعياً نحو هدف محدد ، لا مجال فيه لصراع أو تناقض أو خروج عن سياق الهدف المنشود من وراء استخدام وسائل الإعلام في التحكم أو توجيه الأزمة[4].

إن النجاح في إدارة الأزمة داخل الجهاز الإعلامي, سواء كان مسموعاً أو مرئياً أو مقروء ، يكون رهناً بمدى إدراك فريق العمل المنوط به التعامل مع الأزمة, وتناولها من خلال الوسيلة التي يعمل بها، وهذا يتطلب مجموعة من الأسس والخطوات التي يجب إتباعها عند حدوث الأزمة سواء كانت هذه الأزمة طويلة المدى أو قصيرة أو مفاجأة تماماً أي غير متوقعة على الإطلاق أو محتملة الحدوث, وهناك بوادر ومقدمات لها.

- ثانيا: استراتيجية الإعلام الفرنسي ضد الثورة الجزائرية

تنوعت وسائل الدعاية الفرنسية في الجزائر ، حيث ضاعفت من وسائلها للقضاء على الثورة، فإلى جانب الوسائل العسكرية الضخمة، اعتمدت على السلاح الإعلامي في تضخيم انجازات الجيش الفرنسي وتجاهل معارك رجال المقومة وما ألحقوه من خسائر وقعت في صفوف جيشها ، وومن اجل هذا كانت مهمة الإعلام جليا في الحرب النفسية وهجمة شرسة واسعة النطاق شنتها على الثورة باختلاق الأكاذيب والأساليب الرخيصة ، كما ركز الاستعمار على الحملات الصحفية والإذاعات واستخدام الإمكانيات الهائلة التي كان يمتلكها لنشر الأكاذيب والدعاية المزيفة لكل الحقائق ، باستخدام مختلف أجهزة الإعلام من صحف وإذاعة ومناشير دعائية التي جندها الحكومة الفرنسية للتقليل من أهمية ما يحدث في الجزائر، من خلال مجموعة من السياسات والأهداف عملت عليها طوال اندلاع الثورة التحررية وهي:

1- القمع الفكري: أدرك الاستعمار أهمية الإعلام من دور في مواجهة الثورة الجزائرية بتطبيق سياسة الكبت الفكري وفرض الرقابة المشددة على مختلف الإصدارات ومختلف النشاطات التي من شانها أن تقوي من عزيمة الثورة الجزائرية في مواجهة الاستعمار، فقد لجأ الإعلام الاستعماري إلى تطبيق سياسة القمع الفكري على كل من يقف إلى جانب الثورة

التحريرية منذ انطلاقها والمتمثل في حجز ومنع كل كتاب يصدر أو مقال ينشر أو عريضة تحرر أو محاضرة تلقى تتعلق بها ، أمثال محمد ديب الذي استطاع أن يوظف كتاباته في هذا الجانب لفضح مساوئ الاستعمار في الجزائر وتوعية الجماهير الشعبية، حيث اصدر كتاب بعنوان " في المقهى " فقامت السلطات الفرنسية بمنع تسويقه في الجزائر، فعلقت مجلة الفكر التونسية قائلة "لقد أمتنع أصحاب المكتبات بالجزائر باتفاق مع الحكومة الاستعمارية عن بيع مجموعة القصص التي أصدرها الكاتب الجزائري محمد ديب بأكبر دار للنشر بفرنسا تحت عنوان في (المقهى) لان هذا الكتاب يرفع الستار عن الوسائل الاستعمارية المستعملة لتزوير الانتخابات، وعن أساليب العنصرية الوحشية في تركيز دعائم الاستعمار بالبلاد"، و لم يكن هذا الأول والأخير بل سبق لها أن أوقفت جريدة البصائر لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في 7 جانفي 1956، وتوقيف جريدة "L'humanité " بسبب نشرها لصور بشعة نفذها الجيش الفرنسي في حق الجزائريين في 25 فيفري 1957 ، وحجز كتاب "الاستنطاق " للصحفي هنري علاق، الذي يتحدث عن التعذيب في الجزائر في 27 مارس 1958 [5].

2- ممارسة التضليل والتحريف وتشويه الثورة: لقد كانت الهجمة الإعلامية الفرنسية المكثفة تهدف إلى تشويه صورة الثورة الجزائرية في أعين الشعب الجزائري، لكي يبتعد عنها وبذلك تتم عملية عزلها والتقليل من أهميتها والتقزيم من مطالبها المشروعة، وذلك من خلال رميها بمختلف النعوت والأوصاف المسيئة والتهم الباطلة، فركزت السلطات الفرنسية على جانبين رئيسيين من جوانب الإعلام والتوجيه: فمن ناحية سلطت الأضواء على حياة بعض الثوار ممن لهم "ماض إجرامي أو علاقات مشبوهة مع القضاء" وذلك للتقليل من قيمة جبهة التحرير الوطني، وحتى يتخلف أبناء الشعب الجزائري عن الالتحاق بصفوف المجاهدين، ومن جملة ما نشرته جريدة "صدى الجزائر": أن جيش التحرير المزعوم يضم من بين قيادات أركانه شخصيات بارزة يمكن أن نذكر من جملتها: الشهير قرين بلقاسم بن بشير الذي يبلغ من العمر سبعاً وعشرين سنة ويجر وراءه سوابق عدلية لا تقوى الجبال على حملها، لأجل ذلك، فإنه لا مجال للدهشة عندما نعلم أنه بفضل الالتحاق بأصدقائه المحكوم عليهم، ترأس عصابة من الإرهابيين بدلاً من أن يستسلم للعدالة ويقضي في السجن سنوات الأشغال الشاقة التي حكم بها عليه سنة 1950" ، ومن جهة ثانية راحت الصحافة الفرنسية تعمل على تعميم الفكرة القائلة بأن الثوار إنما هم جماعات معزولة ومنبوذة من الجماهير التي لا ترغب سوى في أن تبقى

فرنسية كاملة الحقوق والواجبات، وبهذا الصدد نشرت "صدى الجزائر" خبراً مفاده أن سكان تيزي غنيف قد حاولوا الاعتداء على اثنين وثلاثين إرهابياً (تقصد هنا رجال الثورة حسب وصفها) وقعوا أسرى أثناء عملية قامت بها قوات الجيش الفرنسي" ، ففي هذا النطاق، افتعلت الأخبار والإشاعات التي مفادها "أن المتمردين، في جبال أوراس، قد تلقوا، عن طريق الجو، الأسلحة التي أرسلتها دول أجنبية قصد إغراق البلاد في بحر من الفوضى والاضطراب وانعدام الأمن، ومن أجل زرع الشقاق بين الأشقاء وتوسيع هوة الخلاف بينهم"[6].

بالإضافة إلى ذلك بدأت الصحافة الاستعمارية حملتها الضاربة ضد الثورة من يومها الثاني، وقد ازدادت شراسة وعدوانية وتزييفا للإحداث، وقلبا للحقائق، ضاربة بذلك عرض الحائط كل الأعراف والتقاليد الصحفية، والقيم التي تشكل أخلاقيات المهنة ، حيث قامت بتزييف وتزوير بضعة أعداد من صحيفة المجاهد اللسان المركزي لجبهة التحرير الوطني ، وهي الأعداد 61، 63 ، 64 ، 65 ، 66 الصادرة سنتي 1960 و1961 م [7].

إن الخطاب الإعلامي الفرنسي ، اعتمد أسلوب الحرب النفسية والدعائية وعمل على تجريد المجاهدين من خصلة من خصال التي يفرضها الثوري كالبطولة والشجاعة والتضحية، فالثوار في نظر هذا الخطاب ما هم إلا مجموعة من الإرهابيين أو قطاع طرق أو خارجون على القانون أو متمردون، كلها أوصاف ونعوت القصد منها تجريد الثورة من أهدافها الأخلاقية والإنسانية والوطنية ، واستخدمت لذلك كل وسائلها الإعلامية المسموعة والمكتوبة ، فعلت كل شيء لتجند الرأي العام الداخلي والخارجي ضد الثوار، بتصويرهم بالمجرمين ، والمطاردين بمقتضى الحق العام ممن لا يخسرون شيئا في المغامرة، ذلك من خلال ممارسة التضليل وتزييف الحقائق والوقائع للقضاء على الثورة.

3- نشر البلبلة وإثارة الشكوك حول مصداقية الثورة الجزائرية: إن الهجمة الإعلامية الشرسة والواسعة النطاق والإمكانيات المادية الضخمة التي جندتها السلطات الاستعمارية الفرنسية للتقليل من أهمية أحداث أول نوفمبر من خلال مختلف أجهزة الإعلام والوسائل الدعائية، بمختلف مشاربها واتجاهاتها السياسية الحزبية بدون اختلاف تزرع الشك في نفوس الجزائريين بنعت هذه الأحداث بكل الأوصاف، بأنها مجرد تمرّد من قطاع الطرق و"الفلاّقة" ، وذلك قصد عزل الثورة وخنقها ثم تجريدها من صفتها الشعبية وهدفها المنشود في الحرية والاستقلال، لتحوّلها إلى مجرد أعمال إرهابية ليس لها أي صلة بالشعب الجزائري المسالم

والذي يريد العيش مع الأوربيين في بلد واحد، مرتبط بالوطن الأم فرنسا، وراحت هذه الصحافة ووسائل الإعلام ا لفرنسية تحاول طمأنة الأوربيين في الجزائر بأنهم يجب أن يضعوا ثقتهم الكاملة فيما تتخذه السلطات الفرنسية من إجراءات لتهدئة وضمان الأمن و"ا لقضاء على هذه الشرذمة المتمردة وهذه العصابات المجرمة من اللصوص وقُطاع الطرق[8] ، في صباح اليوم الثاني من شهر نوفمبر، ظهرت الصحافة الاستعمارية بعناوين ترمي إلى هدفين مختلفين: فهي تدعو من جهة، إلى التزام الهدوء، ومنح الثقة للسلطات المختصة التي تملك من الوسائل ما سيمكنها في ظرف قصير جداً من القضاء على الثورة باعتبارها لا تعدو غير أعمال الإجرامية، ومن جهة أخرى، فإن تلك العناوين جاءت عبارة عن ترهيب ووعيد موجهين لقادة وأعضاء الحركة الجديدة، مذكرة بقوة فرنسا وعظمتها وقدرتها على رد الفعل، وعلى استعمال العنف والقمع من أجل التوصل إلى استتباب الأمن[9].

4- المؤامرة الخارجية: منذ اللحظات الأولى من اندلاع الثورة أوعزت السلطات الفرنسية لأبواقها الإعلامية بالتصدي للثورة باعتبارها مؤامرة خارجية ، التي وجدت الصق التهم بالخارج ، مادة دسمة في العملية الإعلامية الدعائية ، لتبرهن للعالم أن الثورة الجزائرية ليست كما يظن البعض ، ثورة قومية مستندة على شعور وطني ، وإما هي حركة عصيان وتمرد مدفوعة من الخارج تستهدف الوجود الحضاري لفرنسا وتهدد هيمنته في الجزائر خاصة وشمال أفريقيا عامة[10]، محاولة منها تغطية فشلها في القضاء على الثورة مما جعلها تجد الحل في تبني إعلامها وجهة نظر الحكومة المركزية القائلة أن المسالة لا تعدو أن تكون محاولة تقوم بها أيد أجنبية ، لتبرر ملف الجزائر الذي قدم إلى هيئة الأمم المتحدة لملا الفراغ الخاص بالجزائر في ملف شمال أفريقيا، وذلك باتهام الثوار بأنهم عملاء موسكو ومرة بأنهم عملاء القاهرة ، تطوان، لندن ، وهذا ما أشار إليه الصحفي الفرنسي " روبرت بونيت" في جريدة L'AURORE ، بالقول أن الذين نفذوا العمليات العسكرية تلقوا الأسلحة والأوامر من الخارج [11].

لقد عمل الإعلام الفرنسي على إفراغ الثورة التحريرية من بعدها الوطني التحرري وجعلها عملا من إيحاء الخارج، وأن المنفذين سوى أدوات استخدموا أحسن استخدام من طرف فرنسا، والذين تغيير الأوضاع الداخلية في شمال أفريقيا لحساب مصالحهم ،و أن الصراع الدائر في الجزائر لا يعدو إلا صراعا بين الشرق والغرب ، لقد كانت فرنسا مضطرة إلى التمسك بهذه الذريعة أي المؤامرة الخارجية ، وذلك من اجل الدفاع عن ملفها أمام هيئة الأمم

المتحدة بكل ما لديها من وسائل، وهو اتهام الثورة الجزائرية بالشيوعية، وهو اتهام يدعم موقفها عند الدول المناهضة للشيوعية ، وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية والأوروبية التي تسير في فلكها ، بالإضافة إلى التقليل من شانها كحركة وطنية تحررية ولأنها مجرد عصابات مأجورة من الخارج لإحباط عزيمة الثوار من توصيل صوتهم إلى المحافل الدولية بالتعريف بالقضية الجزائرية وتدويلها، وشرح حقيقة ما يجري على أرضها.

5- التحريض على استخدام المزيد من القوة: عملت الصحافة الفرنسية بالتنسيق مع حكومتها الاستعمارية على التهويل والتضخيم والمبالغة لتجند كل إمكانياتها المادية والبشرية في استخدام القوة لوضع حد للثورة في الجزائر ففي افتتاحيتها التي عنونتها بـــ "اضربوا على الرأس"كتبت جريدة البرقية اليومية التابعة للاستعمار بعد توجيهيها انتقادات لاذعة للإدارة الفرنسية تذكر أن الوقت ملائم لكي يقوم المسئولون بالسهر والتخطيط لسياسة واقعية يأملها السكان الأوربيون والمسلمون، وتختم مقالها بالقول: "يجب ضرب هذه الكمشة من المهرجين وضربهم على الرأس" [12].

كان على الإعلام الفرنسي الصادر في الجزائر خاصة أن تلعب الدور الرئيسي والأهم بحيث أنها كانت في غالبيتها خاضعة من الناحية المادية والتوجيهية إلى أوامر وتعليمات المعمّرين. لهذا كانت المنبر الأساسي الذي من خلاله يدافع هؤلاء المُعمّرين الأوربيين أو"الكولون" عن مصالحهم ووجهات نظرهم، ضمن حملة شرسة ضد المسلمين وإثارة الغضب والسخط والعنصرية في أوساط الجالية الأوربية المسيحية والتشبث بالبقاء في الجزائر التي كانوا يعتقدون أنها قطعة من فرنسا باقية إلى الأبد[13]، وباشرت هذه الصحافة حملة شرسة في واجهات جرائدها ، بإثارة الغضب في أوساط الجالية الأوروبية المسيحية، والإسراع في القضاء على الثورة قبل أن يستفحل أمرها، وذا ما دفع الصحافة الاستعمارية تقترب أكثر من بعضها، مقلصة الفوارق بينها ، يقرا فيها مادة واحدة عن وقائع ما يحصل في الجزائر ، ولا تختلف الا في بعض التفاصيل الدقيقة في الصناعة الصحفية [14].

لقد وجدت هذه الإستراتيجية الإعلامية صدى كبير لدى الاحتلال الفرنسي الذي كان يساهم في هذه الأجندة الدعائية لطمئنت المعمرين والأوربيين، أن فرنسا لن تتنازل عن سيادتها في الجزائر مهما كانت الظروف، وان الثوار مجرد عصابات متمرد سيتم القضاء عليها بقبضة من حديد، وكان ذلك واضحا في تصريحات المسؤولين الذي كانوا يرفضون أي

مفاوضات محتملة مع الثوار، وقد سبق هذه التصريحات الحملة الصحفية التي شنها المعمرين من خلال وسائل الإعلام التابعة لهم من صحافة وإذاعة بواسطة ممثليهم في الهيئات الحكومية المختلفة، ينتقدون فيها الإدارة الفرنسية التي عجزت على حماية مصالحه، وحملة شرسة يطالبون فبها على ضرورة التكثيف من العمليات العسكرية النوعية والعمل بسرعة وبشدة لضرب الثورة للحفاظ على مصالحهم ومصالح فرنسا الاستعمارية في الجزائر.

– ثالثا: الإعلام المضاد للثورة الجزائرية لكسب الحرب الإعلامية ضد الاستعمار الفرنسي

لقد أولت جبهة التحرير الوطني باعتبارها حركة تحرر وطني الإعلام والدعاية دورا أساسيا، إذ أن اجتماع 22 طرح موضوع الإعلام والتفكير في كيفية أخبار الشعب الجزائري بأهداف هذه الحركة الثورية، حيث أرسى النقاش على صدور بيان أول نوفمبر وقد تكلفت بذلك جماعة الخمسة التي بلورت الفكرة الداعمة لضرورة إنشاء صحافة ثورية تتصدى لصحافة العدو وتفضح أكاذيبه ، وقد ترسخت هذه الدعوة بعد نقاش معمق بين أعضاء هذه الجماعة حول الكيفية والطريقة التي ينشر بها بيان أول نوفمبر، حيث تم الاتفاق في البداية على ان يصدر كمنشور ، باعتبار المنشور يتميز بالبساطة والمرونة والسهولة ، ولا يكلف الكثير عند توزيعه ونشره، على أن تقوم المؤسسات الإعلامية الغير تابعة للجبهة بنشره وتوزيعه على نطاق واسع فيما بعد، وبالفعل فقد تولت إذاعة صوت العرب نشره على نطاق واسع وكذلك بعض الصحف العربية [15].

1– الوسائل الإعلامية التي اعتمدتها الثورة الجزائرية

لقد دخلت جبهة التحرير الوطني ميدان الإعلام بإمكانياتها الضعيفة للدفاع عن مبادئ الثورة ، ومواجهة الدعاية الاستعمارية المضللة للرأي العام الوطني والدولي ، التي كانت تدرك من أنها تواجه خصما متمرسا وعريقا في الميدان لا يمتلك خبرات أو إمكانيات مادية في هذا المجال، لكنه يدرك بأهمية الكلمة وتوظيفها نتيجة المعاناة التي افرزها الصراع الطويل المرير والمستمر الذي خاضه الشعب الجزائري ضد المستعمر، مسخرا كل إمكانياته رغم ضعفها لمواجهة الترسانة الدعائية لهذا المستعمر ومن أهم الوسائل الإعلامية التي اعتمدت عليها الثورة هي :

أ- النشرات والبيانات: ان المنشور عبارة عن ورقة تحتوي على موضوع ما ، يوزع على الناس مجانا قصد اطلاعهم على حدث ما ، وهو في العادة لا يتعدى الصفحة الواحدة لأنه اذا تعداها إلى صفحتين أو أكثر يصبح نشرة وليس منشورا، ويحرر بأسلوب مبسط، وكان المنشور السياسي أول وسيلة من وسائل الإعلام استعملته اللجنة الثورية لاطلاع الرأي العام الوطني والدولي عن ميلاد جبهة التحرير الوطني من جهة ، وعن اندلاع الثورة المسلحة من جهة أخرى ، وهو نداء أول نوفمبر الذي كتب في صفحة منشور ، ووزع في الليلة الفاصلة بين 31 أكتوبر وأول نوفمبر 1954 [16].

يعتبر بيان أول نوفمبر في حد ذاته أهم وثيقة إعلامية صاغتها جبهة التحرير الوطني ، الذي اعتبر قفزة نوعية في الإعلام الثوري ، ساهم بقوة في دعم الشعب الجزائري لجبهة وجيش لتحرير الوطني منذ انطلاق الرصاصة الأولى ، كما كانت تلجا إلى استعمال المنشور قصد تعميم إحدى قراراتها الصادرة على الجماهير بحيث يوزع بواسطة المجاهدين في جميع نواحي القطر الجزائري ويكون توزيعه في وقت واحد، وقد شكلت مناشير الثورة أسلوبا إعلاميا للتأثير السياسي والمعنوي على الجماهير، إذ كانت تنطلق دائما في تحليلات وتعليقات مبدأ أن التفاف الجماهير حول الثورة هو الوسيلة الوحيدة للوصول إلى الاستقلال والحرية.

ب- الصحف : في شهر ماي وجوان 1955 بدأت جبهة التحرير الوطني التفكير في تأسيس صحافة تابعة لها ، وناطقة باسمها ، فزيادة على المناشير قررت إنشاء عدة صحف إحداها في فرنسا والثانية بتطوان في المغرب والثالثة بتونس، وسميت هذه الصحف باسم واحد هو "المقاومة الجزائرية "، وكانت تطبع باللغة الفرنسية والعربية، وأنشأت صحيفة رابعة تحمل اسم " المجاهد" في صيف 1956 ناطقة باللغتين العربية والفرنسية[17] .

لقد عرفت صحافة الثورة التي ظهرت في عام 1955 نوعا من اللامركزية بفعل الظروف الخاصة التي كان يجتازها الكفاح المسلح، ونظرا للتطور الذي عرفته الثورة الجزائرية بعد مؤتمر الصومام، وتقديرا من قيادة الثورة لأهمية الإعلام وحرصا منها على وحدة التوجيه قررت توحيد صحافة الثورة عام 1957، فأوقفت صحيفة المقاومة الجزائرية ، وجمعت العاملين بها في هيئة تحريرية واحدة في إطار جريدة **المجاهد** التي أصبحت لسان حال جبهة التحرير

الوطني ، التي كانت توزع على نطاق واسع داخل الجزائرّ، كما كانت توزع في الخارج ، وبدأت تنتشر بمدينة تطوان بالمغرب ثم في شهر نوفمبر 1957 نقلت إلى تونس بعد أن قررت قيادة الثورة اتخاذ مدينة تونس مركزا لها[18].

الصحافة الجزائرية النضالية والمناهضة للاستعمار لم تظهر إلا بعد عام من انطلاق الثورة، وذلك راجع للاضطهاد والقوانين التعسفية التي وضعتها سلطات الاحتلال الخاصة بالمتصرف أو المسؤول الشرعي عن الجريدة، حيث تتطلب منه أن يتمتع بجميع حقوقه المدنية وأن لا يكون محكوما عليه، وهذه الحقوق لا يتمتع بها الجزائريين طبعا، إلا أن هذا لم يمنع الثورة من استخدام وسيلة الإعلام المكتوب في مواجهة التضليل والتزييف التي مارسه الاستعمار الفرنسي وللتعريف بالثورة التحريرية ، وقد لعبت جريدة المجاهد في هذا المجال دورا هاما وكبيرا في إنجاح الثورة والتعريف بمواقف الثورة من الأحداث سواء في الجزائر أو في العالم العربي أو في بقية العالم، ونقل أفكار وأخبار الثورة إلى القاعدة المكافحة.

ج– الإذاعة: تعتبر سنة 1956 الانطلاقة الأولى لأجهزة الإعلام السمعية الناطقة باسم جبهة التحرير الوطني ،أنشئوا في هذه السنة أركانا إذاعية في معظم الأقطار العربية ، وكانت الإذاعة من الوسائل القوية والفعالة إبان الثورة، وفي ذلك الوقت تم توسيع البث الإذاعي في الجزائر لإيصال " صوت البلاد" إلى كل الجزائريين ، حيث أنشأت الإذاعة الجزائرية السرية في السادس عشر من ديسمبر 1956، أمرت قيادة اتصالات جيش التحرير بها، فرُكِّبت على ظهر شاحنة تتنقل على الحدود الجزائرية المغربية، متخفية من العدو الذي لم يتمكن من تحديد موقعها [19]، كانت هذه الإذاعة تبدأ برامجها بعبارة " هنا إذاعة الجزائر المكافحة " أو " صوت جبهة التحرير يخاطبكم من قلب الجزائر "، وكان يبث بالعربية والفرنسية والقبائلية. وتضمنت برامج الإذاعة البلاغات العسكرية والتعاليق السياسية والرد على الدعاية الاستعمارية وغيرها من البرامج ذات الطابع الدعائي والتعبوي [20]، للإعلام المسموع الدور الفاعل في الثورة عبر إذاعة الجزائر السرية داخل الوطن ،ثم فيما بعد صوت الجزائر كان يذاع يوميا من إذاعة تونس والمغرب الشقيقة، ووظفتها الثورة بقوة ودعمتها، وجعلت من محطات الإذاعات العربية الشقيقة صوتا لكلمة الجزائر، ومن عواصم العالم ميدانا للتعريف بقضية الجزائر العادلة وعملت على كسب التأييد والتضامن الدولي.

لقد كانت وسائل الإعلام تعكس نشاطات جيش التحرير الوطني لتكون سمعَ الرأي العام وبصره وصوته ولتزوّد الشعب بالأخبار الحقيقية فتكون صلة الوصل بينه وبين مجاهدي جيش التحرير الوطني ، ومنذ ذلك الحين، قامت وسائل الإعلام الثوري بدور فعال وأساسي في إبلاغ الرأي العام الدولي بحقيقة الثورة الجزائرية، وكذا أداة لتعبئة الرأي العام الداخلي وتوجيهه في التقاط المعلومات الحقيقية التي هو في حاجة ماسة إليها قصد تتبع مسار الثورة وجنود جيش التحري الوطني في عملياتهم المتواصلة ضد القوات الاستعمارية، وسرد مراحل المقاومة الباسلة التي يبديها الشعب الجزائري.

2- الإستراتيجية الإعلامية للثورة الجزائرية وأهدافها

تحددت أهداف إستراتيجية الثورة في السعي للحصول على أقوى ما يمكن من التأييد المادي والمعنوي والنفسي بتدويل القضية الجزائرية في المحافل الدولية فأسند ذلك إلى لجنة الخمسة المنبثقة عن اجتماع 22 وأسند أمر تنظيم الحملات الإعلامية والتظاهرات والإضرابات إلى التنظيمات النقابية والجماهيرية من أجل تكذيب الدعاية الفرنسية بوصف الثورة بالأعمال الإجرامية أمام الهيئات العالمية وعرض القضية الجزائرية على هيئة الأمم المتحدة، وكان ذلك جليا في برنامج مؤتمر الصومام عام 1956 الذي حدد من بين المسائل الأساسية في إستراتيجية الثورة مسالة الإعلام حيث عبرت وثيقة الصومام على أهمية الإعلام والدعاية وعلى طبيعة دورهما في الكفاح المسلح كضرورة لتكثيف النشاط الدعائي على الصعيد الدولي عن طريق إنشاء مكاتب وبعثات جبهة التحرير الوطني في الخارج [21].

لقد تم عن طريق الندوات التي يعقدها ممثلو الجبهة التي يتم نشرها عن طريق وكالات الأنباء الدولية ، بالإضافة إلى استخدام ممثلو الثورة في الخارج وسائل الإعلام في البلدان الشقيقة والصديقة تحقيق استراتيجيهم الإعلامية للتعريف بالثورة الجزائرية وبأهدافها وأبعادها الحقيقية، فقد نظمت الجبهة برامج إذاعية بعنوان "صوت الجزائر" باللغة العربية من الرباط وتطوان وطنجة بالمغرب الأقصى، وأيضا في تونس والقاهرة، علما أن إذاعتي القاهرة وتونس كانتا أولى الإذاعات العربية التي خصصت برامج محددة في فترات ثابتة لإذاعة أخبار الثورة الجزائرية، وقد ظلت هذه البرامج تذاع حتى بعد إنشاء الإذاعة السرية للثورة في قلب الجزائر سنة 1957، كما

كانت هناك إذاعات للدول الصديقة تُذيع أخبار الثورة الجزائرية بصفة متواصلة وبلغات متعددة، فان مساندة الدول العربية للثورة الجزائرية، لم تقتصر على الإذاعات فقط، بل تعدى دورها إلى وسائل إعلامية أخرى مثل الصحف والمجلات المكتوبة، فقد قامت صحيفة البعث الدمشقية بدورها في مساندة الثورة التحررية وتنوير الرأي العام، حيث كانت القاعدة الأساسية للإعلام العربي آنذاك هي أن الثورة الجزائرية من اكبر الثورات وأهمها ، فمعركة الجزائر ضد فرنسا ، بمقدار قوتها وتحريرها للشعب الجزائري ، تحرر العالم كله، والعالم العربي على وجه الخصوص[22].

أما على الصعيد الداخلي فقد كان الاهتمام منصبا على الدعاية والإعلام، وفي هذا الإطار تم ان إنشاء سلك المحافظين السياسيين إلى جانب مصالح الاستعلامات الأخرى، وقد قام هذا الجهاز بدور هام في التوعية والتعبئة والتفاف الجماهير حول ثورتها ، ومقاومة الحلول الجزئية والانهزامية التي كان العدو يروج لها ، وذلك بشرح أهداف الثورة وإطلاع الشعب على انتصارات وحدات جيش التحرير الوطني باستخدام الإعلام المكتوب والإعلام المسموع والمرئي ، لتكون مهمة المناضل ورجل الاستعلامات متكاملة في الثورة التحررية.

أعطت جبهة التحرير الوطني للإعلام أهمية بالغة ووظفته بوعي في خدمة المعركة والقضية الوطنية، وللتصدي لسياسة التعتيم التي اتبعتها الدوائر الاستعمارية في الجزائر التي لم تكن تسمح للإعلاميين من الاقتراب لمعرفة حقيقة ما يجري على أرضها، ونشر الحقائق والأحداث التي كانت تقوم بها الثورة التحريرية ، جعل لازما على الثورة الجزائرية أن تدخل مجال الإعلام ، وتكتسب هذا السلاح لخوض معاركها ضد العدو إلى جانب الأسلحة الأخرى، وعليه حددت أهداف الإعلام المقاوم الجزائري كالأتي [23]:

1 – ضرورة إيجاد التوازن بين متطلبات الرأي العام الوطني والدولي بعرضه للقضية الجزائرية بمختلف الوسائل والأساليب قصد إقناع الرأي العام الدولي بمصداقية هذه الثورة.

2– ضرورة الرد الفوري والمباشر على أجهزة الإعلام الغربية ولاسيما وكالات الأنباء المنحازة لوجهة النظر الاستعماري الفرنسي.

3- ضرورة الحرص الشديد على دقة البيانات والبلاغات المقدمة إلى وكالات الأنباء الأجنبية خشية تحريفها أو عدم فهمها للحفاظ على المبادئ الجوهرية للثورة.

4 – الاعتماد على وسائلها الخاصة، من ضمان حريتها في التعبير، وشرح سياساتها وتقديم برنامجها، وسرعة التحرك حسب مقتضيات المستجدات على الساحات العسكرية، والسياسية والدبلوماسية ، بنا يخدم أهدافها ويحقق بلوغ الاستقلال والحرية[24].

– الخاتمـــــة:

مع الاندلاع الثورة الجزائرية ازداد الاهتمام بالجانب الإعلامي بصفة عامة حيث كثرت في هذه الأثناء عدد المنشورات التي توزع من قبل أعضاء الحركة الوطنية، لكن الملاحظ في هذه المرحلة الجديدة من تاريخ الجزائر هو تمركز العمل الإعلامي والصحفي بصفة عامة بيد الحركة الوطنية (حركة جبهة التحرير الوطني) التي عمل رجالها على إنشاء جرائد ناطقة باسم الحزب، وإذاعات مسموعة، وذلك بالاعتماد على الكفاءات التي قامت على تكوينها، فقد كانت الحرب الإعلامية للمقاومة تأخذ مجراها بالتوازي مع الضربات في ميدان المعركة ، فقد أدركت الثورة الجزائرية منذ اليوم الأول لاندلاعها ، أهمية الإعلام ودوره في المعركة الوطنية ، والعمل على إنجاحها باستخدام الوسائل المختلفة لاكتساب الرأي العالمي ومساندة القضية الجزائرية في المحافل الدولية، وفي هذا المجال كان الإعلام العربي اكبر مساند للثورة الجزائرية لمواجهة الإعلام الفرنسي وحملته الدعائية لتشويه الثورة وحقيقة ما يحدث بالجزائر، فقد قدمت معظم البلدان العربية الدعم وبذلت مجهودات فعالة ساهمت في التعريف بالقضية الجزائرية، سواء كان من خلال قنواتها الإعلامية أو من خلال توفير التسهيلات اللازمة لمختلف وسائل إعلام جبهة التحرير الوطني التي فضلت نقل صحفها ونشاطها الإعلامي الجزائري إلى هذه الدول العربية، خاصة أن الوضع كان حرجا بسبب المحاولات الاستعمارية للقضاء على الثورة، مما دفع رواد الكفاح الجزائري للجوء إلى الخارج ضمن الموقف المؤيد لأهدافهم، فقد لجأت جبهة التحرير الوطني إلى ميدان الإعلام بالإمكانيات المتوفرة التي تتسم بالضعف وعدم التجربة للدفاع عن مبادئ الثورة وأهدافها، وفك الحصار الإعلامي الذي فرضته الدولة المستعمرة، والدعاية التي

يمارسها من أجل التغطية عن الجرائم التي يقترفها في حق الشعب الجزائري، ولكن رغم القمع والتعذيب الذي سلطه المحتل على كل من وقف إلى جانب الثورة الجزائرية برأيه،إلا أن الثورة الجزائرية بقيت صامدة وعازمة، لان ما كان يقترفه المحتل من جرائم في حق أصحاب الأقلام النظيفة، زاد للثورة الجزائرية عزيمة ودعما وتعاطفا وتضامنا لدى الرأي العام عامة والمثقفين على وجه الخصوص.

– الهوامش:

[1] فهد أحمد الشعلان: إدارة الأزمات: الأسس – المراحل – الآليات، الرياض: أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية، 2002،ص26.

[2] منال ابو الحسن: علم الاجتماع الاعلامي .. النظريات والوظائف والتأثيرات ، القاهرة–مصر: دار النشر للجامعات، 2007 ، ص 46.

[3] محمد عاطف غيث: قاموس علم الاجتماع ، مصر– الاسكندرية: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1979 ، ص 432.

[4] السيد بهنى: الإعلام وإدارة الأزمات الدولية ، القاهرة : عالم الكتب، 2010، ص 24.

[5] انظر صدى الجزائر، عددها الصادر بتاريخ 05 نوفمبر 1954.

[6] انظر صدى الجزائر، العدد الصادر بتاريخ 09 افريل 1955، والعدد الصادر بتاريخ 08 نوفمبر 1954.

[7] احمد حمدي: الخطاب الاعلامي العربي .. افاق وتحديات، الجزائر : دار هومة ، 2002 ، ص ص 247-258.

[8] محمد العربي الزبيري: تاريخ الجزائر المعاصر (1954-1962)، دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب، الجزء الثاني، *1999* ،ص ص 20-28.

[9] الصراع الثقافي بين الاستعمار والثورة الجزائرية من خلال مجلة الفكر التونسية: http://elrayen.rigala.net ، 28 أكتوبر 2010.

[10] الغالي غربي : اندلاع ثورة أول نوفمبر من خلال الصحافة الفرنسية ،الجزائر: الملتقى الوطني الأول حول الإعلام والإعلام المضادــ منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وأول نوفمبر 1954، 2005، ص ص 221- 227.

[11] الغالي غربي: مرجع سبق ذكره ، ص ص224-230.

[12] الورتيلاني الفضيل: الجزائر الثائرة ، الجزائر: دار الهدى للطباعة والنشر والوزيع، 1992، ص 80.

[13] محمد ختاوي: إعلام الثورة الجزائرية ، الحرب الأخرى للمقاومة ، http://www.alnoor.se ، 24 اكتوبر 2008.

[14] العياضي نصر الدين : الخطاب الصحفي الاستعماري في ظروف الازمة ، الجزائر : مجلة علوم الاعلام والاتصال ، العدد 3 ، 1989، ص 10.

[15]احمد حمدي: الثورة الجزائرية والإعلام.. دراسة في الإعلام الثوري ، الجزائر : وزارة الثقافة والإعلام ، 2007، ص ص 07-08.

[16] حسن بومالي: إستراتيجية الثورة الجزائرية في التجنيد والتعبئة الجماهيرية منذ اندلاع الثورة الى غاية مؤتمر الصومام، الجزائر: الملتقى الوطني الأول حول الإعلام والإعلام المضادــ منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وأول نوفمبر 1954 ، 2005 ، ص49.

[17]عزي عبد الرحمن ومجموعة من الأساتذة: عالم الاتصال، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1990، ص 118.

[18] تيسير ابوعرجة: دراسات في الصحافة والإعلام، عمان: دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، 2000، ص 255.

[19] نشأة الإذاعة الجزائرية، http://aljazairi.ahlamontada.net، 6 فبراير 2009.

[20] إذاعة صوت الجزائر تاريخ الجزائر1962 - 1830 : المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، http://www.1novembre54.com

[21] محمد الشريف عباس: واقع الإعلام الوطني اثناء الثورة التحررية، الجزائر: الملتقى الوطني الأول حول الإعلام والإعلام المضاد_ منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وأول نوفمبر 1954 ، 2005، ص 22.

[22] محمد الشريف سيدي موسى: الثورة الجزائرية في وسائل إعلام العالم الثالث والكتلة الشرقية،الجزائر: منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وأول نوفمبر، 1988، ص ص 307-308.

[23]أبو خليل التميمي: الحرب الإعلامية (إعلام الثورة الجزائرية)، العراق: مجلة المحرر، العدد 18، السنة التاسعة، 2009، www.al-moharer.net.

[24] السعيد عبادو: الإعلام ودوره في ثورة نوفمبر 54 ، الجزائر: الملتقى الوطني الأول حول الإعلام والإعلام المضاد_ منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وأول نوفمبر 1954 ، 2005 ، ص 14.

ظروف وأسباب تكوين الحركة الوطنية الجزائرية

د/ أحمد لشهب
جامعة الجزائر 1

– مقدمة:

ظهرت الحركة الوطنية الجزائرية في شكلها الحديث، كنتيجة لجدلية التفاعل بين السياسات الاستعمارية التي طبقتها فرنسا على المجتمع الجزائري منذ بداية الاحتلال سنة 1830.[1] فقد أدت السياسات الاستعمارية التي انتهجتها فرنسا في الجزائر منذ 1830 إلى إدخال تغييرات كمية، وتغييرات كيفية على المجتمع الجزائري،[2] هذه التغييرات أدت إلى تحول في البنى السياسية وفي الفاعلين السياسيين، وفي العلاقات السياسة داخل المجتمع الجزائري، تمثلت في القوى السياسية الجديدة التي أصبحت تربطها علاقات سياسية جديدة تقوم على الصراع أساسه شعب مغلوب يناضل في سبيل استرجاع حقوقه المقدسة التي قضى عليها نظام استعماري، وقوى استيطانية واستعمارية فرضت سيطرتها بالقوة على هذا الشعب وأصبحت لها مصالح حيوية لا تسمح المساس بها، ولا تسمح حتى بمجرد تهديدها.

فالسياسة الاستعمارية التي اتبعتها فرنسا لإدماج وتذويب المجتمع الجزائري في المجتمع الفرنسي أدت إلى خلق ما يمكن تسميته بنظام سياسي جديد في الجزائر، وهذا النظام السياسي الجديد يعمل من خلال العلاقة بين ثلاثة متناقضات (الكولون كقوة سياسية واقتصادية، وعسكرية لها مصالح خاصة). الحكومة الاستعمارية الفرنسية في باريس ولها مصالح ومواقف تختلف وتتناقض مع مصالح الكولون، وبداية ظهور ما يمكن تسميته بنخبة سياسية جزائرية غير متجانسة فكريا وسياسيا وتشترك رغم ذلك في وضع واحد من حيث نظرة الاستعمار والكولون لها وفي هدفها وهو الدفاع ضد الحالة المأساوية والبائسة التي أصبح يعيشها أغلبية الشعب الجزائري الناتجة عن السياسة الاستعمارية المطبقة في الجزائر منذ الاحتلال سنة 1830.

وعليه، فإن هذه المقالة سوف تبحث في الأسباب و الظروف السياسية التي أدت إلى تكوين تيارات الحركة الوطنية الجزائية بعد الحرب العالمية الأولى من خلال محاولة الإجابة عن الإشكالية التالية:

ما هي طبيعة ومحتوى السياسة التي انتهجتها الإدارة الفرنسية في استعمار المجتمع الجزائري منذ بداية الاحتلال سنة 1830 ؟ وما آثار هذه السياسة على المجتمع الجزائري في علاقته بالاستعمار؟ و ماهي طبيعة هذه العلاقات السياسية الجديدة التي أصبحت تسود المجتمع الجزائري بعد الحرب العالمية الأولى بعد ظهور التيارات السياسية التي تتكون منها الحركة الوطنية الجزائرية ؟

1- دور السياسات الاستعمارية الفرنسية في تغيير النظام السياسي الجزائري وإقامة نظام جديد محله:

معظم الكتاب والباحثين الذين ساهموا بكتابات عديدة حول تاريخ الجزائر المعاصر، وخاصة تلك الفترة المظلمة التي ابتدأت مع بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة 1830 لم يتناولوا هذا الجانب الهام من تاريخ المجتمع الجزائري، ومن تناولوه منهم يعتقدون أو يحكمون على زوال الدولة الجزائرية بزوال مؤسساتها السياسية مع بداية أو خلال الحقبة الاستعمارية. غير أننا في هذه المقالة قد نذهب عكس هؤلاء جميعا، ونطبق مقتربا جديدا وهو : السياسات الاستعمارية التي اعتمدت كمنهج استعماري لخلق نظام سياسي جديد في الجزائر يكون بمثابة همزة وصل بين المجتمع الفرنسي والمجتمع الجزائري يتولى صهره ودمجه في المجتمع الفرنسي سياسة واقتصادا ولغة ودينا.

هذا النظام السياسي الجديد ظهر على إثر تطبيق هذه السياسات الاستعمارية التي أدت تدريجيا إلى تهديم البنية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي كانت تزود النظام السياسي القديم بالموارد السياسية اللازمة[3].وسوف نعرض سلسلة القوانين التي كانت بمثابة الوسائل التي نفذت هذه السياسة فيما يلي :

في المجال الإداري والتنظيمي:

الإدارة هي التي تجسد ماديا و وظيفيا النظام السياسي، وهي التي تقوم برسم ووضع السياسات والقوانين والقرارات، وهي التي تتولى تنفيذها. لذلك كانت تحظى بالأولوية في السياسة الاستعمارية بعد عمليات الاحتلال العسكري التي يقوم بها الجيش الفرنسي في الجزائر. وعليه، فقد كان تركيز الجيش المحتل في الجزائر بعد كل عمل احتلالي يقوم به هو تهديم وإلغاء البنيات الإدارية الجزائرية وإحلال محلها بنيات إدارية استعمارية كأدوات لمواصلة تحقيق أهداف الاحتلال المتمثلة في الاستيطان وإلحاق ودمج الجزائـــــر في فرنسا[4].

فقد ترجمت هذه السياسة بصدور مرسوم 22 جويلية 1834 الذي نظم ممتلكات فرنسا في إفريقيا الشمالية. و وضع الهياكل الإدارية التي تربط الجزائر بفرنسا، وتشرف على إدارة ثروات البلاد بما يخدم أهدافها الاستعمارية. كما تضمن إنشاء هيئة إدارية عليا في الجزائر يمثلها الحاكم العام الذي أصبح يشرف على إدارة ممتلكاتها في الجزائر، على اثر توقيع معاهدة الاستسلام بين الداي حسين ودوبرمون في 05 جويلية 1830. ثم صدر مرسوم 8 سبتمبر 1830 قضى بجعل كل ممتلكات الداي والبايات والعلماء ورجال الفتوى تابعة للدولة الفرنسية[5].

وفي 4 مارس 1848 صدر مرسوم تم بمقتضاه الحاق الجزائر بفرنسا عن طريق جعلها جزءا لا يتجزأ من فرنسا، وهذا ما نص عليه الدستور الفرنسي الصادر في نفس السنة في مادته 109، ونفس الشيء في الدستور المعدل سنة 1852.

إن تقنين الاحتلال الفرنسي للجزائر بالنص عليه في أعلى قوانينه، يبين مدى عزم الحكومة الفرنسية على جعل الجزائر مقاطعة فرنسية رغم إرادة الشعب الجزائري الرافضة للاحتلال.

وفي 3 ماي سنة 1848 تم تأسيس مجلس جزائري مكون من أوروبيين منتخبين يقوم باتخاذ القرارات في المسائل السياسية والمالية التي تتعلق بالجزائر[6].

وفي سنة 1860 أصدر الحاكم العام مرسوما انشأ بمقتضاه مجلسا أعلى للحكومة يرأسه حاكم عام ويتكون من 53 عضو منهم 31 منتخب و 22 عضو معين بقوة القانون.

من خلال النصوص القانونية السالفة الذكر تظهر إرادة الاستعمار الفرنسي في إدخال تغيير جدري على البنية الإدارية للمجتمع المحلي عن طريق خلق هياكل إدارية مركزية تتمثل في المجلس الأعلى للحكومة، والحاكم العام وهي هيئة تتمتع بسلطات واسعة في إدارة المجتمع الجزائري باستخدام وسائل القمع والإبادة.

إن هذا الجهاز الإداري الذي يسيطر عليه الكولون، هو بمثابة الأداة المكملة لجيش الاحتلالي في إبادة ما تبقى من الأهالي عن طريق عمليات التقتيل الجماعي بانتهاج السياسة المالية، والضريبية، والقوانين الزجرية الاستثنائية التي تضمنها ما يسمى بقانون الاندنجينا المشهور. لأن الاستعمار الفرنسي قد استخدم كل الأساليب والوسائل من أجل إبادة الشعب الجزائري واستغلال ثرواته[7].

إن فرنسا انتهجت من أجل ذلك منهجا احتلاليا استيطانيا يقوم على الجمع بين العمل العسكري والعمل السياسي والاقتصادي [8] والثقافي.

أما فيما يتعلق بالإدارة المحلية فقد لجأت السلطات الاستعمارية إلى إدخال تغير جذري على الهياكل الإدارية الأهلية عن طريق تقسيم الجزائر إلى 3 مقاطعات إدارية وإلى ثلاثة أنواع من الإدارة البلدية، لأنه صدر بتاريخ 15 أفريل 1845 مرسوما قضى بتنظيم الإدارة البلدية على أساس استعماري فأنشأ ثلاثة أنواع من الأقاليم :

1-أقاليم مدنية وتشرف عليها بلديات مدنية.
2-أقاليم مختلطة وهي التي توجد بها أقلية أوروبية وتشرف عليها بلديات مختلطة.
3-أقاليم عربية وتشرف عليها إدارات عسكرية[9].

إن السلطات الإدارية الاستيطانية قد اعتمدت على سياسة الإقصاء والتهميش اتجاه العنصر الجزائري في سياستها الإدارية، هذه السياسة أدت إلى بناء إدارة كلونيالية ذات أهداف كلونيالية وبوسائل كلونيالية، الشيء الذي جعلها سيفا وسلاحا ضد الجزائريين وليس في خدمتهم رغم أنها قد اعتمدت على فئة من العملاء الذين وظفوا في خدمة السياسة الاستعمارية[10].

وهكذا نستنتج بأن الإدارة الكلونيالية في الجزائر كانت مستوحاة من فلسفة استعمارية تريد فرنسة الجزائر في كل الميادين. ذلك أنها اعتمدت على العنصر الأوروبي في تأطيرها وفي تسييرها، وهذا ما أدى إلى زيادة في وسائل القمع والاضطهاد ضد الأهالي.

غير أنه بالرغم من هذا الجهاز البيروقراطي والعسكري، ومن الترسانة الكبيرة من النصوص والإجراءات الإدارية والقانونية التي وضعتها هذه الأجهزة في سبيل إبادة ونهب ثروات الجزائر، إلا أنها لم تنل شيئا من الضمير الوطني والروح النضالية التي يملكها الشعب الجزائري و لم تستطيع أن توقف أو تحول مجرى التاريخ.

في المجال الاقتصادي والاجتماعي والثقافي :

وجدت فرنسا صعوبة كبيرة في إدماج المجتمع الجزائري في المجتمع الفرنسي، بسبب تماسك بنياته الاقتصادية والاجتماعية والثقافية القائمة على الدين واللغة والأرض وروح المقاومة ضد الاحتلال وعندما اكتشفت علاقة هذه المتغيرات بالمقاومات الشعبية التي قام بها الجزائريون ضد سياسة الاحتلال لجأت فرنسا إلى انتهاج سياسة استيطانية وزراعية تهدف الى تحويل

المجتمع الجزائري في الاتجاه الذي يضمن لها القضاء على مقاومة الجزائريين من أساسها وتضمن لها إدماج المجتمع الجزائري بفرنسا، ويتحقق لها سهولة استغلال ثرواته المادية والبشرية و موقعه الجيواستراتيجي في خدمة أهداف النظام الاستعماري الرأسمالي[11].

– ففي المجال الاقتصادي قامت إدارة الاحتلال بانتهاج سياسة تفقير واسعة النطاق لأنها لم تكتفي بإبادة الشعب عن طريق السلاح، بل اعتمدت على الاقتصاد كسلاح استراتيجي للإبادة ولإخضاع من بقي على قيد الحياة.

وقد ترجمت هذه السياسة الاقتصادية في عدة نصوص قانونية كانت بدايتها سنة 1844 عندما صدر مرسوم حول الملكية العقارية الذي جعلها تخضع للقانون الفرنسي، كما وضعت الدولة الفرنسية يدها على كل ممتلكات الدولة الجزائرية، ثم صدر سنة 1851 قانون الحق الجزائر تجاريا بفرنسا كما جعل الغابات والمياه ملكا لها، ثم صدر قانون (السناتوس كونسلت) 1863، ثم قانون 1865 ثم قرارات سنة 1871 التي منحت بمقتضاها أكثر من 100 ألف هكتار للأوروبيين الوافدين على الجزائر من الألزاس واللورين[12].

ثم صدور قانون (وارني) الشهير سنة 1873 الذي كرّس هذه السياسة الاقتصادية الاستعمارية بفرنسة للأراضي الجزائرية وسهل عمليات تحويل الملكية[13], هذه النصوص القانونية المختارة من بين العديد من القوانين التي صدرت بهدف ضرب الأساس الاقتصادي للمجتمع الجزائري وإخضاع شعبه لسياسة كولونيالية وفاشية.

كانت لها تأثير سلبي على التوازن الاقتصادي للمجتمع، وعلى مستوى معيشة سكانه بل حتى على دور الشعب ثقافيا وسياسيا.

فكان من نتائجها، أنه كلما تقدمت التنمية الكولونيانية كلما زاد ذلك في إفقار وبؤس الشعب الجزائري خاصة في الأرياف، حيث أفاد التقدم الاقتصادي بصورة حصرية شرائح السكان الأكثر يسرا، لا سيما المعمرين، وانعدام التكافؤ الواضح بين السكان الأصليين والأهالي[14] هذا اللا تكافؤ في التوزيع تبينه تلك الازدواجية التي أصبح يقوم عليها الاقتصاد الجزائري الذي أصبح يتكون من قطاعين أساسيين: قطاع رأسمالي متطوّر يسيطر عليه الكولون وعملاءهم من الإقطاعية الجزائرية[15] وقطاع تقليدي متخلف يقوم على الإنتاج العائلي ويعيش فيه الأغلبية الساحقة من المجتمع وهم الأهالي[16].

ومن جراء هذه السياسة استولت فرنسا على أكثر من 2.706.130 هكتار من أخصب الأراضي الزراعية ومنحتها أو سهلت نقلها إلى الكولون (قانون وارني 1873) [17] وهذه السياسة كانت السبب الأساسي في تعاظم دور طبقة الكولون شيئا فشيا وبدون انقطاع خاصة منذ سنة 1883 التي بدأت معها سياسة الالحاق "Attachement" التي أعطت عدة امتيازات لهم بصفتهم مواطنين ينتمون للديمقراطية الأوروبية، بينما بقي الأهالي يخضعون لنظام الادارة الاستعمارية "قانون الانديجينا"[18].

يمكن ربط هذه السياسة الاقتصادية الكولونيالية بالظروف السياسية التي ساهمت في تكوين وظهور الحركة الوطنية بعد الحرب العالمية الأولى 1919، بالقول أن انهزام الفلاحين والريفيين الأهالي وإخضاعهم لابتزازات قطاع جديد من أصل اوروبي كونه الاستعمار عندما بدأ يتراجع عن سياسة الابادة الجماعية عن طريق السلاح، وسمح بظهور طبقة جديدة من الأهالي هم الإقطاعيين العملاء الذين تحالفوا مع الاحتلال، وتركوا الفلاحين في الريف يناضلون وحدهم ضد اغتصاب الكولون لأراضيهم، هذه الفئة من الجزائريين رغـــم استفادتها من هذه السياسة الاقتصادية، إلا أنها أصبحت تواجه صعوبات سياسية وثقافية تتعلق باندماجها في المجتمع الفرنسي خاصة قانون الانديجينا، وقوانين الانتخابات، الشيء الذي فرض عليها اللجوء إلى الانشغال بمشاكلها الخاصة كالمساواة، والاندماج والتجنيد، وإصلاحات أخرى.

فكونت ما يمكن تسميته "بالوطنية المدينية" المنشغلة بمصالحها، وغير المبالية بمصالح الريفيين والفقراء "الذين يشكلون الوطنية الريفية" التي قاومت الاستعمار لوحدها في الفترة ما بين (1830-1910) واستمرت تناضل ولو بقيت تحت تأثير السياسات الاستعمارية خاصة الاقتصادية التي أفقرتها.

أما السياسة الاستعمارية في المجالين الثقافي والاجتماعي فقد وظفت بدورها لخدمة نفس الأهداف التي وظفت من أجلها السياسة السابقة وهي التفكيك المنظم للمجتمع الجزائري بواسطة تغيير تركيبته الديموغرافية، والطبقية، والاجتماعية، فاعتمدت على تحطيم النخب القائمة، وإزاحة الزعامات الدينية التقليدية، وإزالة كل الرموز التي تعبر عن سيادة هذا الشعب[19] وانتماءه، وحضارته وثقافته.

وقد كانت السياسة الاستعمارية في المجال الثقافي والديني تهدف إلى خدمة الأهداف الصليبية، لأن الاستعمار الفرنسي كان له طابع صليبي لكون البابوية باركت هذا العمل

العدائي ضد مسلمي الجزائر ومعتقداتهم وأماكن عبادتهم، حيث اعتبرت أن كل من يستشهد في سبيل ذلك هو من شهداء الكنيسة[20].و قامت بتحويل مئات المساجد إلى كنائس، وأصدرت قرارات بتحويل مسجد على مشيني والغزلان بقسنطينة إلى كنائس سنة 1843، كما اصبحت تشرف على إدارة المساجد مند سنة 1851، وجعلت الجزائري مسلما فرنسيا مند 1864، ثم إصدرت قانون الحالة المدنية للجزائريين سنة 1883. وقد رافق هذه الإجراءات القانونية الهادفة إلى منع الأهالي من ممارسة معتقدهم الديني عن طريق غلق المساجد وإبعاد علماء الدين ومنع التعليم الديني على المسلمين.

إن سياسة إشراف الإدارة الكولونيالية على المساجد وتعيين أئمتها من العملاء بالإضافة على سياسة التجنيس المتبعة كما فتحت الأبواب لاستخدام رجال الدين المسيحيين الذين قاموا بعمليات تمسيح واسعة في الجزائر باستغلال الوضع المأساوي الذي أصبح يعيشه الأهالي جرّاء السياسة الاقتصادية والإدارية التي اتبعتها فرنسا إلى جانب السياسة الثقافية والاجتماعية.

أما المحور الثقافي لهذه السياسة فقد كان مركزا على تحطيم وإزالة كل وسيلة أو رمز ثقافي يعبر عن هوية وانتماء الشعب الجزائري فكان تركيزها منصبا على التعليم وعلى لغة التعليم[21].

عمدت السلطات الفرنسية في الجزائر إلى العمل على قتل الروح الوطنية عن طريق مقاومة اللغة والدين والعادات والتقاليد، وفتحت المدارس الفرنسية العربية وجعلتها من حق أبناء الكولون ومن حق فئة تعد على أصابع اليد من أبناء الجزائريين الذين أثبتوا عمالتهم للاستعمار.

وفي هذا المجال، أصدرت السلطات الاستعمارية قرارا سنة 1850، تضمن فتح مدارس فرنسية إسلامية في كل من : الجزائر، وهران، قسنطينة، تلمسان، بلعباس والبليدة، ثم قرار ثاني سنة 1887، نظم تعليم الأهالي الذين رفضوا تسجيل أبناءهم بها وفضلوا تعليمهم في المدارس العربية. ثم صدر سنة 1892 مرسوم آخر قضي بتنظيم التعليم الأهلي حيث جعلته إجباريا للذكور في بعض المدن[22].

ففرنسا الاستعمارية حاولت طمس الشخصية الجزائرية بوسائل عديدة ومتكاملة للعمل على محاربة الدين الإسلامي من خلال اعتقال ونفي وقتل الدين رفضوا التعامل معها، وجعلت أماكن العبادة تابعة لها وعينت عليها رجال الدين الذين وضعوا أنفسهم في خدمتها، وأنشأت

أو شجعت على إقامة زوايا دينية تعمل على إدخال الخرافات والعادات غير الإسلامية إلى الممارسة الدينية كالطرقية، والعمل على منع تعليم اللغة العربية للأهالي، ومنعهم حتى من حق التعليم ذاته، فغلقت المدارس العربية وفرضت عقوبات السجن أو الإعدام على كل من لجأ إلى إنشاء مدرسة أو قام بتقديم التعليم للأهالي في المساجد دون ترخيص من فرنسا، هذه السياسة القاسية كانت مفروضة على التعليم العربي الحر الذي لعب دورا كبيرا في الحفاظ على الروح الوطنية الجزائرية[23].

– أما على المستوى الاجتماعي فإن هذه السياسة كانت غير مباشرة إلا من خلال بعض النصوص القانونية التي أصدرتها الإدارة الكولونيالية في الجزائر، كقانون الحالة المدنية الصادر سنة 1883 الذي كان يهدف إلى فرنسة الأسماء والألقاب والى تهديم اهم البنيات الاجتماعية كالعائلات و العشائر والدواوير[24].

– أما الخدمات الصحية فكانت منعدمة تماما بالنسبة للمناطق التي يسكنها الأهالي على الرغم من وجودها في البلديات المدنية أو المختلطة التي يقيم بها الكولون.

ويمكن القول، بأن السياسة الاقتصادية التي اعتمدت من طرف الإدارة الاستعمارية قد أثرت على البنية الاجتماعية وعلى العلاقات الاجتماعية الأخرى وذلك بظهور عدة فئات اجتماعية جديدة في المجتمع كالعمال المأجورين، والخماسين والمتسولين والنازحين والمدنيين والريفيين.

وبظهور العمل المأجور كأهم وسيلة لعيش أغلبية الأهالي الذين سخرهم إدارة الكولون كأيدي عمل رخيصة في المزارع والمصانع وعمل النظافة والحراسة وغيرها. كما أن وجود أيدي عاملة أوروبية قد أدى إلى صدور عدة قوانين لتنظيم علاقات العمل الفردية والجماعية، منها قانون صدر 1894 حول العمل النقابي وحريته، لكن تطبيقه كان فقط لصالح العمال الأوروبيين في الجزائر، وقد أدى تطبيق هذا القانون إلى بداية ظهور النقابات كتنظيم اجتماعي ومهني جديد في الجزائر[25]. ففي ظرف 30 سنة مضت على منح حرية العمل النقابي في الجزائر، بلغ عدد الفروع النقابية سنة 1921 أكثر من 344 نقابة[26].

وأدى ظهور النقابات إلى بداية النزاعات الاجتماعية في العمل، بحيث أصبحت هذه النقابات تستعمل الإضراب في الدفاع عن مصالحها، و لجأ عمال ميناء وهران إلى تنظيم إضراب سنة 1900. وفي سنة 1910 نظم إضراب في ميناء عنابة وتلتها سلسة متواصلة من الإضرابات التي استعملها الجزائريون كطريقة وأسلوب سياسي جديد في مقاومتهم السياسية

وخاصة بعد التجربة التي اكتسبوها في النقابات الأوروبية، ثم داخل الأحزاب السياسية التي أصبحت لها فروع في الجزائر منذ سنة 1920 كالحزب الشيوعي الفرنسي.[27] هذا التحول الجديد تمثل في استخدام الوسائل الديمقراطية الجديدة كالنقابات، الجمعيات، الأحزاب السياسية، الانتخابات، الإضراب المسيرات والتجمع التي استفاد الأهالي منها عن طريق توظيفها كأسلوب وكأداة عمل جديدة في سبيل الدفاع عن المسألة الوطنية.[28] أما على المستوى المجتمعي فقد أدت السياسة الكولونيالية إلى تكوين مجتمعين متناقضين تماما:

- مجتمع مديني وهو يظهر كجزء لا يتجزأ من المجتمع الفرنسي، وتسكنه فئة الكولون، وفئة قليلة من الأهالي الإقطاعيين والعملاء من النواب. هذا المجتمع يقوم على المدينة كوحدة اجتماعية وسياسية أنشأها الاستعمار بعد أن أباد أو طرد سكانها من الأهالي (وهران، الجزائر وقسنطينة)
- مجتمع ريفي إسلامي تطور تحت الضغط الديمغرافي، وعليه فقد بقي منغلقا ومهمشا سياسيا وثقافيا واقتصاديا.

وبتكامل السياسات الاقتصادية الإدارية الثقافية والاجتماعية التي انتهجتها السلطات الاستعمارية في الجزائر، وهي تهدف جميعا لتذويب المجتمع بجميع أبعاده الثقافية، السياسية، الاقتصادية والروحية وذلك خدمة لأهدافها الاستعمارية.[29]

فالسياسة الاستعمارية التي كانت بمثابة نقيض أساسي للمجتمع الجزائري، لأنها وضعت أساسا من أجل إلغاءه من الوجود وتذويبه في المجتمع الفرنسي. و قد أدى تطبيقها إلى ظهور نقيض لها، هذا النقيض الجديد كان وليد الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي نتجت عن تطبيق هذه السياسات السابقة الذكر. وقد تمثل نقيض السياسة الاستيطانية في ظهور مجتمعين متناقضين ومتصارعين ثقافيا، اقتصاديا، اجتماعيا وسياسيا هما:

1- مجتمع سياسي يعتمد أساسا على الكولون كقوة اجتماعية واقتصادية واستعمارية جديدة في الجزائر، هذا المجتمع الذي استفاد من دعم وتعاطف الإدارة الفرنسية في احتكار كل الموارد السياسية في المجتمع بدءا بالموارد الاقتصادية والعلمية والعسكرية والتخصص والنفوذ حتى الانتخابات المزورة. وأصبح يعمل على استقلاله تدريجيا عن فرنسا ذاتها[30] ويعارض كل ما من شأنه أن يؤدي إلى تحسين ولو شكلي في ظروف الأهالي.

2- مجتمع أهلي يتكون من الجزائريين باختلاف أوضاعهم ومكانتهم في المجتمع، وهو مجتمع مهمش ولا يتمتع بأي حقوق، جراء تطبيق عليه القوانين الاستثنائية كقانون الانديجينا والتجنيد الإجباري، والضرائب[31]. وهو ما جعله رغم تهميشه وانغلاقه على ذاته نتيجة القمع المفروض عليه يحافظ على ضميره وروحه الوطنية الرافضة للاستعمار وساهم في تكوين رموز خاصة به وأطر تنظيمية للتعبير عن نفسه وعن رفضه لهذه السياسات وللكولون معا.[32]

وقد أدى تطوره نتيجة عوامل كثيرة إلى أن أصبح يكون النقيض الرئيسي الذي ألغى الاستعمار والسياسات الاستعمارية والكولون معا وهذا تم بعد ظهور الحركة الوطنية الجزائرية ثم حرب التحرير سنة 1954.

هذه السياسة النقيضة التي عمل الاستعمار الفرنسي على انتهاجها منذ دخوله الجزائر[33]، أدت إلى نقائض مزدوجة تمثلت في ظهور مجتمعين بسياستين متناقضتين مع بعضهما البعض، ومتناقضة كليا أو جزئيا مع السياسة الاستعمارية. وهذا التناقض بين المجتمعين النقيضين للسياسة الكولونيالية من جهة، ومتناقضين بين بعضها البعض ظهر بسبب اختلافهما في الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية، الشيء الذي انعكس على نوعية مصالح وأهداف كلتا المجتمعين، الكولون من جهة والأهالي من جهة أخرى.

فصارت مصالح ومطالب متناقضة ومتصارعة وهو ما جعل من الصعب جدا على فرنسا وإدارتها التقريب بين هذه المصالح وتسييرها، لأن الكولون يشكلون قوة سياسية واجتماعية واقتصادية ذات مصالح متناقضة مع المجتمع الأهلي ومع الإدارة الفرنسية الاستعمارية، هذين المجتمعين هما: مجتمع الكولون الذي يمكن تسميته بالمجتمع السياسي، الذي مكنته فرنسا من الاستيلاء على جميع الموارد السياسية واحتكارها، وهذا ما فتح له المجال واسعا لحكم المجتمع الأهلي بالقوة والقمع ومنعه حتى من التعبير عن ذاته، ومجتمع الأهالي الذي يعيش في الهامش، ويخضع للمجتمع السياسي "الكولون" عن طريق القوانين الزجرية التي وضعها النظام الاستعماري الفرنسي[34]. ومثلما كان يوجد تناقض ولو ظاهري بين الكولون وفرنسا. ظهر تناقض آخر داخل المجتمع الأهلي بسبب السياسات الاستعمارية المطبقة عليه.

لأن السياسات التي انتهجتها فرنسا في الجزائر قد أدت إلى تقسيم المجتمع الأهلي إلى عدة فئات وطبقات اجتماعية لكي تسهل عملية التحكم فيها والسيطرة عليها، ذلك ما أدى إلى جعل الحركة الوطنية الجزائرية تنشأ مقسمة ومشتتة ومتناقضة في مصالحها وفي مواقفها من

الاستعمار الفرنسي وحتى من الكولون مما جعلها تتأخر في تحقيق اهدافها. وسوف نتناول بالبحث والتحليل هذين المجتمعين النقيضين وهذين القوتين السياسيتين فيما يلي:

2- ظهور طبقة جديدة تتحكم في المجتمع الجزائري (الكولون):

إن سياسة الاحتلال العسكري التي اعتمدتها فرنسا لاستعمار الجزائر منذ 1830 إلى جانب سياسة الاستيطان المدني أديا إلى تكوين وتطور فئة اجتماعية جديدة في المجتمع الجزائري. كانت هذه الفئة بمثابة النواة الأولى للجزائر الفرنسية،[35] كما تترجم عملية التطور السريع الذي تكونت من خلاله هذه الفئة الاجتماعية الجديدة في المجتمع الجزائري تصميم الاستعمار الفرنسي على جعل الجزائر فرنسية بتكوينها السكاني وبثقافتها واقتصادها ولغتها ودينها وإدارتها.

اخذت الإدارة العسكرية الاحتلالية منذ 1830 بيدها تسيير شؤون الأوروبيين المدنيين وساعدتهم على الاستيطان المنظم، فملكتهم الأراضي وأعانتهم ماليا وساعدتهم ماديا، ووضعت السياسات والقوانين التي تحميهم وتشجع على استقرارهم بالجزائر، هذا ما أدى إلى تزايد عددهم من سنة إلى أخرى، ففي سنة 1882 كان عددهم يقدر بـــ 25 ألف، لينتقل سنة 1846 إلى 110 ألاف أوربي، وقفز هذا العدد إلى 200 ألف معمر سنة 1866، ثم إلى 344 ألف سنة 1876، وفي سنة 1911 أصبح عددهم 752 ألف، لينتقل إلى أكثر من مليون سنة 1960[36].

هذه الطبقة الجديدة نشأت وتطورت بفضل عملية التغيير الاستعماري، التي لم تكن تهدف إلى دمج المجتمع الجزائري فقط، بل كانت تهدف إلى إذابته في المجتمع الفرنسي، عن طريق تكوين بنية ديموغرافية أوروبية وسيطة بين البنية الديموغرافية الفرنسية والبنية الإسلامية، وعملت على وضع منظومة قانونية تهدف إلى دعم "جمهورية الكولون" [37] على حساب الأهالي، وهذا عن طريق تدعيم وتوسيع حقوق الأوروبيين وتقليص حقوق الأهالي، عن طريق إنشاء قانون الانديجينا الذي استمر العمل به حتى سنة 1947.

وبعد ظهور ما يمكن تسميته "بجمهورية الكولون" في الجزائر، تغيرت موازين القوة وتغيرت طبيعة العلاقة بين المجتمع الأهلي والإدارة الفرنسية، لأن فرنسا عبر سياساتها المدعمة لإقامة هذا الكيان الجديد "الكولون" لتعتمد عليه في تقوية علاقة التبعية والارتباط بين الجزائر وفرنسا وذلك على حساب الأهالي, أصبحت تتصارع مع الكولون الذين يطالبون فرنسا

بالمزيد من الدعم المالي والمزيد من الاستقلال المالي والإداري للانفراد باستغلال المجتمع الجزائري، وتجسدت هذه المطالب بصدور قانون 24 فيفري 1900، الذي أعطى الجزائر نوع من الحكم الذاتي خاصة في تسيير الميزانية، الشيء الذي منح الكولون سلطات مالية واقتصادية وإدارية كاملة على المجتمع الجزائري[38] باختصار هذا القانون يعتبر انتصارا للكولون وانهزام آخر للأهالي.

هذا الانجاز الذي حققه الكولون كان تتويجا وثمرة لعمليات الصراع التي كانت قد بدأت منذ 1848 بين المدنيين والعسكريين، بين مطالب اللامركزية والمركزية.

فالكولون بدأوا يطالبون بالحكم وبالاستقلال في إدارة شؤون البلاد قصد تحقيق أهوائهم ونزواتهم وأنانيتهم بتجريد الجزائريين من كل وسائل العيش وإبادتهم منذ سنة 1848 عندما عقدوا مؤتمرا لهم، طالبوا فيه بأن يؤخذ رأيهم في المسائل المالية والسياسة التي تخص الجزائر[39]، ذلك ما أدى بالجمهورية الثانية 1848 – 1852، إلى منحهم حقوق تمثيلية في المجالس الفرنسية: 4 نواب في المجلس التأسيسي 3 نواب في المجلس التشريعي، بالإضافة إلى حقهم في انتخاب ثلثي أعضاء المجالس البلدية في الجزائر.

وبعد أن قام نابليون بدمج الجزائر فعليا في فرنسا، عندما أنشأ وزارة الجزائر والمستعمرات وقلص دور الجيش وزاد في صلاحيات الكولون، مما ساعدهم على امتلاك أراضي جديدة ووسعوا من المناطق المدنية على حساب المناطق المختلطة والعسكرية. وعندما سقطت الإمبراطورية الثانية وظهرت الجمهورية الثالثة في فرنسا، خاض الكولون معاركا سياسة ضد الحكومة الجديدة وتمردوا عليها ورفضوا استمرار الحكم العسكري وهددوا بالاستقلال الجزائر عن فرنسا، وذلك حتى سنة 1871 عندما أعلنت الحكومة الفرنسية عن قيام حكم مدني في الجزائر[40].

وهكذا تكونت لدى أوروبيي الجزائر–الكولون– نفسية التكتل ضد الجزائريين ونفسية الانفصال عن فرنسا، ونفسية رجعية منغلقة على غيرهم من الأجناس وأصبحت لهم صحافة تغذي فيهم هذه الميولات الاستعمارية والنازية التي لا تؤمن حتى بالمثل الفرنسية كالمساواة والحرية والأخوة.[41]

هذه القـــوة الاستعمارية الجديدة "جمهورية الكولون" كما سمّاها الكاتب الفرنســـي (Jean Claud Vatin) أصبحت تعارض كل السياسات التي تنتهجها الحكومة الفرنسية

لتحسين أوضاع الأهالي الصعبة, كقانون تعليم الجزائريين الذي أصدرته سنة 1892، وعارضوه الكولون، بالرغم من أنهم قضوا على التعليم العربي، وغلقوا المدارس ونفوا المعلمين واستولوا على أملاك الأوقاف. وقد كتب (جول فيري) عن هذه السياسة ما يلي: "أن المعمرين يعتبرون الأهالي من جنس بشري منحط لا يصلح إلا للأعمال الشاقة بدون أجرة" وقد أصدر مجلس الكولون قرارا اعتبر العربي من جنس بشري منحط لا يقبل الثقافة والتعليم وأن فتح المدارس للأهالي بالجزائر يعرض البلاد لخطر حقيقي في المجال المالي ويؤدي إلى مزاحمة توظيف الفرنسيين[42]. وهكذا خضعت الحكومة الفرنسية لهذا الضغط من الناحية العملية وذلك بالرغم من انها كانت قد فتحت المجال لتعليم الجزائريين حتى بالفرنسية. كما توصلوا الكولون إلى تجميد وعرقلة تطبيق كل الإصلاحات الوهمية التي وعدت بها الحكومة الفرنسية الجزائريين كإصلاحات 1912، وقام الكولون بمعارضة المطالب الإصلاحية التي تقدم بها النواب المسلمين بعد الحرب العالمية الأولى 1919[43].

وهكذا أصبح الكولون يشكلون قوة سياسية أكثر استعمارية وأكثر نازية من الاستعمار الفرنسي ذاته رغم أنها نتاجا له، لأن مصالحهم أصبحت تراعى وتحظى بالأولوية قبل مصالح الدولة الفرنسية وذلك لكونهم أصبحوا يتحكمون في الإدارة وفي الجيش وفي الاقتصاد وفي الأهالي وفي الاستعمار ذاته. هذه القوة السياسية الجديدة قد أصبحت تشكل عائقا في وجه أي ارادة إصلاحية تجاه الوضع في الجزائر قد تظهر لدى الحكومة الفرنسية ،أو تطالب بها التنظيمات الفتية التي بدأ يكونها الجزائريون الدين كانوا يكونون الحليف الطبيعي للاستعمار، والذين بدأوا يطالبون ببعض الحقوق وبعض الإصلاحات قصد المساواة مع الكولون[44].

هذه العلاقات السياسية الجديدة بين فرنسا الأم والكولون والنخبة السياسية الجديدة من الجزائريين هي التي شكلت الظروف السياسية التي ساهمت في ظهور تيارات الحركة الوطنية الجزائرية بعد الحرب العالمية الأولى 1919.

3- ظهور نخبة سياسية جزائرية منقسمة وتابعة:

إن السياسة الاستعمارية التي انتهجتها فرنسا في الجزائر في الفترة 1830-1819 قد أفرزت هويتين اجتماعيتين وسياسيتين متناقضتين ومتصارعتين:

- الأولى تتمثل في المعمرين الذين استفادوا من دعم الحكومة الفرنسية عن طريق سياستها الاندماجية، هذه الفئة كما أشرنا سابقا أصبحت قوة سياسية واقتصادية وعسكرية

احتكرت كل الموارد السياسية في المجتمع على حساب فئة الجزائريين التي تكون الأغلبية في المجتمع.

-الثانية تتمثل في الأهالي, وهي المجتمع المهمش الذي فرضت عليها كل أنواع السياسات الاستعمارية القمعية والعنصرية، وهو ما أدى إلى تهميشها سياسيا وثقافيا واقتصاديا، وبالتالي، إخضاعها بوسائل عسكرية وإدارية وقانونية. غير أن هذا المجتمع المغلوب الذي توهمت فرنسا وممثلوها من الكولون في الجزائر بخضوعه واستسلامه للآلة الاستعمارية، بعد تجريده من كل ما من شأنه أن يساعده على مقاومة فرنسا من جديد بدأ يتحرك ولو ببطء من أجل الدفاع عن قضيته الجوهرية والمصيرية المتمثلة في الحرية والعدالة والمساواة التي داسها الاستعمار. ومع بداية توفر الظروف الموضوعية التي مهدت الطريق لبداية ظهور بوادر العمل السياسي الوطني، بدأت النواة الأولى للحركة الوطنية تتكون لتأخذ طابعا سياسيا يعتمد على الأساليب والوسائل الديمقراطية كسلاح جديدا في نضالهم الوطني بعد أن استفادوا من دروس أجدادهم في العمل المسلح.

ويمكن تلخيص هذه الظروف الموضوعية التي ساهمت في تكوين هذه النخبة السياسية وفي ظهور العمل السياسي الوطني فيما يلي:

أ- تكوين نخبة سياسية جزائرية[45]:

- نتج عن السياسة الاستعمارية في مختلف المجالات تردي أوضاع الجزائريين الاقتصادية الاجتماعية، فمن جراء هذه السياسة تكونت نخبة مثقفة من أعيان المدن والتي اندمجت في الحضارة الفرنسية وأصبحت تدافع عنها، لكن هذه النخبة اصطدمت بسياسة التميز العنصري التي تعاملها بها الإدارة الاستعمارية بإخضاعها لقوانين استثنائية أعاقت تطورها، الشيء الذي دفعها إلى المطالبة بإصلاحات من الإدارة قصد تحسين هذا الوضع[46].

- ظهور نخبة واعية من بين العمال الجزائريين بأوروبا، بسبب انخراطها في صفوف المنظمات النقابية والأحزاب السياسية خاصة في فرنسا ذاتها، أصبحت ترفع ضمن مطالبها الاجتماعية مطالب سياسة ذات بعد وطني[47].

- ظهور نخبة مثقفة تكونت في المدارس والجامعة الإسلامية والعربية بالمشرق كالزيتونة ومراكش والأزهر والمدينة المنورة، وبعد احتكاكها بقيادات حركة النهضة الإصلاحية بالمشرق

العربي أصبحت تستعمل الوسائل الإعلامية كالصحافة و المساجد والتعليم الحر في سبيل بحث الروح والوطنية والإسلامية في الجزائر.[48]

– ظهور نخبة واعية في صفوف الجنود الجزائريين الذين جندوا في الجيش الفرنسي للمشاركة في الحرب العالمية الأولى تطالب بإصلاح وضع الأهالي وبالاستقلال.

4– استخدام الوسائل الديمقراطية في النضال:

على إثر صدور قانون 21 مارس 1882 الذي قضى بالاعتراف بالحق وحرية العمل النقابي في فرنسا، ثم صدور مرسوم تطبيقي لهذا القانون في الجزائر سنة 1892، فصدور قانون الجمعيات سنة 1901 بفرنسا و صدور المرسوم التطبيقي الذي سمح بإنشاء الجمعيات من طرف الكولون في الجزائر سنة 1904، ورغم اقتصار هذا الحق على الأوروبيين، إلا أن الأهالي استطاعوا أن يستفيدوا من استعماله كأداة للدفاع عن حقوقهم التي قيدها القوانين الاستثنائية[49].

هذه القوانين التي سنتها السلطات الفرنسية قصد تمكين مواطنيها من ممارسة بعض حقوقهم السياسية والاجتماعية كحق ممارسة العمل النقابي، وحق إنشاء الجمعيات وحرية التعبير رغم أنها لم توضع للأهالي لأنهم ليسوا مواطنين فرنسيين كاملي الحقوق ولأنهم يخضعون إلى قوانين استثنائية أهمها قانون الانديجينا[50] إلا أن النخبة السياسية الجزائرية على اختلاف أصولها ومطالبها وأهدافها قد استخدمت هذه الحقوق كسلاح سياسي حديث في بداية نضالها السياسي ضد الاستعمار الفرنسي. وقد تجسد هذا النضال السياسي في ظهور الحركة الوطنية الجزائرية بعد الحرب العالمية الأولى 1918 في الوسائل السياسية التالية:

الصحافة:

كانت الصحافة من أهم الوسائل النضالية الحديثة التي لجأت إليها النخبة السياسية الجزائرية منذ بداية القرن العشرين للدفاع عن حقوقها الاجتماعية والثقافية والسياسية[51] وذلك بالرغم من القيود القانونية والإدارية التي كانت مفروضة عليها ومن تعرضها للمنع من الصدور والتوقيف وتعرض اصحابها للتوقيف و السجن و غرامات مالية، إلا أن الجزائريين الذين أدركوا القيمة الاستراتيجية لهذا السلاح في توعية وتعبئة الشعب حول نخبته للضغط على الإدارة من أجل الحصول على إصلاح أوضاعهم الصعبة وللحصول على حقوقهم الأساسية كالتعليم والصحة والعمل والأجر والمساواة والتصويت والترشيح. ولما لا استعمال

هذا السلاح الهام في اعادة بعث الروح الوطنية المكبوتة تدريجيا.وأهم الصحف التي صدرت من طرف هذه النخبة في العقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين يبينها الجدول التالـــــي:

جدول يبين الصحف الأهلية الصادرة في الجزائر من 1900 إلى 1930

الصحيفة	تاريخ الصدور	المكان	الميـــــول	تاريخ التوقيف	اللغة
الحق الوهراني	1901	وهران	وطنية	1914	ع.ف
المغرب	1903	الجزائر	محلية	1903	ع
المصباح	1904	وهران	/	1905	ع.ف
الهلال	1906	الجزائر	/	1907	ع.ف
الاحياء	1907	الجزائر	/	1907	ع.ف
كوكب افريقيا	1907	الجزائر	/	1914	ع
الجزائر	1908	الجزائر	وطنية	صدر متصاعد واحد	ع
الاسلام	1909	عنابة- الجزائر	/	/	ع.ف
ذوالفقار	1913	الجزائر	وطنية	1914	ع
الفاروق	1913	الجزائر	وطنية	1921	ع
البريد الجزائري	1913	الجزائر		1913	ع
الإقدام	1919	الجزائر	وطنية	1923	ف.ع
افريقيا	1919	الجزائر	وطنية		ع
النجـــاح	1919	قسنطينة		1923 أصبحت مواليد للأداة في 1955	ع
مستقبل الجزائر	1920	الجزائر		1920	ع.ف
الصديق	1920	الجزائر		1920	ع
مستقبل الجزائر	1921	الجزائر		1922	ع.ف
النصح	1921	الجزائر	اندماجية	1922	ع.ف
La voix des humbler	1922	وهران	اندماجية	1928	ف

لسان الدين	1923	الجزائر	وطنية		ع
التقدم	1923	الجزائر	اندماجية	1931	ع.ف
المنقد	1925	قسنطينة	إصلاحية وطنية	1925	ع
الجزائر	1925	الجزائر	وطنية		ع
الشهاب	1925	قسنطينة	وطنية إصلاحية	1939	ع
الحل	1926	بسكرة	وطنية	1926	ع
البلاغ الجزائري	1926	مستغانم		1932	ع
le trait d'union	1927	وهران	طرقية	1932	ف
indigène la tribune	1927	الجزائر		1929	ف
الإصلاح	1927	بسكرة	وطنية	1931	ع
صدى قسنطينة	1927	قسنطينة			ع
وادي ميزاب	1926	الجزائر		1929	ع
الميزاب	1928	الجزائر	وطنية اصلاحية	1929	ع
المغرب	1930	الجزائر	وطنية	1931	ع
la nouvelle Algérie	1927	الجزائر	اندماجية	1928	ف
la voix indigène	1929	الجزائر	اندماجية	1931	ف

من خلال الجدول المبين للصحف التي كانت تصدرها النخبة السياسية الجزائرية بمختلف انتماءاتها الثقافية، الاجتماعية والسياسية بين 1900 و 1930 التي بلغ عددها 32 عنوانا، وهي ذات أسماء عربية، ونشرت باللغتين العربية والفرنسية في غالبيتها. هذا العدد الهام مقارنة بارتفاع نسبة الأمية بين الجزائريين في هذه الفترة يعتبر إنجازا كبيرا حققته النخبة، لا شك أنها لعبت دورا كبيرا في نشر الوعي الوطني لدى الشعب،[52] وهذا بالرغم من العراقيل التي كانت تواجهها من طرف الإدارة، وبالرغم من نقص الإمكانيات المادية والبشرية التي تتطلبها عملية نشر وإخراج الصحف.

كما اعتبرت الصحف الصادرة في هذه الفترة بمثابة أداة اتصال وهمزة وصل بين مختلف الاتجاهات السياسية التي شاهدت ميلاد الحركة السياسية الجزائرية في هذه الحقبة الهامة من تاريخ الجزائر السياسي، وبالتالي، يمكن القول أن الإعلام لعب دورا هاما في تطوير وبلورة الظروف السياسية التي أدت على تطور الحركة الوطنية الجزائرية خاصة في العقد الثالث من القرن العشرين. لأن الصحافة هي ذلك السلاح الذي أدركه الشباب الجزائريون لبث أفكارهم وتربية مواطنيهم، حيث نشرت إحدى الجرائد الأولى القريبة من المسلمين[53] "المنتخب" على أعمدتها مايلي: الصحافة، ذلك هو السلاح الذي يجب أن تتدربوا عليه، لأنها قادرة على دفع العالم إلى التمرد والعصيان" [54] وقد صدرت بين سنتي 1907-1913، 15 خمسة عشر جريدة كانت من أهم أسباب ظهور الصحوة الجزائرية ولسان حال الشباب الجزائريين.

الجمعيات والنوادي:

مثلما استفاد الشباب الجزائريون من الإعلام كوسيلة سياسة للتعبير عن أفكارهم وعرض مطالبهم النضالية، فإنهم استفادوا من وسائل سياسة أخرى لا تقل أهميتها عن الإعلام، وهي الجمعيات و النوادي الثقافية. فقاموا بإنشاء عدة جمعيات عبر أهم المدن الجزائرية (وهران، الجزائر، قسنطينة) استعملوها كأطر نظامية وقانونية لممارسة نشاطاتهم الثقافية والسياسية من أجل توعية وتعبئة الرأي العام الأهلي وراءهم قصد تحقيق مطالبهم الإصلاحية. وأهم هذه الجمعيات كما ذكرها الأستاذ "محفوظ قداش "[55] هي:

1- جمعية الراشدية أنشئت بالعاصمة سنة 1902.
2- نادي صالح باي بقسنطينة أنشئ سنة1907.
3- نادي التقدم بعنابة.
4- نادي الشباب الجزائري بتلمسان.
5- الجمعية الأخوية بمعسكر.
6- نادي الإقبال بجيجل أنشئ سنة1919.
7- رابطة العمل الفرنسي الإسلامي.
8- نادي الترقي بالجزائر العاصمة أنشئ سنة 1931.

وفي مجال العمل النقابي يلاحظ أن الجزائريين لم ينشئوا نقابات وطنية مستقلة، ولكنهم كانوا ينخرطون في الفروع التي أنشأتها النقابة الفرنسية في الجزائر، وذلك بعد تطبيق القانون

الفرنسي الصادر سنة 1882 حول ممارسة الحق النقابي، ثم صدور مرسوم تطبيقي لهذا القانون في الجزائر سنة 1894، وهو ما أدى إلى تكوين عدة فروع نقابية أصبح عددها سنة 1921، أكثر من 344 تابعة لنقابة الاتحادية العامة للعمال الفرنسية[56] وعلى الرغم من سيطرة الأوروبيين على هذه النقابات، فإن الأهالي الذين انخرطوا فيها بدأوا يستعملون النقابة كوسيلة لطرح قضاياهم الوطنية وذلك باستغلال الإضرابات المختلفة التي نظمتها النقابة في الموانئ والنقل والبناء. فقد شاهدت الجزائر عدة اضرابات منها : إضراب نظمه عمال ميناء وهران بتاريخ 7 سبتمبر 1900، إضراب سكيكدة سنة 1910، وفي سنة 1923 قام العمال بتنظيم أكثر من 13 إضراب في عمالة الجزائر العاصمة[57].

كما أصبح الجزائريون يشاركون وينظمون المسيرات النضالية في سبيل التعبير عن مواقفهم السلمية من القضايا ذات العلاقة بقضيتهم الوطنية.

ورغم ذلك، يمكن القول أن انخراط الأهالي في النقابات والأحزاب الفرنسية اليسارية كالحزب الشيوعي الذي أنشأ فروعا له في الجزائر منذ تأسيسه سنة 1920، قد تمكنوا من التدريب على هذا السلاح الجديد (النضال النقابي والحزبي) وأصبحوا يستعملونه في خدمة قضيتهم الوطنية.

بداية النضال الحزبي بين الأهالي:

بالرغم من التنظيمات السياسية التي أنشأتها النخبة السياسية الجزائرية للتعبير عن نفسها لم تأخذ شكل التنظيم الحزبي التقليدي إلا بعد الحرب العالمية الأولى، وبالضبط منذ تكوين نجم شمال إفريقيا سنة 1926، إلا أن المرحلة التي سبقت هذه الفترة من عمر الحركة الوطنية الجزائرية قد شاهدت تكوين بعض التنظيمات السياسية التي هي أقرب من الأحزاب السياسية من أي تنظيم سياسي آخر.

وهذا التنظيم السياسي كان يطلق عليه اسم الشبان الجزائريين الذي يعتبر مجموعة الشخصيات المثقفة باللغة الفرنسية وذات وعي سياسي يؤهلها لمناقشة مسألة التجنيس وتمثيل الأهالي في المجالس الجزائرية والفرنسية. هذا التنظيم كان يطلق عليه سنة 1901 "الشباب الأتراك" [58] فكان تنظيم الشبان الجزائريين أول من طرح سياسيا بعض جوانب المسألة الأهلية، ففي سنة 1911 قدم مطالبه في صحيفة الإسلام حول انتخاب رؤساء البلديات، المساواة في

الضرائب، القانون العام وإعطاء مكانة للمثقفين الاهالي في التمثيل وتوسيع الانتخابات البلدية، وإصلاح الإدارة... الخ.

وقد كان لصدور قانون التجنيد الإجباري سنة 1912 تأثير كبير في أواسط الأهالي وهو ما ساهم في تطور حزب الشباب الجزائري بلجوءه إلى اعتماد أسلوب المطالبة بمقابلة السلطات الإدارية وتقديم عرائض ولوائح تتضمن العديد من المطالب السياسية الوطنية [59] رغم أنها كانت مطالب تخدم فئة الأعيان والشباب المثقفين والنواب القريبين من الإدارة الاستعمارية ولا تتطرق لمشاكل الأهالي المسلمين في الأرياف.

قام هذا التنظيم (الشباب الجزائري) بتكوين لجنة للدفاع عن حقوق المسلمين أرسلت وفدا يتكون من 9 ممثلين برئاسة الدكتور بن تامي[60] إلى باريس للقاء رئيس المجلس الفرنسي "بوانكاري" يوم 26 جوان 1912 وقدمت له رسالة تتضمن الإصلاحات التي يطالب بها الأهالي من فرنسا مقابل تجنيدهم.[61]

أما المطالب التي تضمنتها هذه الرسالة فتتلخص فيما يلي:

- تقليص مدة الخدمة العسكرية من 3 سنوات إلى سنتين مثل الفرنسيين وإلغاء المنحة للجزائريين المجندين.
- إصلاح النظام الاستثنائي.
- جعل التمثيل في المجالس الجزائرية المنتخبة متساويا بين المسلمين والمعمرين.
- توزيع عادل للأعباء الضريبية.
- توزيع عادل للميزانية بين جميع فئات المجتمع[62].

وهذه المطالب الإصلاحية الاندماجية التي يدافع عنها "الشبان الجزائريين" لا تعبر عن تطلع المجتمع الجزائري إلى الحرية والاستقلال ولا تترجم بأمانة احتياجات غالبية السكان، انها تترجم المصالح الأنانية والانتهازية لفئات الأعيان والإقطاعيين والنواب والإداريين والمثقفين الذين تكونوا في المدارس الفرنسية وأصبحوا بدون مستقبلهم على ضوء مستقبل فرنسا. غير أن تراكم الأحداث التاريخية عبر العالم وفي الداخل قد ساهم في تطور هذا التنظيم السياسي في الاتجاه الذي أدى إلى ظهور مطالب وطنية خاصة بعد نهاية الحرب العالمية الأولى سنة 1918. ويمكن سرد هذه الأحداث فيما يلي:

1- الحرب العالمية الأولى ونتائجها بالنسبة للجزائريين الذين جندوا تحت الراية الفرنسية في الحرب ضد ألمانيا.

2- صدور تصريح الرئيس الأمريكي "ولسون" حول حقوق الشعوب في ديسمبر 1917 حيث تضمنت النقطة الثامنة منه على أن يكون لكل الأمم بدون تمييز عرقي أو ديني حق تقرير مصيرها، كما أعلن مساندة الشعب الأمريكي لهذه المطلب[63] وقد ظهرت كنتيجة لهذا التصريح عدة مظاهرات نظمت في باريس لفائدة حق الشعوب في تقرير مصيرها.

كما نظم مؤتمر لرابطة حقوق الإنسان بباريس سنة 1916، حضرته عدة شخصيات سياسية تنتمي للعديد من الأحزاب والحركات السياسية والنقابية خاصة في المستعمرات. وقد أكد هذا المؤتمر على مبدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها بنفسها[64].

3- العمل السياسي للأمير خالد: على إثر مشاركة الجزائريين في الحرب العالمية الأولى إلى جانب الجنود الفرنسيين، أصدرت فرنسا اصلاحات 6 فيفري 1919 التي لم تطبق جراء معارضة الكولون لها، فكانت هذه الإصلاحات سببا في انقسام "الشبان الجزائريين" الذين كانوا قد كونوا لجنة للدفاع عن مصالح المسلمين إلى تيارين, تيار يرأسه الدكتور ابن التهامي ويطالب بالتجنيس وتيار بقيادة الأمير خالد الرافض للتجنيس ويناضل من أجل إصلاحات سياسية واقتصادية واجتماعية لفائدة الأهالي وسوق نتعرض للتيارين فيما يلي:

1- تيار الأمير خالد "الأخوة الجزائرية":

قام الأمير خالد بإنشاء "الأخوة الجزائرية" في شهر جانفي 1922 التي تهدف إلى البحث عن وسائل للدفاع عن الوضع المادي، المعنوي، الثقافي، الاقتصادي والسياسي لمسلمي الجزائر، وقام بإيداع قانونها لدى الحاكم العام بالعاصمة بتاريخ 23 جانفي 1922 وقد أطلق البعض [65] اسم "حزب الشبان الجزائريين" رغم أن نص الوثيقة التي قدمت في كتاب "كلود كولو" تحمل اسم " la fraternité Algérienne" ومن خلال نص هذه الوثيقة التي تضمنت التسمية ، الأهداف، المطالب والوسائل. وبالتالي، تسمية هذا التنظيم بحزب سياسي اسمه "حزب الإخوة الجزائرية". وقدم هذا الأخير مطالبه في جريدة الأقدام الصادرة بتاريخ 04 أوت 1922 وفي الرسالة التي وجهها إلى الرئيس الفرنسي 1924 وهي:[66]

1- تمثيل المسلمين في البرلمان الفرنسي بنسبة متساوية لعدد نواب أوروبيي الجزائر.

2- إلغاء القوانين الاستثنائية.

3- المساواة في الخدمة العسكرية في مجال الحقوق والواجبات.

4- حق الجزائريين في تقليد جميع المناصب المدنية والعسكرية بدون تمييز.

5- تطبيق القوانين المتعلقة بالتعليم الإجباري على الأهالي مع حرية التعليم.

6- حرية الصحافة والجمعيات.

7- تطبيق فصل الدين عن الدولة بالنسبة للدين الاسلامي.

8- العفو العام.

9- تطبيق القوانين الاجتماعية والعمالية لفائدة الجزائريين.

10- الحرية التامة للعمال الجزائريين في الدخول إلى فرنسا[67].

من خلال هذه المطالب السياسية ذات البعد الوطني، يظهر لنا التطور النوعي في الكيفية التي طرح بها الأمير خالد أوضاع المجتمع الجزائري والإصلاحات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية الواجب القيام بها على الأقل بتطبيق إصلاحات فيفري 1919، ولعل ذلك ما دفع الإدارة إلى اضطهاده واتهامه أحيانا بأنه "وطني مسلم" أو "شيوعي" ومن ثمة نفيه إلى فرنسا سنة 1923[68]. وعلى إثر نفي الأمير خالد، صار أنصاره من بعده في الاتجاه الوطني الذي أدى إلى تكوين نجم شمال افريقيا سنة 1926.

وقد كان لأفكار خالد الإصلاحية تأثير كبير على الحركات العمالية الشمال-إفريقية التي كانت تناضل تحت لواء الحزب الشيوعي الفرنسي والأممية الشيوعية، ففي أول مؤتمر ضم عمال شمال إفريقيا لمنطقة باريس يوم 7 ديسمبر 1924، صادق المؤتمرون على لائحة من المطالب التي تأثرت في جانبها السياسي بمطالب الأمير خالد ومنها حق الأهالي في التصويت العام والمباشر[69].

إن التيار السياسي الذي تكون على إثر الانقسام الذي وقع داخل "الشباب الجزائريين" سنة 1919 بقيادة الأمير خالد، هو الذي غذى مناضلي الحزب الشيوعي الفرنسي من الجزائر مثل حاج علي عبد القادر، علي بوقرط، شبيلة الجيلالي ومصالي الحاج بالروح الوطنية التي تكون فيها نجم شمال إفريقيا[70].

2- تيار ابن التهامي:

وهناك من يطلق عليه تسمية "الحزب اللبرالي" و يتزعمه الدكتور ابن التهامي الذي جمع حوله عدة شخصيات سياسية كابن جلول، عباس فرحات والزناتي وغيرهم من الأعيان والمثقفين باللغة الفرنسية وأصحاب المهن الحرة كالأطباء ورجال القانون والمعلمين والموظفين الإداريين والنواب المسلمين. وسبب الانقسام الذي وقع داخل حزب "الجزائر الفتاة" هو دمج

الجزائر بفرنسا دمجا كاملا ومنح الجنسية الفرنسية للجزائريين بغض النظر عن الاحتفاظ بالأحوال الشخصية الإسلامية أولا. وأصبح الصراع بين التيارين على أشده خاصة في انتخابات بلدية الجزائر التي كان النصر فيها للأمير خالد على حساب تيار بن التهامي[71] ولقد تطور هذا التيار السياسي ليأخذ شكل حزب سنة 1927 برئاسة الدكتور بن جلول تحت اسم "فدرالية النواب المسلمين الجزائريين" التي تجمعت حولها كل الفئات الاجتماعية والثقافية والإدارية التي دافعت عن ارتباطها بفرنسا وصاغت مطالبها الإصلاحية التي تودي إلى الإدماج.

فحركة الشبان الجزائريين المدعمة من طرف أعيان المدن والإقطاعيين، كانت قد عبرت عن ميلاد أهم التيارات السياسية التي تكونت على أثرها الحركة الوطنية الجزائرية بعد سنة 1926. كما أنها أول تيار وطني ساهم في بلورة وإنضاج عدة مطالب الحركة الوطنية فيما بعد كالمساواة في الحقوق والواجبات مع الفرنسيين وإلغاء القوانين الاستثنائية والاندماج بفرنسا والاستقلال عنها. وقد ساهم في تطور وظهور هذه الحركة عدة أحداث سياسية داخلية وخارجية أهمها:

1- قانون التجنيد الإجباري الصادر سنة 1912.

2- الحرب العالمية الأولى.

3- تصريح الرئيس الأمريكي ويلسون المتضمن حق الشعوب في تقرير مصيرها.

4- بداية توفر الشروط الموضوعية المدعمة للأفكار الوطنية ولاستقلال الشعوب: مؤتمر رابطة حقوق الإنسان في باريس 1916.

5- صدور قانون 1919 الإصلاحي هذا القانون الذي تضمن المساواة في الضرائب، وألغى بعض أحكام قانون الانديجينا ووسع حقوق المسلمين الجزائريين في المجالس البلدية والمالية وحق المشاركة في انتخاب رؤساء البلديات.

6- معارضة الكولون الشديدة لإصلاحات 1919.

7- اختلاف في موقف حركة الشبان الجزائريين، بين معارض ومؤيد وانقسامهم إلى تيارات سياسية جديدة خاصة حول موضوع التجنيس الذي عارضها الأمير خالد، أما النخبة الاندماجية فرأت أن هذا القانون لا يلبي مطالبهم الاندماجية فيما يتعلق بالتجنيس لأنه لم يعطي الفرصة لجميع الأهالي لكي يتجنسوا.

8- تكوين الفدرالية الشيوعية الجزائرية سنة 1924 التابعة للحزب الشيوعي الفرنسي، والتي بدأت تتخذ مواقف ايجابية تجاه المسألة الوطنية الجزائرية، تحت تأثير الشروط الواحدة والعشرين التي وضعتها الأممية الشيوعية خاصة تلك المتعلقة بالاستعمار والامبريالية.

مما سبق، يظهر أن النخبة السياسية الجزائرية بمختلف أصولها الاجتماعية ومواقفها السياسية قد شهدت تطورا كبيرا بفضل عوامل كثيرة ذاتية وخارجية كما ذكرنا سابقا. وأدى هذا التطور إلى تعقد البيئة السياسية التي يتكون منها المجتمع الجزائري، وهي بيئة أصبحت تتكون من نظامين سياسيين فرعيين حسب تعتبر "دافيد استون" نظام سياسي فرعي له قيم وموارد سياسية يمثله الكولون، ونظام سياسي فرعي يختلف كما وكيفا عن الأول وتمثله هذه النخبة السياسية الجزائرية. وقد أدت معارضة الكولون العنيدة لأي محاولة تقوم بها فرنسا لتلبية المطالب السياسية لهذه النخبة إلى زيادة الهوة بين النظاميين السياسيين الفرعيين، وبالتالي، تطور إحداهما على حساب الأخر، وذلك ما لاحظناه في تطور الحركة الوطنية الجزائرية فيما بعد نحو الاتجاه الذي أدى إلى زوال النظام السياسي الفرعي الذي يمثله الكولون.

إن سياسة الاستيطان المتعددة الجوانب قد أدت إلى تحطيم المجتمع الجزائري عن طريق تكوين هويتين سياسيتين متصارعتين على أساس ميزان قوة كان لصالح الكولون على حساب الأهالي، وهذا الصراع بين النخبة السياسية الجزائرية التي ظهرت بفضل عوامل كثيرة في بداية القرن العشرين والكولون، هو الذي مهد الطريق لتكوين الحركة الوطنية الجزائرية بعد الحرب العالمية الأولى سنة 1919. كما أنّ السياسات التقسيمية والتمييزية التي اتبعتها فرنسا في الجزائر, قد نجحت إلى حد كبير في تعدد الأصول الاجتماعية والانتماءات الثقافية, وإيديولوجية النخبة الجزائرية, التي أثرت على نظام الحركة الوطنية المبني على تعددية قسرية أو جبرية, وليست حرة كما هو الحال بالنسبة للتعددية الحزبية في الأنظمة الحديثة.

إذن هذه السياسات الاستعمارية لم تؤدي فقط إلى احتلال الجزائر بل إلى تقسيم المجتمع الجزائري إلى عدة تيارات سياسية متناقضة فيما بينها حول الانتماء الحضاري, وحول اللغة, والدين والعلاقة مع فرنسا. وكل ذلك أدى إلى خدمة الاستعمار الفرنسي وسيبقى يخدمه, ما دامت الجزائر لم تقضي على أسباب وبذور التفرقة التي بثتها فرنسا عن طريق السياسات التي انتهجتها في الجزائر لأجل احتلالها والبقاء فيها وإلى الأبد.

– الهوامش:

[1] عدي الهواري, الاستعمار الفرنسي في الجزائر: سياسة التفكيك الاقتصادي والاجتماعي 1830-1960. (ترجمة جوزيف عبد الله), ط1. لبنان, دار الحداثة للطباعة والنشر, 1983, ص38-45.

[2] Djamel Kherchi, Colonisation et politique d'assimilation en Algérie 1830-1962. Alger. Casbah, 2004, PP25-31.

[3] حسب روبير داهل، فالموارد السياسية هي تلك الوسائل التي يعتمدها مختلف عناصر النظام السياسي في ممارسة تأثيرهم السياسي في المجتمع. وتتمثل هذه الموارد في المال والعلم والدين والمكانة الاجتماعية والإعلام.....

[4] أحمد الخطيب، جمعية العلماء المسلمين وأثرها الإصلاحي في الجزائر الجزائر المؤسسة الوطنية للكتاب, 1985, ص34.

[5] Abderrahim Taleb ben DIAB, Chronologie des faits et mouvements sociaux et politiques en Algérie 1830-1954 Alger. Imp du centre 1983 P1.

[6] IBID, P2

[7] Abderrahmane Talb ben Diab, Op. Cit, P3.

[8] IBID, P4.

[9] IBIDEM.

[10] أندري بريان وآخرون، الجزائر بين الماضي والحاضر، ترجمة اسطنبولي رابح،الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1984، ص351 – 380.

[11] Abderrahim Taleb Ben Diab , Chronologie des faits et mouvements sociaux et politiques en Algérie 1830-1954. Alger 83, P12.

[12] Mahfoud Keddache, Histoire du nationalisme révolutionnaire Algérien, Tome I, Alger, SNED, P230.

[13] IBID, P135.

[14] سميرأمين، المغرب العربي الحديث، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية, 1981، ص67.

[15] نفس المرجع، ص 105.

[16] ابن شنهو، تكوين التخلف في الجزائر، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، ص82.

[17] الجيلالي صاري، محفوظ قداش، المقاومة السياسية 1900-1954, ترجمة بن حراث, الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب, 1987, ص135.

[18] Mahfoud Keddache, Op. Cit, P371.

[19] عبد الباقي هرماسي، الدولة والمجتمع في الغرب العربي، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ، 1987، ص18.

[20] عبد الله عبد الرزاق، المسلمون والاستعمار الأوروبي لإفريقيا، الكويت ، عالم المعرفة, 1989, ص20.

[21] انظر في المحور الذي يتناول الظروف الثقافية التي ساهمت في تكوين الحركة الوطنية.

[22] Abderrahim Taleb Bendiab, Op. cit, P21.

[23] عبد المالك مرتاضى، الثقافة العربية في الجزائريين التأثير والتأثير، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية, 1982، ص13.

[24] آندري بريان وآخرون، مرجع سابق ذكره، ص382.

[25] Abderrahim Taleb Ben Diab, Op. cit, P19.

[26] IBID, P20.

[27] IBID, P38.

[28] Bouguessa Kamel, Emigration et politique, essai sur la formation et la politisation de la communaute Algerienne en france entre deux guerres mondiales. Thèse 3e Sycle, lettre, Paris 1979, P150-161.

[29] آندري بريان وآخرون، مرجع سابق ذكره، ص412 – 418.

[30] فقد صدر قانون عن الحكومة الفرنسية في سنة 1900 يمنح الجزائر الشخصية المدنية وميزانية خاصة، وهذا نزولا عند مطالب الكولون باعطاءهم الاستقلال الذاتي لإدارة شؤونهم في الجزائر.

[31] آندري بريان وآخرون، مرجع سابق ذكره، ص 410.

[32] قنانش محمد, الحركة الاستقلالية في الجزائر بين الحربين 1919-1939, الجزائر, الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1981, ص16-18.

[33] آندري بريان وآخرون، مرجع سابق ذكره، ص362–369.

[34] أرجع في ذلك للكتابين الذين ألفهما الأستاذ والباحث الفرنسي جون كلود فتان الأول تحت عنوان: L'Algérie politique histoire et société سنة 1974 والثاني بعنوان: L'Algérie politique institutions et régime.

[35] Jean claud vatin, L'Algérie politique histoire et société. Paris, Presses de la Fondation Nationale des sciences politique, 1974, P127–128.

[36] Mahfoud Keddache, Op. Cit, P185.

[37] Jean claud vatin, Op. Cit, P133.

[38] أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية 1900-1930، جزء ثاني, بيروت, دار العرب الاسلامي, 1992, ص90.

[39] Charles Robert Ageron, Histoire de l'Algérie contemporaire, Paris, P23.

[40] نفس المرجع، ص30–32.

[41] Jean claud vatin, Op. cit, P36.

[42] عبد الله شريط ومحمد مبارك الميلي، مرجع سابق، ص274.

[43] نفس المرجع, ص275.

[44] عمار هلال، أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر (1830-1962), الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية 1995، ص178-180.

[45] نعني بالنخبة السياسية الجزائرية كل التيارات السياسية الجزائرية التي ظهرت بقيادات جزائرية ذات مطالب اندماجية، اصلاحية، استقلالية وتسمية النخبة هنا نستعملها بالمعنى السياسي، وليس بالمعنى الثقافي أو الاجتماعي الذي استعمله الكثير من الكتاب مثل سعد الله ومحفوظ قداش،و اندري جوليان وغيرهم.

[46] Ahmed mahsas, le mouvement révolutionnaire en Algérie de la guerre mondiale à 1954,paris armatan 1978 P34.

[47] أنظر في هذا الشأن: محمد حربي، محساس،مغنية الأزرق، أبو القاسم سعد الله، سعيدوني، سليمان الشيخ (كان عدد المجندين من شمال افريقيا الذين جندتهم فرنسا في حربها ضم ألمانيا 197000 ألف جندي).

[48] أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية, الجزء الثالث 1930-1954،بيروت دار المغرب الإسلامي، ص50.

[49] Abderrahim taleb ben Diab, Op. cit, P270.

[50] Ahmed Mahsas, Op. cit, P36 - 42.

[51] هذا لا يعني أن الأهالي لم تكن لهم صحافة قبل 1900، حسب الأستاذ زهير احداد، كانت للأهالي عدة صحف قبل هذا التاريخ منها صحيفة الحق التي كانت تصدر في عنابة عام 1893،

[52] أحمد الخطيب، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر،الجزائر المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985، ص74-79.

[53] هذا النص نشرته صحيفة المنتخب التي صدرت في قسنطينة سنة 1882.

[54] الجيلالي صاري، محفوظ وراس، ترجمة عبد القادر بن حراث، المقاومة السياسية 1900-54 الطريق الاصلاحي والطريق الثوري ، الجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، 1984, ص167.

[55] Mahfoud keddache, Op. cit, P75.

[56] Taleb Abderrahmane Diab, Op. cit, P20.

[57] IBID, P32.

[58] Mahfoud keddache, Op. ci t, P75.

[59] Claud collot, J.p henry . Op. cit. P23

[60] كان هذا الوفد يتكون من مستشاري البلديات التالية الجزائر، مختار حاج سعيد وبوشارب علاوة وموسى عن قسنطينة، حاج عمار عن جيجل، جودي عن بسكرة، بن عقمان وبن دادوش عن تلمسان، قارة عن بجاية.

[61] الجيلالي صاري، محفوظ قداش، مرجع سابق, ص16-17.

[62] Claude collot J.P Henry, Op. cit, P24

[63] IBID, P25.

[64] IBID, P28.

[65] كان عدد الجزائريين الذي شاركوا في الحرب تحت لواء الجيش الفرنسي قدر بـ 175000 جندي.

[66] Claude collot, H. J.p, Op. cit, P30-31.

[67] جاء ذلك في كتاب أحمد الخطيب حول جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وفي كتاب الدكتور أبو القاسم سعد الله الجزء الثاني وكتاب الجيلالي صار ومحفوظ قداش حول المقاومة السياسية 1900-1954 تطريق الإصلاحي والفريق الثوري.

[68] هذه المطالب ضمنها الأمير خالد في رسالة وجهها إلى الرئيس "هيروث" بتاريـــــخ 3 جويلية 1924.

[69] أحمد الخطيب، مرجع سابق, ص42.

[70] Claud collot, J .p Henry, Op. cit, P34.

[71] Mohammed Taguia, Algérie en guerre, Alger OPU 1980, P31 .32.